نحو تأصيل إسلامي
للعلوم الأثرية

منتدى
أهل التاريخ

علم الآثار

تأليف

د. جمال عبد الهادي
الأستاذ المساعد
كلية الآداب جامعة الملك عبد العزيز
جدة

د. وفاء محمد رفعت
الأستاذ المساعد
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الملك عبد العزيز / مكة المكرمة



بسم الله الرحمن الرحيم

فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها . فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

صدق الله العظيم

الفصل الأول

علم الآثار

والأهداف التي يجب تحقيقها من وراء الدراسات الأثرية

منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، أنزل الله على رسولنا — محمد صلى الله عليه وسلم — قرآنا يقول فيه سبحانه وتعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى المسلمين » (النحل : ٨٩) . وعنه قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : « كتاب الله ، فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين ، وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لاتزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً »(الجن : ١ — ٢) . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

وفى القرآن الكريم وردت كلة آثار — وهى جمع أثر — فى قوله سبحانه وتعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون — فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون. فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون . (غافر : ٨٢ — ٨٥) .

وآثار القوم هى مخلفاتهم التى يعرفنا القرآن أيضاً بنماذج منها فى قوله

سبحانه وتعالى : « فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون . واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » . (الدخان ٢٢-٢٩)

فالجنات والعيون والزروع والمقام الكريم هى مخلفات القوم الذين أهلكهم الله لشركهم ، واستخلف غيرهم لأنهم عبدوا الله دون شريك .

إذا يمكن تعريف علم الآثار بأنه علم دراسة مخلفات الأمم السابقة سواء المادية منها أو الفكرية ، الثابتة أو المنقولة ، الظاهرة منها أو المطمورة وذلك لتحقيق أهداف هامة وحيوية أهمها : أن البشرية مطالبة بالسير فى أرض الله ، بعيون مفتوحة ، وآذان مدركة وعقول واعية لمشاهدة مصارع ومخلفات المجتمعات الجاهلية التى رفضت الإسلام كعقيدة وشريعة عليها نتعظ ونعتبر بما حدث للمشركين بالله الرافضين لدينه ، فيعودون إلى الله يعبدونه ... يوحدونه ولا يشركون به شيئاً قبل أن يحيق بهم ما حاق بغيرهم .

هذه الحقيقة يوضحها لنا القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، كما يجليها لنا الحديث الشريف فى أكثر من مكان .

الموضع الأول :

يقول الله عز وجل : « وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . وقوم ابراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير . فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . (الحج : ٤٢—٤٦)

فالخبر القرآنى ، عن قوم نوح الذين أهلكهم الله بالطوفان وعاد الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية . وثمود الذين أهلكوا بالطاغية . وقوم لوط الذين

أمطروا مطر السوء بسبب تكذيبهم رسل الله ورفضهم توحيد الله بلا شريك يقترن بالدليل المادي المؤكد لصدقه متمثلا فيما تركه القوم الهلكى من قرى خاوية على عروشها (سقوفها) وبئر معطلة وقصر مشيد .

ومن هذا الخبر التاريخي المؤكد بالدليل المادي (الدال على حقائق ثابتة فى خط سير البشرية) ينتج العلم والمعرفة بتاريخ الأمم السابقة وحضارتها . وتحقق العلم والمعرفة — فى الإسلام — ليست هدفاً أو غاية فى حد ذاتها ، ولكنها وسيلة لتحقيق غاية أكبر وهى عبادة الله وحده بلاشريك . ولذلك فإن النص القرآنى لم يتوقف عند قصر مشيد . . بل استمر قائلا : أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . . . ومعنى ذلك ألم يكن للناس وهم يضربون فى جنبات الأرض عيون أو قلوب أو آذان فيشاهدوا بها آثار القوم التى تنبىء عن مصير المشركين الذين أهلكهم الله لظلمهم ، علهم يعتبرون فلا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من الشرك بالله مالم ينزل به سلطانا .

الموضع الثانى :

ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لاتخف ولاتحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون.) سورة العنكبوت ٣٢—٣٥ .

فالقصة القرآنية هنا تحوى خبراً يؤيده دليل مادى . الخبر عبارة عن سرد تاريخى لاحوال قوم لوط : الذين رفضوا الاقرار لله بالالوهية والربوبية فانطلقوا يفسدون فى الأرض ويأتون الرجال شهوة من دون النساء . . .

أما الدليل المادى على صدق الخبر التاريخى فيتمثل فى مصارع القوم وفيما خلفوه من آثار وهى التى يقول عنها الله سبحانه : « ولقد أتوا على القرية [١] التى أمطرت مطر السوء ، أفلم يكونوا يرونها ، بل كانوا لايرجون نشورا »(سورة الفرقان ٤٠)

(١) قريه سدوم من أعمال الأردن .

هذه القرية هى الآية البينة التى يطلب الله من البشر أن يعقلوها ويتدبروا مافيها ، فلا يشركون بالله ولا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ولا حاق بهم ماحاق بقوم لوط وفى ذلك يقول رب العزة : « فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لسبيل مقيم إن فى ذلك لآية للمؤمنين » . (الحجر : ٧٣ — ٧٧) .

الموضع الثالث :

« ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين . فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون » . سورة الحجرات ٨٠ — ٨٤

وأصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح الذين أشركوا بالله ، وكانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وتآمروا على قتل الناقة وهى آية من الله . . . وفيهم يقول سبحانه وتعالى : « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنادمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون »(١) .

والقصة القرآنية — هنا — تحوى خبراً مقترناً بالدليل المادى — متمثلا فى البيوت الخاوية التى تركها القوم الذين ظلموا — لتكون آية وعبرة للبشر تحول بينهم وبين الوقوع فيما وقع فيه غيرهم .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ عندما نزل بالناس على تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود (آثار مدائن صالح الآن) فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا : « إنى أخشى أن

---

(٢) النمل . ٥٠ - ٥٣

يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم . وقال أحمد أيضاً : حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر « لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ماأصابهم » أخرجاه فى الصحيحين من غير وجه . وفى رواية « فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم » .

الموضع الرابع :

(واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . . .) الأحقاف ٢١ .

ولكن القوم رفضوا دعوة هود عليه السلام إلى عبادة الله الواحد القهار ، وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فما كان من الله سبحانه وتعالى إلا أنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما : « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هـذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين » . (الأحقاف ٢٤ — ٢٥)

ثم ماذا تبقى ؟ آثار القوم ... مخلفاتهم دليلا حيا على مدار الزمان على وعد الله الذى لا يتخلف ولايتغير طال الزمن أم قصر — بإهلاك الظالمين الذين اعتدوا على سلطان الله فى الأرض فاشركوا به مالم ينزل به سلطانا .

وبذلك (١) يمكن أن نخلص إلى نتيجة هامة وهى أن العلم بتاريخ الأمم السابقة والتعرف على آثارها لابد وأن يقترن بالعبرة التى تدفع الدارس والمشاهد والسامع والباحث إلى تدبر أحوال نفسه وأسرته ومجتمعه . فلا يدعها أو يدعهم يقترفون مااقترف غيرهم من الآثام فيهلكهم الله بعذاب أليم .

---

(١) يجب أن نتعرض هنا — إن شاء الله — كتب التراث لنتعرف على آثار الأمم السابقة المادية والفكرية والتى اندثرت معظم معالمها — لنرى مدى التزامها بتحقيق الهدف المشروع من وراء الدراسات الأثرية .

والعلم والعبرة التى تثمر تجنب مزالق المشركين تتعاون — سوياً — فى تربية الفرد المسلم لبنة المجتمع المسلم لعبادة الله الواحد القهار .

هذا هو الهدف المشروع الذى يجب أن تتم فى إطاره الدراسات الأثرية وعن هذا الأصل الكبير تتفرع أهداف أخرى منها :

أولا : الإحساس بالفارق الكبير بين آثار الفكر الوثنى وآثار الفكر الإسلامى فالأولى تعكس لنا فكراً شارداً عن الهدى الإلهى ، أما الثانية فتعكس لنا فكراً ملتزماً بالهدى الإلهى يجب على البشرية أن تحرص عليه وتعض عليه بالنواجذ حتى لاترتكس فى الحياة الوثنية مرة أخرى .

ثانياً : الاستفادة من التقدم المادى والفكرى الذى وصلت إليه البشرية إذا كان لايتعارض مع معتقداتنا الإسلامية .

هل الدراسات الأثرية التى تجرى منذ القرن الثامن عشر تلتزم بتحقيق الأهداف التى شرعها الله سبحانه وتعالى . ونبهنا إليها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم . والتزم بها السلف الصالح ؟

بقى علينا الآن أن نتعرف على مدى التزام البشرية على مدار تاريخها الطويل بتحقيق الهدف الربانى من وراء الدراسات الأثرية والتاريخية وذلك يستدعى منا :

أولا : فحص كتب التراث التى تناولت بالحديث آثار الأقوام الغابرين الفكرية والمادية (وسنؤجل الحديث فى هذا الموضوع لوقت آخر إن شاء الله) .

ثانياً : فحص وتقييم الدراسات الأثرية والتاريخية التى قام بها العلماء منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى الآن .

من الواجب علينا أن ننبه إلى أن علماء الآثار والتاريخ الذين أخذوا زمام المبادرة فى هذا الحقل من الدراسات — فى غيبة الوعى الإسلامى — قدخرجوا بأهدافه عن الإطار الإسلامى الذى حدده رب العالمين والرسول الكريم ،

مركزين على الجانب المادى منها ، مبتعدين عن تحقيق أى من القيم الإيمانية عن قصد أو بغير قصد ناسين أو متناسين أن الإبداع المادى — لو كان سليما فى جميع جوانبه — يقف كالطائر الذى يرف بجناح واحد جبار بينما جناحه الآخر مهيض .

بل ويا ليت الأمر قد وقف عند هذا الحد بل ، اتخذ هذا الحقل من الدراسات كستار للعمل ضد الإسلام والمسلمين لتحقيق أهداف لاتلتقى من قريب أو بعيد مع الهدف الربانى الذى شرعه من وراء هذا النوع من الدراسات ، وهذا ماسنعرض له ونتنبه إلى خطورته فى عرضنا للنقاط الرئيسية الهامة التالية :

(ا) التعريف بعلماء الآثار الغير مسلمين .

(ب) الأهداف التى يسعون إلى تحقيقها وهى :

أولا : إحياء القوميات .

ثانياً : تهريب التراث الأثرى للشرق العربى المسلم إلى البلاد الأجنبية وتشجيع دراسته هناك .

ثالثاً : إحياء الوثنيات القديمة حتى يسهل صرف الأمة المسلمة عن دينها .

رابعاً : التجسس .

خامساً : طمس خط التوحيد من حياة البشر على الأرض ، ومحاولة إقناع الناس أن الدين ثمرة الفكر البشرى تطور بتطوره حتى انتهى إلى التوحيد :

سادساً : استبعاد القرآن وما أخبر به المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتب التراث التى تعتبر مصادر وثيقة للتعرف على آثار الأمم السابقة وتاريخها وحضارتها .

(ا) التعريف بعلماء الآثار الغير مسلمين :

من علماء الآثار والتاريخ الذين قاموا بالبحث والحفر وكشف الآثار ودراستها بما يلقى الضوء على تاريخ مصر والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى وشبه الجزيرة

العربية وغيرها من بقاع الأرض ، وكذلك المؤرخين الذين تبنوا نتائج هذه الدراسات (١) :

1) J.H. Breasted-H. Junker-H. Kees-J. Sinons-E. Otto-S. Scharrf A. Erman-H. Ranke-G. Steindorff-J. Wilson.-C. Aldred-Von Bissing-Borchardt - Brunton-Caton - Thompson-Alan Gardiner-H.O. lange-Montet-G. Jequier-Maspero-Z. Zaba-J. Garstang-S.A.B. Mercer. في مصر

2) Frankfort-D. Luckenbill-L.L. Honor-U. Ungand-Saggs-Hill-V.G. Childe-J. Lewy-S. smith. G. Contenau- S. Yeivin-T.O. Callaghan-E. Ebeling-G.R. Driver-J.C. Miles-E.F. Wrinder-W.G. Lambert-E.A. Speiser-Delaporte -Th-Jacobson-A. Heidel-H. Zimmern- L.W. King-L. Woolly. في العراق

3) O.R. Gurney-W.F. Albright-L. Woolly-H. Von der ostern J. Gelb-K. Bittel. في آسيا الصغرى

4) S. Moscati-E. Unger-A. Ungand-H. Otten.-Ullen dorff.-Barth-Brockelmann-Pritchard. Gordon-Dupont-Sommer-Th. H. Robinson- H. Schmokel-F.E. Konig-D. de la garde-Moulton-A. Heidel-H.R. Hall- A. Jeremais-F. Rosenthal. في بلاد الشام

5) de Farthema-Badiayleblich-Carsten Neibuhr-Halevy-Glaser-Wellsted-Hirch-Burton-Palgrave-Doughty.

أرنولد-توماس	Arnold Thomas	جورج فنلى	George Finlay
أوليرى-دى لاسى	O'Leary, Delacy	هنرى فورنل	Henri Fournel
هنرى براد لى	Henry Bradley		K.A.G. Greswell

---

(١) يخرج عن دائرة حكمنا هنا بعض العلماء الذين ملك حب دراسة الآثار والتاريخ كل عقولهم ، فوقفوا حياتهم عليها ، دون أن يكون لهم دور فى تحقيق الأهداف الخبيثة . وكذلك شق آخر من أنفاس دفع به طلب العيش إلى العمل فى هذا الحقل من الدراسات .

كارل بروكلمان	Carl Brockelmann	فون كرمر	Alfred Von Kermer
رودلف ارنست برونو	Rudolf Ernest Brunnow	جب	J.W. Gibb
بلانيول وربير	Blaniol et Repert	اونى كتانى	Lèone Caetani
هاملتون ار. جب	Hamilton A.R. Gibb	الأب هنرى لامانس	Père Henri Lammence
ادوارد جيبون	Edward Gibbon	برنارد لويس	Bernard Lewis
إدولف جروهمان	Adolf Grohman	جوستاف لى بون	Jostave Le Bon
دى جوبينو	De Gobineau	ستانلى لينبول	Stanley Lane-Poole
جنتس جولد تسيهر	Ignaz	ا . فانيان	E. Fagnan
جويدى	Guidi	د.س.مرجليوث	D.S. Margoliouth
فيليب حتى	Philip K. Hitti	هيلين ج جرافتون	Grafton Hilne
فان فلوتن		ميجون	G. Migeon
إميل درمنجم	Emil Dermenghem	سير وليام تمبل ميور	Sir Wiliam Temple Muir
ر.ب.أ.دوزى	R.P.A. Dozy	تيودور نلدكه	Theodor Noeldeke
ل.ب. سيديو	L.B. Sedillot	أ. رينولد نيكلسون	A. Reynold Nicholson
ه.ب.فيلبي	H.S. St. J.B. Philby		
ف.فون وستنفلد	F. Von Wusten feld	جوزيف هل	Joseph Hell

فى شبه الجزيرة العربية و بعض البلدان الأخرى

ولما كان ربط العلوم الانسانية (منها التاريخية والأثرية) بأخلاقيات واتجاهات صاحبها يعتبر ميزة من أهم مميزات مناهج البحث الإسلامي (١) ... وابتكاراً رائعا سبق إليه المسلمون وحققوا عن طريقه أسلوباً من النقد أضاف إلى أساليب النقد فى العالم جانباً لم يعترف به النقد الغربى حتى الآن .

وذلك هو الذى دفع للمسلمين الأوائل إلى التحرج من التسليم للطلق برواية ما من روايات التاريخ قبل الاطلاع على مسارها البشرى ، وفحص الرجال الذين

(١) جرح وتعديل ، ٧ .

تناقلوها ... أمانتهم وموضوعيتهم وعدم تحيزهم ... الخ ولذلك فإن للسلمين ملزمين — وفاء لأمانة العقيدة التى يطوون عليها صدورهم — إدراك هذه الحقيقة وتطبيقها على مساحات واسعة من النشاطات فى حقل العلوم الإنسانية التى يدخل فى دائرتها الكثير من المؤلفات الأثرية والتاريخية .

ويترتب على ذلك أن يحاول — المؤرخ أو الأثرى المسلم حين يكتب أو حين يتلقى أو يلقن ، التعرف أولا على اتجاهات وأخلاقيات وسلوك علماء الآثار والتاريخ بفحص مؤلفاتهم قبل التسليم بما جاء فيها كحقائق لاتتعارض والعقيدة الإسلامية . ينتمى المهتمون بالدراسات الأثرية إلى دول أوربا الغربية والشرقية والروسية وأمريكا وبعض البلاد الآخرى . أما دياناتهم فنهم اليهودى ومنهم الصليبى ومنهم الملحد الغير معتقد .

وإذا كانت هذه ديانات الذين أخذوا زمام المبادرة فى هذا الحقل من الدراسات — فليس المسلم أن يتلقى عنهم أو يأخذ النتائج التى توصلوا إليها بالتسليم وخاصة أنها لم تلتزم بالمنهج الإسلامى بل حرصت على طمس ملامح التوحيد فى حياة البشرية .

وخاصة أن الحفر والتنقيب واستخراج الآثار من شرقنا الإسلامى — ودراستها — قد ارتبطت بزمن تقطيع أوصال الخلافة الإسلامية وبزمن وصول جيوش الغزو الاستعمارى العسكرى والفكرى — إلى بلاد المسلمين مع بداية القرن الثامن عشر الميلادى . كما أنها قد ارتبطت بظهور مذاهب اجتماعية واقتصادية جديدة مثل الماركسية والفاشستية والاشتراكية وغيرها ، زيف التاريخ لخدمتها وتحقيق أهدافها .

(ب) الأهداف التى يسعون إلى تحقيقها :

الهدف الأول :

إحياء القوميات حتى تبقى الأمة الإسلامية مفككة العرا ، بعيدة عن توجيه حياتها وحياة البشرية بالمنهاج الربانى .

إذا ألقينا نظرة على المجتمع الدولى منذ عصور تاريخه الموغلة فى القدم . وما طرأ عليه من تغييرات فى ظل الإسلام :

فى بلاد العراق . . كان السومريون ، فالاكديون ، فالبابليون ، ثم الآشوريون . وفى مصر . . كانت الاسرات الفرعونية . . وفى إيران . . كان الميديون فالفرس . . الخ وفى بلاد الشام كان الكنعانيون ، والأموريون والآراميون . . . الخ وفى آسيا الصغرى كان الحيثيون . وعلى فترات متقاربة من التاريخ ، كانت كل من هذه القوى وهى فى عنفوان شبابها تسعى بالقوة المسلحة إلى بسط نفوذها السياسى والاقتصادى والاجتماعى على غيرها من الأمم ، بهدف تسخير مواردها لخدمة أغراضها . . فكان التطاحن والصدام . . والظلم والبغى بغير الحق والويل والشقاء الذى عانت منه البشرية على مدار تاريخها الطويل .

وعلى الجانب المقابل للشرق الأدنى القديم كان الاوربيون (اليونانيون والرومان) الذين كونوا إمبراطوريات مترامية الأطراف أهمها الامبراطورية الرومانية التى أخضعت لسطوتها شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام (سوريا وفلسطين) وبلاد العراق وإيران وآسيا الصغرى ووسط وشمال أوربا ، وبلاد اليونان . . وذاقت البشرية الويلات على يديها ، بعد أن نهبت ثرواتها وقتل من قتل . وشرد من شرد إلى أن قيض الله للنور أن يخرج من شبه الجزيرة العربية من مكة المكرمة لتستضىء به البشرية بعد ظلام حالك جلل حياتها . . وكانت دعوة الإسلام بقيادة محمد صلى الله عليه وسلم التى انسابت شرقا وغربا . . فانهار سلطان طواغيت الفرس والروم ودخل الناس فى دين الله أفواجا . . وذابت القوميات والعصبيات وحلت محلها الوحدة الإسلامية ، أخوة العقيدة .. لأن المنهج الإسلامى رباهم على أنه « ليس منا من دعا إلى عصبية ، أو قاتل على عصبية . . أومات على عصبية . . » .

ومما لاشك فيه أن الأمة المسلمة التى تقر لله بالعبودية هى خير أمة أخرجت للناس حينما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولذلك فهى مطالبة بإقامة منهج الله فى حياتها وحياة البشرية حتى يرفرف السلام والطمأنينة عليها . ولذلك يمكن

القول بأن البشرية لم تعرف طعم العدالة والمساواة والرخاء إلا فى ظل الإسلام ، حينما كان المسلمون يمسكون بزمام القيادة يوجهون حياتهم وحياة البشرية بكتاب الله وسنة رسوله . وأمام ذلك المد الإسلامى انهار سلطان الطواغيت ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وفى ظلال العقيدة عرف الناس أنهم سواسية كأسنان المشط ، وأنه لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . وأن أفضل الناس عند الله أتقاهم .

وفى وجود ذلك الحارس الأمين (الأمة المسلمة) لايمكن أن يكون هناك حياة للطواغيت الذين يريدون استعباد البشرية وإذلالها والاستيلاء على منابع الثروة فيها .

ولكن جاء الوقت الذى استطاع فيه الاستعمار العالمى وأعوانه والصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية ومن تبنى معتقداتهم وسار على نهجهم ، أن يتسلطوا على ثروات الشعوب يعملون فيها النهب والسلب مع ارتكاب أبشع الجرائم التى تحقق لهم ذلك . . ولقد تم ذلك كله فى غيبة الحارس الأمين وهى الأمة الإسلامية عن الوعى وعن الوجود .

وخوفا من استيقاظ الأمة المسلمة . . . راحوا يضيقون عليها منافذ الهواء بل ويثيرون حولها الروائح الكريهة والهواء الفاسد حتى تروح إلى غير رجعة فى سباتها فينفردون بالبشرية يمعنون فى إذلالها وامتصاص دمائها .

ويدخل تحت الوسائل التى تبناها هؤلاء الطواغيت فى تحقيق أهدافهم إحياء العصبيات الاقليمية القديمة لتبقى الأمة المسلمة مفككة العرا ليسهل الإجهاز عليها ولتحقيق هذه الوسيلة وجد أعداء الإسلام فى الدراسات الأثرية الممسوخة فرصتهم التى لاتعوض لإحياء القوميات الفرعونية والعربية والفارسية والسريانية والكلدانية وغيرها .

الهدف الثانى :

تهريب تراث بلاد المسلمين الأثرى إلى أوروبا وأمريكا وروسيا وتشجيع دراسته هناك :

لقد افترنت الدراسات الأثرية بهدف آخر وهو إقتناء التحف الأثرية أو الاتجار بها أو بيعها بأسعار عالية ، وقد أدى ذلك إلى تهريب الجزء الأكبر من تراث بلاد المسلمين الأثرى إلى كثير من دول العالم الشرقى والغربى ، ويكفيك أن تذهب إلى متحف اللوفر بفرنسا والمتحف البريطانى بلندن ، ومتحف برلين بألمانيا ، ومتاحف أمريكا وروسيا لتشاهد آثارنا وتراثنا ، ولذلك لانستغرب إذا عرفنا أن للآثار أسواقها الرائجة التى يسيطر عليها اليهود فى جميع انحاء العالم . ويرتبط بحركة نقل التراث القديم خارج بلاد المسلمين ، تحديد المكان الذى يجب أن يتوجه إليه الدارس لتجميع وثائق (كالمخطوطات وغيرها) بهدف استكمال علومه فى مجال تخصصه فى البلاد الأجنبية . وإلى هناك يتجه أبناء المسلمين ، لكى يتربوا على ايدى أعداء الأمة المسلمة من المستشرقين اليهود ومن عاونهم . . فيرضعون أفكارهم ومبادئهم ويعودون إلى الأوطان المسلمة مرضى يبثونها سمومهم وأمراضهم التى تعصف بكيانهم تمهيداً لتحقيق أهداف الصهيونية العالمية . ولذلك ليس لنا أن نستغرب إذا عرفنا أن الآلاف من الشباب ذهبوا إلى أوربا وغيرها منذ زمن بعيد وحتى الآن ليدرسوا الآثار الإسلامية والقبطية والفرعونية والأشورية والفارسية .... وغيرها .

وقد يقال لنا ، إننا نسعى إلى هناك للدراسة لأنهم متقدمون فى مجال البحث العلمى وهم يقدمون لنا يد المساعدة لكى ننهض فى هذا المجال . وذلك يدفعنا أن نلقى على القائلين سؤالا آخر : لماذا يساعدوننا فى ذلك ولا يعاوننا فى التعرف على ما أحرزوه فى مجال العلم والتكنولوجيا ... فى مجال الذرة مثلا أو الاليكترونيات . (١)

---

(١) يخرج عن هذا المجال المساعدة المحدودة والفردية فى هذه التخصصات بدليل أننا لم نسمع حتى الآن أن أحد أبناء المسلمين قد عاد من أوربا أو أمريكا أو روسيا باسرار الذرة مثلا . إن بلاد المسلمين بحاجه إلى العلوم التجريبيه والمادية ، ممثلة فى فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكيه النظريه منها والتطبيقيه (انظر حصوننا ١٩٣ ــ ١٩٤)

الهدف الثالث :

إحياء الوثنيات القديمة حتى يسهل صرف الأمة المسلمة عن دينها :

ولقد اقترنت الدراسات الأثرية بهدف آخر وهو إحياء الوثنيات القديمة (١) حتى يسهل صرف الأمة المسلمة عن دينها . ولتحقيق ذلك عمد أعداء الأمة المسلمة إلى أسلوب خبيث يتخذ من تخلف المسلمين اليوم فى مجالات المدنيات العامة ركيزة لذلك .. هذا الأسلوب اعتمد على تنشيط حركة الأبحاث الأثرية فى بلاد المسلمين لتسليط الأضواء على التقدم العلمى الذى أحرزته الأمم السابقة (الفراعنة والأشوريون وغيرهم) بالرغم من وثنيتهم واتخاذهم أربابا من دون الله

ويقصد أعداء الإسلام — من وراء ذلك — تقديم شاهد حى يعضد دعوتهم بأن التقدم المادى يمكن أن يتحقق فى غياب العقيدة الصحيحة ، وأن الدين هو سبب تخلف الشعوب التى تعيش فى أرض الإسلام فإذا ما انطلت الحيلة على أبناء المسلمين واقصوا الدين عن حياتهم فإنهم سينهارون فيسهل السيطرة على ثروات بلادهم وبالإضافة إلى ذلك أقيمت المتاحف ، وعرضت التماثيل البشرية والحيوانية وغيرها بصورة تأخذ بلب المشاهد وتذكره بالمعابد الوثنية ، فيقف محملقاً فيها مشدوداً إليها باسم الفن . . كما الفت الكتب ، وأريق المداد فى التحدث عن تماثيل لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً . وبالإضافة إلى ذلك تقام لمعارض وتوجه إليها الأنظار ، وليشغل الناس بها لملء الفراغ الروحى الذى يعانونه باسم الفن ، وبذلك تعود البشرية — بوعى أو بلا وعى — إلى وثنيتها الأولى . .

ولذلك فإن العلماء الأثريين المسلمين مطالبون بعدم اقتفاء هذا الأسلوب فى النشر العلمى الذى يخرج الإنسان عن دائرة الإيمان دون ان يدرى . ويكفى

---

(١) وقد جرت على ذلك كل مؤلفات العلماء الذين سبق سرد أسمائهم ومن أمثلتها كتابى جيمس هنرى برستيد : تطور الفكر والدين فى مصر القديمة (ترجمة زكى سوسى) (القاهرة ١٩٦١) وجيمس هنرى برسيد : إنتصار الحضارة (ترجمة د . أحمد فخرى) وكتاب ولى ديورانت قصة الحضارة (ترجمة زكى نجيب) (محمد بدران) .

أن يقتصر النشر على مايمكن أن يفيد به التمثال من معرفة اسم صاحبه أو الاشخاص الذين عاشوا فى عصره ، أو حدث تاريخى معين ، أو ألقاب صاحبه ومايلقيه من ضوء على النظام الإدارى الذى كان سائداً فى ذلك الوقت .

كما أنهم مطالبون أيضاً بعدم إقامة التماثيل فى الميادين بصورة تذكرنا بأصنام الكعبة التى حطمها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . وبدلا من أن يتفكر الإنسان فى نحت تمثال . فليتفكر فى نفسه التى تدل على عظمة خالقه فإنها أجدر بالتفكير والتدبر . (١)

كما أنهم مكلفون بتتبع رواسب التوحيد التى تثبت أن الدين عند الله الإسلام ، وأنه دين البشرية منذ أن خلق الله آدم واستخلفه فى الأرض وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الهدف الرابع : التجسس :

كما اتخذ حقل الدراسات الأثرية ستاراً للعمل ضد الإسلام والمسلمين عن طريق التجسس ، فمما لاشك فيه أن وصول البعثات الأجنبية وإتاحة إمكانيات التصوير لها . وحرية التنقل فى البلاد والاتصال بأهلها ، يفيد الأعداء فى تتبع عورات البلاد . وتجنيد أبنائها لخدمتها .

والدليل على ذلك أنه فى الخمسينات قد اكتشفت شبكة تجسس فى مصر تضم

---

(١) إن ابراهيم عليه السلام حطم التماثيل : « إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون (٥٢ : الأنبياء) فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون (٥٨ : الأنبياء) وفى سورة أخرى يقول عز وجل : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » ، وفى موضع آخر من القرآن يقول رب العباد . « قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وماتعملون » إن محمداً صلى الله عليه وسلم حينما فتح مكة دخل الكعبة يحطم الأصنام قائلا : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » إهذا هو موقف الاسلام من صناعة التماثيل التى صار لها الآن سوق رائج باسم الفن ، والتخليد والذكرى . . ونسوا أن يعوق ونسرا كانا صالحين . . وخلدهما قومهما بالتماثيل . . ثم عبدوهما من دون الله فحاق بهم غضب الواحد الصمد .

علماء آثار ينتمون إلى دول أوربية وكذلك ما ورد فى مذكرات مايلز كوبلاند فى كتابه المعرب باسم « لعبة الأمم » من أن رصيدهم للعمل فى هذه البلاد العربية كان يعتمد على رجال لآثار والإعلام .

وذلك غير ماورد على لسان بعض الكتاب المسلمين من التنبيه بعدم السماح لعلماء الآثار الأجانب بالعمل فى بلادنا . (١)

وبالإضافة إلى ذلك فإنه قد ورد فى تقديم كتاب مدخل علم الآثار (٢) أن عالم الآثار ليونارد وولى مؤلف الكتاب كان قد انضم إلى مكتب المخابرات البريطانى فى مصر ومنح وسام الحرب ، وأنه قد أمضى سنتين سجينا فى تركيا إلى أن انتهت الحرب (وذلك لاتهامه بالتجسس ضدها) . وبعد خروجه من السجن لم يمنعه ذلك من مواصلة عمله كعالم فى الحفائر الأثرية مرة أخرى فى انطاكية منذ عام ١٩٣٥ وهو نفس العام الذى عاد فيه ليعمل بقلم المخابرات البريطانى ثم بوزارة الحربية البريطانية .

وآخر مانؤيد به قولنا ماورد فى الحلقة الحادية عشرة من مذكرات السلطان عبد الحميد تحت عنوان « التجسس لاكتشاف البترول عن طريق الأبحاث الأثرية ( ) .

ذكرت أننى أعطيت الألمان خط سكة حديد بغداد ، وذلك لكى أجر الانجليز إلى الاتفاق الذى أرضى عنه . ولهذا قصة أخرى طريفة أعرضها هنا .

لما قال الروس (لا) للاقتراح الانجليزى الرامى إلى تقسيم دولتنا ، بدأ الانجليز يتقربون منى بشكل لم أستطع فى البداية فهمه ، وإن استطعت معرفته بعد

---

(١) يقترن بهدف التجسس هدف آخر يحرص عليه الاستعمار وهو دراسة تاريخ أهل البلاد وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم دراسة واعية متسللة تمكنهم من معرفة أى نوع من البشر يتعاملون معهم . وأى الاساليب يصلح لسياستهم . للسيطرة على تفكيرهم وتوجيههم الوجهة التى يريدونها .

(٢) ليونارد وولى (تعريب د . حسن الباشا وتقديم د . عبد المنعم أبو بكر) مدخل إلى علم الآثار .

(١) مجلة المجتمع . العدد ٢٨٠ لعام ١٣٩٥ هـ . المذكرات ترجمة محمد حرب عبد الحميد .

عدة أشهر . فذات يوم قابلنى السفير الانجليزى وتحدث طويلا فى أن الأناضول وسوريا ، والحجاز تعد مهد أعظم حضارات فى التاريخ . وسألنى إن كنت فكرت فى مشروع للتنقيب عن الآثار فى هذه المناطق فربما يمكن العثور على كنوز لو قامت مشاريع للتنقيب عن هده الآثار هناك ، هذا ، وأن التماثيل الصغيرة ، والقلل والأوانى المكسورة العتيقة . والنقود القديمة ، التى ستخرج من تحت الأرض ، لها قيمة الكنز ، والنظر فيها ربما يكون من شأنه تغيير التاريخ ، وسيمكن بواسطتها الحصول على معلومات قيمة كثيرة . وبعد أن قال : إن قراءة الخط المصرى القديم قدم للحضارة العالمية مكسباً عظيما جدا ، أضاف قائلا : إن الدولة العثمانية لو وجدت أن عمليات التنقيب عن الآثار فى هذه المناطق تكلفها الكثير ، فإن الحكومة الانجليزية مستعدة لتقديم مختلف المعونات بكل سرور ، وسترسل رجالها على وجه السرعة ، وسيبدأون فى الحفر . وستصرف لهم الحكومة الانجليزية مصاريفهم . وفوق هذا ، فإن ما يعثرون عليه من الآثار التاريخية هناك سيتركونه لنا دون مقابل .

ولما كان هدفى إقامة علاقات وطيدة مع إنجلترا . ولم أكن أعرف ماينطوى تحت هذا الإقتراح : قبلت ، واستدعيت الصدر الأعظم خليل رفعت باشا على الفور ، وشرحت له الاقتراحات الإنجليزية ونبهت عليه بمتابعة أعمال هذه الوفود القادمة .

والحقيقة أن الإنجليز أرسلوا مجموعة من علمائهم إلى إستانبول دونما تأخر كثير . قابلتهم جميعا فى لقاء عام معهم ، وتمنيت لهم النجاح وأقمت لاكرامهم فى ذلك المساء مأدبة عشاء دعوت إليها أيضاً سفراء الدول الأخرى . وكان يبدو على السفير الروسى بشكل خاص وبوضوح أنه غير ممتن من هذا التصريح . كان (انجاتيف) يسمع باهتمام وهو يبتسم حديثى عندما قلت إن الإنجليز طلبوا السماح لهم بالتنقيب عن الآثار خدمة للتاريخ والحضارة .

وبدأ فريق من العلماء تنقيبهم فى (قيصرية) ، وفريق آخر فى (الموصل) وفريق فى نقطة قريبة من بغداد ، كانوا ينقبون بمساعدة العمال المحليين . وكنا

أيضاً قادرين على متابعة أعمالهم ، ولم يظهر شيء من هـذه الحفريات غير بضعة أواني مكسورة وقلل وتماثيل صغيرة وتوابيت ومقابر ، وسلمنا الإنجليز هـذه الأشياء ، حتى النقود النحاسية القديمة .

كان السفير الإنجليزي يطلب كثيراً مقابلتي والتردد على للادلاء بمعلومات عن هذه الحفريات وكنا نتحادث ، وكنت أقدر جميع هذه الفرص . وكنت أمهد الأرض للإنفاق الذي فكرت في عمله . كنت أريد ألا أقدم أنا هذا الاقتراح ، ولكني كنت أريد أن يقدمه الإنجليز بأنفسهم إلى . وبذلك يكون الاقتراح في ذلك الوقت إقتراحهم هم ، وإذا وجدته مناسبا وافقت عليه ، وإن لم أجده كذلك كنت سأرفضه . وهكذا كنت أحاول اقتطاف الأفضل .

حدث في هذه الأثناء شيء لم أستطع فهمه أيضاً . جاءني السفير الإنجليزي ذات يوم وهو متحمس ، وقدم إلى سيفا مرصعاً عثر عليه في إحدى الحفريات بجانب الموصل . كان السيف مكسورا ، لكن يده كانت مرصعة بكثير من الأحجار الكريمة . وقال السفير : إن هذا السيف سقط على الأرض أثناء إحدى الزلازل فذهب جزء منه إلى أعماق بعيدة ، وعثر على الجزء المتبقي ضمن الحفريات . شكرت السفير وأنعمت عليه ، ولكن لم يكن لدى مخابراتي علم عن سيف كهذا . إذن فتفسير الأمر على شكلين : الأول : أن مخابراتنا لم تعرف بهذا الخبر ، والثاني : أن السفير ربما لعب على لعبة لا أعرفها . عرضت السيف على بعض التجار من السوق ، والذين يفهمون في هذه المسائل فقالوا : إن هذا السيف ليس قديماً ، ولكن أدخلت عليه بعض الحيل ليبدو كأنه قديم .

ازداد اهتمامي جداً بالأمر . لكني لم أفصح لأحد بشيء ، ثم علمت من الأخبار التي ترد إلى أن بعثتي التنقيب عن الآثار في الموصل وبغداد تركتا أعمالهما على وجه الأرض ، وبدأتا تحفران آبارا .

في ذلك الوقت وضحت أهدافهم . كانوا يريدون مني أن أصدقهم وهكذا كانوا يريدون أن يحصلوا على إمكانية العمل براحة أكثر . وهذا السيف الذي قدم لي على أنه قديم ومزين بالاحجار الكريمة كان من أجل أن تزيد ثقتي بهم . ولم يكن مايبحثون عنه أواني مكسورة أو تماثيل ، وإنما كان البترول .

كنت أعرف من قبل أنه من أجل العثور على البترول فى الافلاق (رومانيا) تفتح الآبار ، وعن طريقها يبحثون عنه . بعد فترة جاءنى السفير الانجليزى بحجة أن يقول لى خبراً آخر . قال لى : إن قسماً كبيراً من أراضى سوريا والحجاز عبارة عن صحراء والمعاناة شديدة فى هذه الأماكن من العطش ، لعدم وجود الماء ، ولهذا السبب ، فانه يتعذر تعمير هذه المناطق ، ولذا ، فإن الحكومة الإنجليزية — إذا اصدرت موافقتى — مستعدة باسم الإنسانية أن تفتح آباراً هناك ولكن لهذا شرط ، إذا تم العثور على الماء . وتكونت واحات ، فإنهم سيتركون استخدام الماء الذى سيخرج للأهالى ، ولكنهم فى هذه الحالة يصبحون أصحاب الماء .

إن الاتفاق ذاته لايسير كما أريد .

رفضت الاقتراح ، ولم أكتف بهذا ، بل أغلقت رسمياً الآبار التى فتحوها بالموصل وبغداد . تأثر الانجليز أبلغ التأثر بهذا ، وغضبوا ، وتركوا الآبار كما هى ، ولكنهم بدأوا يأخذون على عاتقهم التحرش بمسألة الخلافة ، متخذين من جمال الدين الأفغانى وسيلة لمآربهم . كانوا يريدون الوصول إلى غايتهم باحتواء أمير الحجاز . وفى مقابل هذا قمت بإرسال قافلة من الدراويش كبيرة نوعاً ما إلى مسلمى الهند ، وقابل الانجليز هذا بإثارة نكبة كريت ، وذهبوا لأكثر من هذا ، بأن حاولوا إقناع روسيا وفرنسا بإسقاطى من على العرش ، ورفض الروس بلهجة حادة هذا الاقتراح الانجليزى لأن إنجلترا كانت ترتب فى روسيا حركات تمرد لاجبار القيصر على قبول الحكم الدستورى كما فعلت تماما مع الدولة العثمانية .

الهدف الخامس :

طمس خط التوحيد فى حياة البشر على الأرض ومحاولة إقناع الناس أن الدليل ثمرة الفكر البشرى (١) تطور بتطوره حتى انتهى إلى التوحيد فما

(١) ومن الكتب التى تبنت هذا الهدف على سبيل المثال لا الحصر ، نورد الكتب الآتية : جيمس هنرى بريستيد (تعريب زكى سوس) تطور الفكر والدين فى مصر القديمة =

يسمى [٢] بالأديان السماوية . وهذه الفرية يدحضها القرآن والسنة فإننا ـ إذا ما عشنا فى ظلال سورة إبراهيم ، نقف على حقيقة أولية بارزة يقصها علينا الحكيم الخبير . . إن موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الانسانى موكب واحد موصل يقوده رسل الله الكرام ، « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » داعين بحقيقة واحدة ، جاهرين بدعوة واحدة ، سائرين على منهج واحد . . كلهم يدعوا إلى ألوهية واحدة وربوبية واحدة ، وكلهم لا يدعوا مع الله أحدا ولا يتوكل على غيره ولا يلجأ إلى ملجأ سواه ، ولا يعرف له سندا إلا اياه . . .

وأمر الاعتقاد فى الله الواحد « كما يقول سيد قطب » ـ إذن ليس كما يزعم « علماء الدين المقارن » أنه تطور وترقى من التعديد إلى التثنية الى التوحيد ، ومن عبادة الطواطم والأرواح والنجوم والكواكب إلى عبادة الله الواحد ، وأنه تطور وترقى كذلك بتطور وترقى التجربة البشرية . والعلم البشرى ، وبتطور وترقى الأنظمة السياسية وانتهائها إلى الأوضاع للوحدة تحت سلطان واحد .

إن الاعتقاد فى الله الواحد جاءت به الرسالات منذ فجر التاريخ ولم تتغير هذه الحقيقة ولم تتبدل فى رسالة واحدة من الرسلات التى دعت إلى الإسلام كما يقص علينا الحكيم الخبير .

= القاهرة ، أدولف أرمان تعريب د . عبد المنعم أبو بكر ، د . محمد أنور شكرى ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها . القاهرة ١٩٥٢ جيمس هنرى برستد (تعريب سليم حسن) فجر الضمير ـ القاهرة ١٩٥٦ . ل . ديورانت (ترجمة محمد نجيب سالم) قصة الحضارة ـ . س . موسكاتى الحضارات السامية القديمة ترجمة د . السيد يعقوب بكر ـ الحضارات السامية القديمة القاهرة ، العقاد ، الله . القاهرة .

(١) لأنه ليست هناك أديان عديدة ارتضاها الله للبشرية ، ولكن هناك دينا واحداً فقط هو الاسلام : « إن الدين عند الله الاسلام » وإلى هذا الدين دعا نوح وإبراهيم ويعقوب وموسى وعيسى وسليمان ومحمد صلى الله عليه وسلم . حتى فرعون نطق بالشهادة وأعلن إسلامه حينما أحيط به : وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدونا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين (يونس ٩٠)

ولو قال أولئك « العلماء » : ان قابلية البشر لعقيدة التوحيد التى جاء بها الرسل كانت تترقى من عهد رسول الى عهد رسول ، وأن الوثنيات الجاهلية كانت تتأثر بعقائد التوحيد المتوالية التى كان موكب الرسل الكرام يواجه بها هذه الوثنيات حينا بعد حين . حتى جاء زمان كانت عقيدة التوحيد أكثر قبولا لدى جماهير الناس مما كانت ، بفعل توالى رسالات التوحيد وبفعل العوامل الأخرى التى يفردونها بالتأثير . . لو قال أولئك العلماء قولا كهذا لساغ . . . ولكنهم إنما يتأثرون بمنهج فى البحث يقوم ابتداء على قاعدة من العداء الدينى القديم للكنيسة فى أوربا — حتى ولو لم يلحظ العلماء المعاصرون . ومن الرغبة الخفية — الواعية أو غير الواعية — فى تحطيم المنهج الدينى فى التفكير — واثبات أن الدين لم يكن قط وحيا من عند الله إنما كان اجتهادا من البشر[1] ، ينطبق عليه ما ينطبق على تطورهم فى التفكير والتجربة والمعرفة العلمية سواء بسواء . . . ومع ذلك العداء القديم ومن هذه الرغبة الخفية ينبثق منهج علم الأديان المقارن ، ويسمى مع ذلك علما . . . ينخدع به الكثيرون .

إذ جاز أن يخدع أحد بمثل هذا العلم ، فإنه لا ينبغى لمسلم يؤمن بدينه ويحترم منهج هذا الدين فى تقرير مثل هذه الحقيقة أن يخدع لحظة واحدة وأن يدلى بقول يصطدم اصطداما مباشرا مع مقررات دينه ومع منهجه الواضح فى هذا الشأن الخطير .

وقد التزم علماء الآثار خط علماء الدين المقارن ، وذلك فى محاولة جادة لطمس معالم خط التوحيد فى حياة البشر على الأرض والدليل على ما نقول أنه إذا فحصنا مؤلفات هؤلاء العلماء نجد قرائن عديدة ظاهرة غصبا عنهم تشير إلى أصالة خط التوحيد فى حياة البشرية . هذه القرائن يمكن تلخيصها كالتالى :

---

(١) وهذا ما قال به الكثير من المستشرقين أمثال : جوستاف لوبون (ترجمة عادل زعيتر حضارة العرب . ول . ديورانت (ترجمة محمد نجيب سالم) قصة الحضارة . سيديو (ترجمة عادل زعيتر) تاريخ العرب العام .

القرينة الأولى :

إذا ما قرأنا النصوص المصرية القديمة (آثارا أدبية) التى تتعلق بالعقائد الدينية والجزئية منذ آلاف السنين ، نجد إيماناً بالبعث وبالحساب وبالجنة والنار ، وبالثواب والعقاب ، وأن المفاضلة أمام الله تعتمد على العمل الصالح [١] وأن من مكونات الانسان الجسد والروح ؛ ورغم ذلك كله على قدر معلوماتى — لم نر أحدا من علماء الآثار يقول فى مؤلفة ، إن هذه الحقائق لا يمكن أن يصل إليها الفكر البشرى من تلقاء نفسه ، وأن ذلك دليل على تواجد منهج إلهى أبلغه رسل الله إلى البشرية التى انحرفت عنه منذ زمن بعيد ، والأدهى من ذلك أن هؤلاء العلماء قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك بقولهم إن هذا الفكر جاء نتيجة بزوغ الضمير الإنسانى . . وكتبوا كتباً وعنونوها بذلك ، وترجمها لهم أبناء العربية الذين لم يضيفوا عليها تعليقاً أو تقريراً [٢] .

القرينة الثانية :

نجدها فى — نصوص العراق القديم — للقصة التى سماها علماء الآثار : أسطورة جلجميش والجبدو التى ترجع إلى آلاف السنين ، وفيها نقرأ أن أوتنابشتيم قص على جلجميش قصة الطوفان [٣] التى يمكن إجمال خطوطها الرئيسية كما يأتى :

شخص أهل لحمل الرسالة يعيش فى مدينة على ضفاف الفرات يتلقى الأمر من الله لبناء السفينة وتحميلها من كل أنواع الكائنات الحية ، لأن الله غير راض عن تصرفات أهل المدينة وشيوخها ثم اكتمل البناء وحمل الرسول سفينته من كل زوجين اثنين ، وأرسل الله أوامره إلى السماء فانهمر الماء وإلى الأرض فتفجرت بالعيون ونسفت الجبال وهلك الناس الذين اعترفوا بمعصيتهم ، ولكن حين لا ينفع الندم .

---

(١) مصر الفرعونية ، ١٣٨ — ١٤٢ . مشاهد القيامة ٥ و ١٢ — ١٨ .

(٢) رستد (تعريب سليم حسن) فجر الضمير . الشرق الخالد . مصر والعراق .

(٣) مصر والعراق ٤٠٠ ، ٤٣٨ ، ٤٢٩ ، ٤٧٥-٤٧٧ وقد حفظ لنا الأدب اليونانى نفس قصة الطوفان فيما يسمى بأسطورة ديوكالون أنظر أيضا التاريخ اليونانى ١٩٠ . واليونان شعبها وأرضها ، ٨٩ — ٩١ ، الحضارات السامية القديمة ، ٨٩ .

وهدأت العاصفة وتوقف الطوفان الذى استمر سبعة أيام ورست السفينة حيث قدر لها أن ترسو .

وحينما تعرف علماء الآثار على هذه القصة لم يكلفوا أنفسهم — قصدا أو بغير قصد ربط هذه القصة بالقرآن ولو أنصفوا لقالوا « ملامح قصة نوح والطوفان » خاصة وأن نتائج الدراسات الأثرية قد أثبتت حدوث فيضان كاسح شمل بلاد العراق القديم « شوروباك ، وأوروكيش » فى بداية الألف الرابع قبل الميلاد وذلك أثر العثور على طبقات طينية يتراوح سمكها بين نصف متر وثلاثة أمتار تكون الطبقات السفلى للمدن السالفة الذكر . وكانت الطبقة العليا تحوى قواقع وأعداداً كبيرة من السمك الذى يعيش فى مياه الأنهار ، أما السفلى فكانت تحوى بعض المخلفات البشرية ، وهو مادل على وجود حياة بشرية قبل تكون هذه الطبقة الطمية التى نشات عن الطوفان الكاسح الذى أهلك الحرث والنسل .

القرينة الثالثة :

من قصة الأدب العراقى ، وعلى وجه الخصوص ما يسمى قصة « لأمجدن الرب » قصة انسان ابتلاه الله أولا بالسراء ، ثم أراد تهذيبه بالضراء التى استمرت طويلا . وفى النهاية يحمل إليه رسول ربه نبأ عفوه عنه مما جعله يوقن الحكمة فى ابتلائه ، وهى أن العاقبة للصابرين المتقين .

ولم نقرأ من أراء الأثريين ما يشير إلى أن هذه القصة فى أصولها قد ترجع إلى توجيه الهى من خلال سرد قصة أحد أفراد خلقه ، حرفته البشرية على مدار تاريخها ، لأنه لا يمكن للبشر بعقله المحدود أن يصل إلى ما وراء الابتلاء من حكمة .

القرينة الرابعة :

ورد فى الأدب العراقى القديم الذى يرجع تاريخه إلى آلاف السنين : أن البشر ماخلقوا الا لعبادة الله (١) ، وفى نصوص الحديث عن قصة خلق

---

(١) مصر والعراق ، ٣٩١-٣٩٩ .

الـكون . . أن السماء والارض كانتا فى بداية أمرها ملتصقتين ثم فتقهما [١] . . .
وأن الإنسان قد خلقه الله من طين ثم قال له كن فـكان [٢] .

القرينة الخامسة :

يحـكيها لنـا الأب للمصرى القديم فى قصة الملك اختوى [٣] الذى يزود أبنه بتجاربه : « ألا يفعل الشر ، وأن يتحلى بالصبر ويترك وراءه ذكرى حسنة من حب الناس له ، وأن يتبع جادة الحق وإقامة العدل وألا ظلم الأرملة وألا يعاقب الناس دون خطأ جنوه .

وقد برز فى هذه النصائح شىء يدعو إلى الانتباه : « أن هنالك محكمة بعد الموت يقف أمامها الانسان صاغراً ، ولا ينفعه أمام قضاتها إلا العمل الصالح وأن الانسان يجب أن يرضى الله ، فإن الله يعرف الذين يعملون من أجله . . . إنه يجب طاعة الله والخوف منه فهو يعلم السر وأخفى . . وألا ينسى آخرته ويعمل لليوم الآخر » . ثم يذكر الملك ابنه بنعم الله وعندها يقول : « إن الله يقبل اخلاق الرجل المستقيم الضمير أكثر من قبوله للثور الذى يقدمه الشرير » .

ان هذه القيم ، وهذه المبادىء التى تقدمها لنا القرائن الست التى أظهرتها لنا الدراسات الأثرية لا يمكن أن ينشئها غير منهج إلهى يحوى تصوراً صحيحاً لحقيقة خالق هذا الـكون وما فيه وما ينبغى له من صفات الجلال والـكمال . وحقيقة الانسان ودوره فى هذا الكون وما هى الغاية من خلقه وما هو المصير الذى ينتهى اليه كان يحـكم حياة البشر منذ آلاف السنين ، وضاعت أصوله وإن بقيت ملامحه. وقد كان ذلك هو الدور الذى قام به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . وفى هذا يقول رب العباد : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا

(١) مصر والعراق . ٢٩٦ الحضارات السامية . ٨٥ .
(٢) مصر والعراق . ٢٩٩ . اليونان . ٩٦ . التاريخ اليونانى .
(٣) مصر الفرعونية . ١٣٨ — ١٤٢ . مشاهد القيامة : ١٢ — ١٨

الطاغوت فنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (النحل : آية ٣٦) .

القرينة السادسة :

مجموعات قوانين « حمورابي حينما عثر المكتشفون عليها بدأ اللغط والمغالطات تأخذ طريقها لمحاولة إثبات أن هذه تشريعات بشرية أقدم من تشريعات العهد القديم التي قام موسى عليه السلام بتبليغها عن رب العباد (١) وذلك في محاولة خبيثة للتشكيك في خالق السماء والأرض وللايعاء بأن رسل الله بكل ماجاءوا به من تشريعات لم يكونوا يبلغون عن رب العباد وأن الدين من أختراعهم وتأسيسهم ، وأن كل ما جاءوا به من تشريعات عبارة عن اقتباسات من القوانين والتشريعات البابلية المبكرة التي أنتجها العقل البشري من تلقاء نفسه .

وكل مايمكن ـ أن نفترضه الآن أعتمادا على مابين أيدينا من النصوص ـ أن تشريعات حمورابي وغيرها ، من تشريعات العراق القديم هي صدى لتشريعات من عند الله جاء بها رسل الله على مدار تاريخ البشرية حرفتها في هبوطها من المرتقى السامق إلى المستنقع الآن بدليل أن أحدالتشريعات التي ترجع إلى عهد يسبقعصر حمورابي ، يذكرمنفذها وهو أوركاجيناعبارة نستبين منها أنالهدى هدى الله وأن التشريع من عند الله هذه العبارة تقول : « إن ربه قد وفقه إلى أن يسير على هديه » .

ويأتي بعد تنظيمات أوركاجينا ، قوانين « أورنامو » أول ملك من ملوك أسرة أور الثالثة (٢١٢٥ ق . م .) وفي هذا التشريع نرى جعل القتل عقاباً للزوجة الزانية ولمن يغتصب فتاة مخطوبة .

---

(١) وحرفت فيما بعد :

H. W. E. Saggs, The greatness that was Babylon

وفى مقدمة قوانين لبت عشتار Lipit-Ishtar ملك اسين والذى تقع فترة حكمة بين أورنامو وحمورابى (القرن ١٩ ق . م .) نجد إشارة إلى أن هذا الملك قد استوحى تشريعه من الرب . . وأقر كلماته المقدسة » .

ويتناول هذا التشريع مسائل الرق والميراث والزواج والايجار والعلاقات الأسرية وأسعار بعض الأشياء .

والمجموعة التالية من القوانين ، تنسب تطبيقها إلى عهد حمورابى ، أحد الملوك البابليين ومن أقسام مجموعة قوانين حمورابى ما يزيد على ٢٦٠ جزءا . وأعلى النصب المدون عليه هذه القوانين يرى حمورابى يطلب الإذن من رب العدالة لاصدار تشريعاته التى من بينها مبدأ الدية لأهل القتيل ، وعقوبة القتل للزانى والزانية (١) .

هذه ملامح الطريق الذى يمكن أن يؤدى بنا إلى فضح أكاذيب «علماء الدين المقارن ومن سار على نهجهم من أبناء المسلمين » ولكنها تحتاج إلى المزيد بل الكثير من جهد المخلصين علماء الآثار والتاريخ المسلمين .

الهدف السادس : استبعاد القرآن الكريم والسنة المطهرة وكتب التراث من مصادر الدراسات التاريخية الأثرية .

إذا ما تصفحنا كتب ما يسمى تاريخ وآثار الشرق القديم نجد المصادر متعددة وكلها موضع الاعتبار ماعدا القرآن الكريم أى أنهم يعتمدون على أقوال مؤرخى الإغريق والرومان ونصوص العهد القديم والجديد المحرفة ولا يوضع فى الاعتبار القرآن الكريم والسنة وكتب التراث بل يذهبون إلى أبعد من ذلك فى التشكيك فيهما . وأنكى من ذلك أننا نرى من أبناء المسلمين

---

(١) مصر والعراق ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، الحضارات السامية ، ٩٨ (ونرى فى ثنايا هذا التشريع أيضا تطبيق مبدأ السن بالسن والعين بالعين . أنظر مصر والعراق ، ٤٦٦ . الحضارات السامية القديمة ٩٧) .

من ينهج نهجهم ، ويسلك مسلكهم بقصد أو بغير قصد — والدليل على ذلك :

إن كتبهم تخلو من الالتزام بالقرآن والسنة أو ذكرهما من بين مصادرها التاريخية أو الأثرية .(١)

إن القرآن الكريم والسنة المطهرة لا بد وأن تأخذا مكانها بين مصادر تاريخ وآثار الأمم الغابرة ، ليس فقط لما يلقيه من ضوء على مدنياتها وحضاراتها ولكنه أيضا كمهاج لا بد أن نلتزم به و نسترشد به فى كتابة ودراسة وتقييم تاريخ البشرية ومدنياتها وحضاراتها منذ خلق الله آدم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولما يمكن أن ينشئه المنهج من تصور نظيف شامل للكون ودور الإنسان فيه .

أهم النتائج التى تحققت من وراء الدراسات الأثرية :

بالرغم من أن التنقيب عن الآثار لم يبدأ إلا فى أواخر القرن الثامن عشر إلا أنه — بفضل الله — أمكن بواسطته أماطة اللثام عن تاريخ آلاف السنين من حياة البشرية ، بعد أن كانت جد مجهولة فتاريخ مصر القديمة ومدنيتها وحضارتها قد أميط عنه اللثام بصورة دقيقة تجعل من السهل التعرف على قصورها ومقابرها ومعابدها ودياناتها وآدابها والحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية فيها ونظم الحكم التى سادتها ، والحرب التى خاضتها ضد أعدائها .. الخ وفى إيجاز أمكن للمؤرخين أن يعرفوا — كما قال أحدهم — عن الحياة العادية فى مصر فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أكثر مما يعرف عن انجلترا فى القرن الرابع عشر بعد الميلاد .

---

(١) كل مؤلفات الكتاب الذين تم سرد اسمائهم تستبعد القرآن والسنة من بين مصادرها ومثال ذلك من المؤلفات المصريه جيمس هنرى بريستد (ترجمه زكى سوس) تطور الفكر والدين فى مصر القديمه . موسكاتى ترجمه د . السيد يعقوب بكر . الحضارات السامية القديمة .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد أمكن عن طريق الدراسات الأثرية كتابة تاريخ العراق القديم . حيث عاش إنسان ما قبل التاريخ فالسومريون ، فالأكيديون فالبابليون ، فالاشوريون ، وأصبح بعد استقراء آثارهم الأدبية وغير الأدبية الحديث عن تنظيماتهم السياسية وحياتهم الاجتماعية ونظمهم الاقتصادية وحروبهم وفتوحاتهم ، وحكامهم .. الخ . وذلك بخلاف النتائج الأخرى التي يمكن إيجازها فيما يلي :

١ — التعرف على مدنيات إنسان ما قبل التاريخ في كل من آسيا وإفريقيا وأوربا مما أمكن معه رسم صورة تقريبية لحياة وأفكار هذا الانسان القديم .

٢ — التعرف على تاريخ ومدنية وحضارة بلاد إيران حيث عاش إنسانها في عصور ما قبل التاريخ والعصر الميدى والفارسى والاكمينى . والسلوقى والبارثى والساسانى ... الخ .

٣ — الكشف عن تاريخ ومدنية وحضارة بلاد اليونان القديمة وجذورها متمثلة في المدنيتين المينوية والميكينية ، اللتين أميط اللثام عنهما بعد الاكتشافات الأثرية التي أجراها إيفانس في كريت وشليمان في ميكينيا .

٤ — العلم بجوانب تاريخ ومدنية وحضارة شبه الجزيرة الايطالية منذ عصور ماقبل التاريخ حيث عاش الأتروسكيون ، والسمييون . واللاتين واليونان والغال ... الخ .

٥ — التعرف على بعض الجوانب من مدنيات وحضارات وتواريخ الانسان في بعض المناطق التي تم تجميع نقوش وآثار منها في شبه الجزيرة العربية وذلك غير بلاد الشام حيث عاش الفينيقيون والأراميون ، وذلك بالإضافة إلى تركيا حيث عاش الحيثيون وغيرهم .

بالاضافة إلى ما تحقق فإن مشاهدة آثار هؤلاء الأقوام ومصارعهم يهز القلوب ، ولحظات الاسترجاع الخيالى لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم وتصورهم

احياء يروحون فى هذه الأمكنة ويجيئون ، يخافون ويرجون يطمعون ويتطلعون ثم إذا هم سا كنون لا حس ولا حركة ، آثارهم خاوية ، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم ودنياهم الماثلة للعيان وللمستكنة فى الضمائر والمشاعر . إن هذه التأملات تهز القلب البشرى هزا مهما كان جاسيا غافلا قاسيا ، ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين ، علهم يثوبون إلى رشدهم ويرجعون إلى ربهم يعبدونه ولا يشركون به شيئا ، لعله سبحانه وتعالى يعفو عن اخطائهم ويقبل توبتهم .

وبالاضافة إلى ذلك تمكننا — بإذن الله — من خلال إعادة فحص المؤلفات الأثرية وإجراء أبحاث أثرية بأيدى مسلمة ؛ تجميع القرائن الأثرية التى تمكننا — بإذن الله — من هدم ما يسمى نظرية علماء الدين المقارن ، وأن نقيم بدلا منها صرح الدلائل بأن الاعتقاد فى الله الواحد جاءت به الرسالات منذ فجر التاريخ ، ولم تتغير هذه الحقيقة ولم تتبدل فى رسالة واحدة من الرسالات ، ولا فى الدين الواحد الذى جاءوا به وهو الاسلام كما يقص علينا الحكيم الخبير .

الفصل الثانى

وسائل علم الآثار فى البحث والحفر وكشف الآثار وتسجيلها ودراستها وإعدادها للنشر كوثيقة علمية يعتمد عليها المؤرخ فى التعرف على تواريخ الأمم وحضاراتها

(١) للمسح الأثرى لتحديد المناطق الأثرية .

(٢) الحفر وكشف الآثار وتسجيلها.

(٣) النشر العلمى .

وقبل أن نتناول هذه الوسائل بالتفصيل لابد لنا من الحديث عن تكوين البعثة الأثرية التى ستقوم بالتنفيذ .

تكوين البعثة الأثرية :

(١) عالم الآثار .

(٢) مساعدون أثريون (١)

(٣) مصور

(٤) رسام

(٥) مهندس

(٦) مرممون

(٧) كيمائيون

---

(١) إن الأثرى لابد وأن تتوافر له ثقافة تاريخية وأثرية عامة وذلك غير معرفته باللغات الحديثة لتمكنه من قراءة الدراسات التى أنجزها علم الآثار ، وذلك بالاضافة إلى معرفته باللغات القديمة بقدر الامكان .

(٨) عمال فنيون وعاديون .

(٩) إداريون

(١٠) متخصصون فى بقية فروع البحث الأثرى الرئيسية وهى :

ا — الهندسة المعمارية التى تهتم بفن البناء الدينى والمدنى والحربى بما فى ذلك هندسة المدن .

ب — فن النحت   ﺟ — فن الرسم

د — فن الأختام الذى يشمل طرازها ومادتها ونقوشها .

ﻫ — المسكوكات القديمة .

و — صناعة الخزف .

ز — علم المخطوطات والنقوش .

ح — الوثائق المكتوبة على البردى .

ط — حل رموز الكتابات القديمة .

ى — الأوزان والمقاسات .

ولنضرب لذلك مثلا :

قامت بعثة الحفر فى أحد المواقع الأثرية فاتضح أن الموقع منطقة سكنية ، ففى هذه الحالة لابد من وجود متخصص فى هندسة المدن لكى يقوم بدراسة هذه المنطقة ويشرح لنا كيف كان يتم تخطيط المناطق السكنية القديمة والعناصر المعمارية التى كانت تكون أجزاء المسكن . وإذا كان هناك معابد أو قلاع فلابد من متخصص كذلك ليكشف لنا النقاب عن تصميماتها وأشكالها والمواد المستعملة فى إنشائها .

وإذا عثر فى هذه المنطقة على تماثيل أو رسومات أو أوانى خزفية فالبحث الأثرى هنا يحتاج إلى متخصصين فى هذه الفروع ليبينوا لنا المواد المستعملة والقواعد الفنية المتبعة فى تنفيذ هذه الأعمال وقيمتها من الناحية الفنية وتطورها..الخ.

وإذا وجدت أوراق بردى تحوى نقوشاً فالأمر يحتاج هنا إلى متخصص فى فرد أوراق البردى وحفظها وقراءة نصوصها .

وإذا وجدت نقوش حميرية وثمودية فلابد من وجود متخصصين فى هاتين اللغتين لفك رموزها وقراءتها .

غير هذا فهناك من العلوم ما يقدم معونات قيمة لعلم الآثار وفى مقدمة هذه العلوم :

(ا) علم الجغرافيا والجيولوجيا وهما اللذان يحددان الوسط الطبيعى الذى نشأ فيه النشاط البشرى الذى ترك لنا هذه الآثار .

(ب) دراسة للحيوانات والنباتات المتحجرة . وهى من الأساسيات لدراسة آثار ما قبل التاريخ بل هى مصدر معلوماتنا الوحيد عن هذا العصر جنباً إلى جنب مخلفات الإنسان المادية الأخرى كما سنرى على الصفحات التالية .

(ج) علم الإنتوجرافيا وهو المختص بدراسة عادات وأخلاق وأديان الشعوب المعاصرة التى تصلح لتزويدنا بمعلومات عن عادات الماضى وأخلاقه وتقاليده لتحقيق القيمة الناتجة عن العثور على أثر معين .

ويزداد عدد أفراد البعثة أو يقل تبعاً لمساحة المنطقة المراد كشفها . ويعقب تكوين البعثة ، التأكد من إعداد جميع الأدوات والمواد والوسائل اللازمة لتنفيذ البرنامج المطلوب مع تهيئة المكان المناسب لإقامه أفراد البعثة وتأمين إمداداتها من الطعام والشراب والعلاج . وعلى الفور تبدأ البعثة فى تحديد المكان الذى ستبدأ منه عملها وذلك عن طريق المسح الأثرى .

(١) المسح الأثرى لتحديد المناطق الأثرية :

ويمكن تقسيمه إلى مرحلتين :

١ — مرحلة المسح العام : ويتم على مستوى البلدة أو القطر المراد تحديد مواقعه الأثرية ويتم ذلك عن طريق التقاط صور جوية للمساحة المراد مسحها

وفحصها ثم توقيع المواقع الأثرية الظاهرة على خرائط جغرافية معدة لهذا الغرض. وبعد الانتهاء من إعداد هذه الخرائط تقوم بعثات أثرية بالمسح الأرضى وذلك للتأكد من وجود المواقع الأثرية [١] التى أسفر عنها المسح الجوى. وقد يؤدى ذلك أيضا إلى اكتشاف للمواقع التى لم يتم تحديدها عن طريق المسح الجوى. على أن يتم توقيع ذلك كله أيضا على الخرائط الجغرافية الأثرية المعدة لذلك.

وأثناء المسح لأرضى قد تضطر البعثة لعمل بعض المجسات أو الحفر المحدودة للتأكد من موقع مشكوك فى أثريته.

ومن الواجب أن يكون هناك فرق متخصصة فى البحث الأثرى تحت سطح البحار والأنهار للكشف عن الآثار الغارقة وتوقيعها على الخرائط المعدة لهذا الغرض.

ب — مرحلة المسح الخاص :

ويتم على مستوى الموقع المراد كشفه الذى تم توقيعه على خرائط جغرافية أثرية، أو تم العثور عليه مصادفة أو أرشدتنا إليه كتب التراث أو المؤلفات لاثرية والتاريخية أو النصوص الأدبية التى تشير إلى الأماكن المراد مسحها وحفرها ثم تقوم البعثة بإعداد خريطة أثرية للموقع مع ربطه بأماكن معروفة ومحددة. ومن خلال هذه العملية يمكن أيضا تحديد النقطة التى سيبدأ الحفر فيها.

موسم الحفر : الشتاء وخاصة فى المناطق الحارة.

وقبل الحديث عن الحفر هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهى أن الحفر عبارة

(١) من المعالم السطحية التى ترشد البعثة الأثرية إلى أثرية المكان : وجود أحد الأكوام أو الخرائب أو التلال المتناثر عليها تكاسر لفخار أو شظايا من حجر الصوان أو حطام من الخزف أو البرونز أو الزجاج أو قوالب من الطوب أو أحجار البناء أو خطوط من الفحم الخشبى المتخلف عن الحرائق أو أى مخلفات بشرية أخرى. ويمكن مشاهدة أمثلة لذلك فى بقايا مدينة الأخدود بنجران بالمملكة العربية السعودية.

عن التنقيب العلمى عن الأشياء القديمة ، ويعتمد أساساً على أن القيمة التاريخية للشىء المكتشف لا تعتمد على طبيعة الشىء نفسه بقدر الاعتماد على الظروف التى وجد فيها ، ومتعلقاته . وعالم الآثار يفضل الحصول على المعرفة على الحصول على الأشياء وإن كان لا يمنعه ذلك من الاستمتاع بالعثور على الأشياء الأثرية النادرة الجميلة — وذلك بخلاف السارق أو المنقب الطارىء الذى يهدف إلى الحصول على أشياء ذات قيمة فنية أو تجارية ثم يقف اهتمامه عند ذلك .

وإذا فرض أن هذا المنقب الطارىء أو اللص قد أخرج أناء من الذهب أو حلية من الفضة ، فانه يبيعها ثم تنتقل التحفة من يد إلى يد حتى تصل عن طريق أحد تجار لآثار إلى متحف من المتاحف أو مجموعة من المجموعات الشخصية وحينئذ تكون الخسارة كبيرة ، لأنه — غالبا — لا يعرف أحد أين وجدت أو كيف عثر عليها ، لأنها تكون قد أنفصلت عن متعلقاتها . وذلك يعنى أن هذا الأثر قد نقصت قيمته التاريخية . وان استبقى قيمته كتحفة فنية .

وفى هذه الحالة يضطرون إلى أن يخمنوا ويرجعوها إلى قطر من الأقطار أو عصر من العصور بفضل المعلومات التى حصلوا عليها . وإذا فرض واتفقوا على ذلك فإنه من المفروض أن هذه التحفة سواء أكانت إناء او حلية توضح هذه المرحلة الخاصة المعروفة من الفن توضيحاً أكبر . إلا أنهم فى معظم الأحيان لا يتفقون وهكذا تصبح هذه التحفة موضع جدال بين العلماء ومصدر ارتباك المرجل العادى . أما إذا كان الشىء الذى عثر عليه إناء من الفخار مثلا . لا يتصل إلى الفن بسبب فإنه بعد أن جرد من أى مغزى كان يمكن أن يجعله وثيقة تاريخية قد صار عديم القيمة بالمرة .

ولذلك فإنه من الواجب أن يقوم على تنفيذ هذه الحفائر والأبحاث مجموعة من الأفراد المتخصصين فى فروع البحث الأثرى .

الشروع فى الحفر :

يبدأ مصور البعثة فى تصوير الموقع للمراد حفره . وكذلك النقطة التى سيبدأ الحفر فيها ، ثم يقوم المهندس بتوقيع هذه النقطة على خريطة للموقع .

يقسم العمال إلى مجموعات كل مجموعة تتكون من الحفار الفنى الذى يقوم بالحفر وصاحب الجاروف الذى يقوم بتعبئة الرديم الناتج عن الحفر وصاحب السلال الذى يقوم بحمل ونقل الرديم إلى خارج منطقة الحفر ويرأس هذه المجموعات فنى له خبرة طويلة سابقة .

بدء الحفر :

يبدأ العمل تحت إشراف الأثريين الذين يقومون بإثبات كل مايلاحظونه أولا بأول وعند ظهور أول بادرة تدل على وجود أثر ثابت أو منقول (من الفخار أو الحجر أو النحاس البرنز . . . الخ) يستدعى رئيس البعثة الأثرية وللمصور الذى يقوم بتصوير الجزء الظاهر من الأثر وبعد أن يتم كشف الأثر كلية يصور ثانية ، ثم يقوم المهندس بتوقيعه على خريطة للموقع ، فى الوقت الذى يقوم الأثريون فيه بترقيمه من حيث الموقع وتاريخ العثور عليه ورقمه المسلسل (ويسمى ذلك جميعة رقم الكشف Excavation Number.

يقوم المختصون برفع الأثر وتنظيفه ونقله إلى موقع دراسته وحفظه ، أما إذا كان الأثر فى حالة سيئة من الحفظ ولم يتمكن الكيميائيون أو المرممون من علاجه يتم وصفه فى مكانه وأخذ مقاساته والتعرف على مادته .

ثم تنسخ النقوش الموجودة عليه ، وتصور ، وترسم مع إثبات الظروف المحيطة به ثم يرفع من مكانه حتى يمكن استمرار العمل .

إذا تم الكشف عن عناصر معمارية خاصة بعمارة دينية أو مدنية أو حربية يتبع معها نفس الأسلوب المتبع مع الآثار المنقولة . مع ضرورة قيام المهندس برفع الموقع هندسياً فى الوقت الذى يقوم فيه الأثرى بعمل رسم تخطيطى لها مع قيد كل مايعلن له من وصف وملاحظاته . وقد لاينجح مهندس البعثة فى التعرف على تخطيط وعناصر هذه العمار . ولذلك لابد من استدعاء مهندس متخصص لحل هذه المشكلة وإعداد تقرير مفصل عن الكشف مع رئيس البعثة الذى لابد وأن يكون على جانب كبير من الوعى ودقة الملاحظة .

المملكة العربية السعودية

جامعة الملك عبد العزيز

حفائر كلية الآداب

قسم التاريخ (١)

رقم مسلسل	وصف الأثر	مادته	المقاسات	تاريخ الاثر	[illegible]	مكان العثور عليه	المراجع	صورة الأثر أو رسمه	موقع الأثر

١ — صورة من صفحات سجل قيد الآثار .

إذا كان الحفر فى تل مرتفع (منطقة سكنية مثلا) يتم إزالة الطبقة التى تم حفرها بعد ترقيمها ثم يستمر البحث فى الطبقة التالية لها مع اتباع نفس الخطوات السابقة للحفر والكشف .

وإذا كان التنقيب يتم فى جبانة فلابد من ترقيم المقابر أيضاً وتوقيعها على خريطة الموقع . وفى نهاية اليوم العملى يقوم رئيس البعثة الأثرى بكتابة يوميات الحفائر اعتماداً على مذكراته الخاصة . ومذكرات الأثريين المساعدين وبقية أعضاء البعثة المتخصصين . كما يقوم بتسجيل الآثار المنقولة تسجيلا علميا من ناحية الوصف ، والمقاس والمادة ومكان العثور عليها وتاريخها فى سجل — بياناته على الصفحة المقابلة — فى الوقت الذى يكون قد تم تصوير الأثر ورسمه

والتأريخ يتم عن طريق مقارنة الأثر بمثيل له سبق الكشف عنه ونشره أو عن طريق نص مكتوب يشير إلى وقائع محددة معروفة .

أما إذا لم يكن هنالك وثائق مكتوبة تمكن من تحديد وترتيب الاكتشافات وتواريخها فى هذه الحالة يتحتم على الأثرى أن يعتمد كلية على مصادره الخاصة وعليه أن يستنتج الترتيب الزمنى من الحقائق التى لاحظها . وعلى قدر ملاحظاته ودقتها تتوقف قيمة النتائج .

وفى نهاية موسم الحفائر يتم نقل وتشوين الآثار المكتشفة أو اعدادها للعرض بعد إعداد التقرير النهائى عن النتائج العملية للبحث والحفر والكشف .

٣ — النشر العلمى :

بعد انتهاء أعمال الكشف والتسجيل يصير تحت نظر الأثرى المؤرخ ما يأتى :

١ — الآثار المنقولة والثابتة التى تم الكشف عنها .

٢ — تقارير المتخصصين فى فروع البحث الأثرى ، عما تم الكشف عنه .

٣ — جميع الكتابات والدراسات عن الأعمال الأثرية التى تمت فى هـذا الموقع من قبل أو مواقع أخرى مماثلة .

ومع مزيد من الصبر ، والتأنى ، ودقة الملاحظة مع المقارنة فى كل مايعرض له من مشاكل يمكن له أن يعد لنا وثيقة تاريخية كاملة أو ناقصة عن تاريخ الإنسان الذى عاش فى ذلك المكان وحضارته ومدنيته ، أو عن أى إنسان آخر كله له صلة بصاحب هذا المكان .

وفى غمرة النشوة النفسية التى تنتاب الأثرى المكتشف حينئذ ، لاينسى أن يطامن من كبريائه ويردد قول ربنا العظيم :

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .   « صدق الله العظيم »

* * *

أقسام علم الآثار

قسم الأخصائيون بجامة لندن علم الآثار إلى الفروع الآتية :

١ — آثار ماقبل التاريخ .

٢ — آثار أوربا الغربية .

٣ — الآثار المصرية .

٤ — الآثار الأشورية (آثار بلاد النهرين) .

٥ — الآثار اليونانية والرومانية .

٦ — آثار العهد المسيحى القديم والعصور الوسطى .

٧ — آثار عهد النهضة .

٨ — الآثار الشرقية (آثار الصين والهند وفارس) .

ولايفوتنا أن نضيف قسما آخر وهو : الآثار الإسلامية الذى أسقطه الأوربيون من حسابهم .

الفصل الثالث

آثار عصر ما قبل التاريخ

يجمع المؤرخون على أن الفضل يرجع إلى علم الآثار فى الكشف عن مدنية وحضارة الانسان الذى عاش على مدار آلاف السنين فى الحقبة التى يطلق عليها عصر ما قبل التاريخ .

وسنحاول على الصفحات التالية سرد النتائج الذى تم الوصول إليها فى هذا المجال بإيجاز شديد .

ومن المعروف أن الحضارة تعنى مجموعة المفاهيم النابعة من وجهة النظر إلى الحياة ، وبناء عليه فإن كتابة قصة حضارة عصر ما قبل التاريخ تستدعى معرفة وجهة نظر إنسان هذا العصر إلى الحياة ، وهذا الإنسان لم يترك لنا وثيقة مكتوبة أو فكراً مدونا ولذلك لجأ المؤرخون إلى مدنية هذا الإنسان ، أى جميع الأشكال المادية المحسوسة التى استعملها فى شئون حياته والتى خلفها لنا (أى آثاره) يستقرءونها قصة مدنيته ولما كانت المادة الغالبة فى الأدوات المستعملة هو الحجر فقد أطلق المؤرخون على تشكيل أدوات حجرية بدائية خشنة الصنع يستعملها فى الدفاع عن النفس وفى صيد الحيوان وقتله .

ويرادف التعبير العصر الحجرى ، تعبير آخر هو « عصر ما قبل التاريخ » أى العصر الذى سبق الاهتداء إلى الكتابة لتدوين أخبار الإنسان .

أقسام عصر ما قبل التاريخ و مدنياته (آثاره) :

(ا) العصر الحجرى القديم (الباليوليتى) .

(ب) العصر الحجرى الحديث (النيوليتى) .

(ج) العصر الحجرى النحاسى (الأنيوليتى — الكالكوليتى — عصر بداية استعمال المعادن).

(ا) العصر الحجرى القديم

وقد قسم بدوره إلى ثلاثة أقسام:

١ — العصر الحجرى القديم الأسفل:

يتميز هذا العصر الطويل بوفرة أمطاره، وتشابه مظاهر مدنيته حيثما وجدت فى آسيا وأوربا وأفريقية.

ولقد كان إنسان هذا العصر يسكن الكهوف حيث عثر على أدواته وآلاته، وفيها كان يحتمى من الحيوانات المفترسة، وقسوة الظروف المناخية.

وكان يعيش فى صيد الحيوان وجمع الثمار والفواكه وبذور النباتات وقيل ان ملبسه، كان يتخذ من جلود الحيوانات بعد خياطتها بإبر مصنوعة من العظم. ويقال إن إنسان هذا العصر قد عرف التزين وذلك بسبب ماعثر عليه من أصداف بين مخلفاته.

ومن طريقة دفن موتاه، ذهب القول إلى اعتقاد بحياة بعد الموت، ومن رسوماته على جدران الكهوف مايدفع إلى القول باعتقاده فى السحر كوسيلة لصيد الحيوان.

وقد استخدم إنسان هذا العصر أدوات بدائية للدفاع عن النفس وصيد الحيوان وسلخه وتقطيع لحمه وتهشيم عظمه، وكذلك تقطيع الثمار وجذور النباتات وكانت هذه الأدوات تتخذ من الأحجار وأفضلها الصوان والعظام وفروع الشجر. وعند اختيار الآلة من الصوان، كان يفضل أن تكون قاعدتها مناسبة لقبضة اليد وأن تترك بقشرتها مادامت ملساء. وبعد ذلك تشكل قمتها وجوانبها لتتفق والغرض المطلوب. وكانت الواحدة من هذه الالآت تسمى الفأس اليدوية وقد اتخذت أشكالا مختلفة منها المثلث والبيضاوى والمستدير والمعين، ويظهر أن هذه الالآت قد ظهرت فى البداية فى شمال أفريقيا ثم انتشرت منها إلى البلاد

الاخرى . وتنقسم مدنية هذا العصر البدائية إلى قسمين نسبت إلى مناطق العثور عليها :

(ا) المدنية الشيلية أو الأبقيلية .

(ب) المدنية الاشيلية — وتتميز عن سابقتها بتطور نسبي فى أدواتها . هذا التطور يعتمد على تصغير الحجم والسمك وتهذيب السطوح .

وفى نهاية هذا العصر عرف الإنسان إشعال النار . مما ترتب عليه تغير كبير فى حياته .

وقد عثر على آثار هذا العصر من أدوات حجرية وخلافها فى مصر ، والمناطق الشمالية من العراق ، والشام ، وبعض مناطق شبه الجزيرة العربية (جنوب الأردن) .

٢ — العصر الحجرى القديم المتوسط :

يتصف هذا العصر بطول فترته المطيرة ويقال إن حياة إنسانه ، لم تتطور كثيراً عن حياته فى العصر السابق ، وأن كل ماحدث من تطور كان ينصب على آلاته وأدواته . أصبح هذا الطور الجديد من آلاته يسمى بالآلات الموستيرية (نسبة إلى مدينة موستيه بفرنسا) حيث عثر فى كهوفها على هذا الطراز من الأدوات . وتتميز عن سوابقها من شيلية وأشولية بفصل شظايا عن جوانب الفهر بعناية عن قصد ، وتشكيل هذه الشظايا بأشكال مختلفة بما يكفل استعمالها ككاشط ومباشر ومدى ومثاقب ومخارز وقد عثر على أدوات هذا الإنسان ومخلفاته فى كثير من كهوف مناطق الشرق الأدنى القديم .

٣ — العصر الحجرى القديم الأعلى :

قل سقوط المطر ، وبدأ الجفاف يسود مناطق الشرق الأدنى ، وبالتالى تضاءل نمو الأعشاب مما ترتب عليه عدم وجود البيئة الملائمة لحياة بعض حيوانات بيئة العصور السابقة مثل الفيل والخرتيت ، فبدأت فى الانقراض وحل محلها أنواع أخرى .

وتعتبر حياة الإنسان فى هذا العصر امتدادا لحياة الإنسان فى العصر السابق وإن كان قد بدأ يبحث عن مأوى مناسب حول مصبات الأنهار ، بعد أن كان مقتصراً على سكنى الكهوف وكما بدأ فى اختيار بعض الحبوب الغذائية كالشعير والحنطة لجرشها واستعمالها ، بدليل ماعثر عليه من مناجل لحصد الحبوب ، ومراح لجرشها فى مصر وفلسطين .

ولقد تطور إنسان هذا العصر بالآلات الحجرية [1] تطورا يعتمد على تصغير الحجم مع استحداث انواع أخرى مثل السهام والأقواس لصيد الحيوانات الصغيرة الحجم وسريعة الجرى . وقد سمى هذا الطور من الأدوات باسم الآلات الميكروليتية أى القزمية . وقد عثر على مدنيات هذا العصر فى كل من مصر وبلاد النهرين وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية (الإحساء والعروض وحضرموت ومناطق متفرقة من اليمن) .

(ب) العصر الحجرى الحديث :

لقد صحب هذا العصر تطور صحبه اعتدال فى درجه الحرارة ، مع سقوط كمية من الأمطار المناسبة لنمو أعشاب لرعى .

---

(١) حتى نتحاشى تكرار الحديث عن هذه المدنيات نود أن نشير إلى أن أدوات إنسان هذا العصر فى أوربا قد تطورت فى ثلاث مراحل سميت باسم مدن فى غرب فرنسا وهى :

(ا) الآلات الاورنياكيه . (ب) الآلات السولتريه . (ج) الآلات المجداليتيه وهو آخر تطور هذه الأدوات ويقال إن أصحاب هذه الآلات الأولى هم أصل إنسان أوربا الحالى وقد وفدوا إلى هذه البلاد من أفريقيه ، بينما أصحاب الطور السولترى قد وصلوا أوربا من الشرق . وعند دراسه الكهوف التى كان يسكنها إنسان هذا العصر فى أوربا ، اتضح انه قد عرف النحت (نحت ابر ومثاقب واسنان رماح من العظام) كما عرف نقش صور الحيوانات على جدارن الكهوف بألون متعددة ومن هذه الحيوانات الماموت والكركدن والحصان .

ولقد تميز إنسان جنوب شرق اسبانيا عن انسان غرب فرنسا باستخدامه سطوح الكهوف الخارجيه لتنفيذ رسوماته التى تشمل مناظر الرقص والصيد والقتال وغيرها كما عثر على مايدل على ممارسته فن النحت (تماثيل للدب والبيسون) .

ولقد صاحب هذا العصر تجمع الإنسان فى جماعات بالقرب من منابع المياه ومجارى الأنهار . كما عرف الإستقرار فى الأكواخ البيضاوية أو المستديرة من النباتات المضفورة والطمى والبوص فى مناطق مرتفعة على حواف الأراضى الزراعية والصحراوية إتقاء لشر الفيضانات المرتفعة . وصحب هذا التجمع تكوين القرى التى كانت بداية الطريق إلى ظهور التنظيمات السياسية .

وعرف الإنسان أيضاً دفن الموتى فى قبور داخل المنطقة السكنية أو خارجها بطريقة يفهم منها اعتقاده بحياة أخروية .

وفى هذا العصر عرف الإنسان الزراعة وعلى الأخص فى مناطق الهلال الخصيب (يمتد من بلاد النهرين إلى سوريا وفلسطين ومصر) ، لأن مجارى الأنهار ووفرة المياه وخصوبة التربة هيأت مقومات صالحة للزراعة بينما المحتمل أن إنسان شبه الجزيرة العربية ، كانت حياته تعتمد على الرعى وإستئناس الحيوان لعدم توافر التربة الخصبة والمياه الكافية للزراعة يستثنى من ذلك بعض المناطق الخصبة .

ولما عرف إنسان الشرق الأدنى الزراعة ، عرف نوعا من الإستقرار ، وبالتالى اتسعت مطالبه الفردية والجماعية ، وبدا تعدد الحرف فى الوضوح ، فظهر جنباً إلى جنب مع الزراعة وإستئناس ورعى الحيوان ، حرف أخرى كصناعة الأدوات الحجرية الدقيقة التى كانت تتميز بسطحها المصقول وأشكالها المستوية وأسلحتها الحادة وذلك غير أدوات الزراعة ومستلزماتها من فؤوس وسلال وغيرها ، أضف إلى ذلك صناعة الأوانى الفخارية والحجرية وصناعة الحصير والكتان .

كما — أن معرفة الزراعة استدعت تضافر جهود أفراد الأسرة الواحدة بل أفراد القرية جميعاً لأستخلاص الأرض من الأحراش والمستنقعات لزراعتها ، وإقامة الجسور لحمايتها من أخطار الفيضان .

وقد عثر على مدنيات هذا العصر المتمايزة فى معظم مناطق الشرق الأدنى القديم .

ونود أن نلفت النظر هنا إلى ضرورة إستعمال تعبير العصر الحجرى القديم والعصر الحديث بالنسبة إلى إنسان كل بيئة كما يقول الدكتور أحمد فخرى ، والسبب فى ذلك أن إنسان العصر الحجرى القديم صنع آلات حجرية تشابهت وتطابقت فى شكلها وطريقة صنعها فى جميع الأماكن سواء أكان صانعها إنسان مصر أم سوريا أم بلاد النهرين أو ذلك الإنسان الذى عاش فى شمال أسبانيا أو جنوب فرنسا .

أما إنسان مدنية العصر الحجرى الحديث . فقد أخذ يتميز بطابع خاص اختلف فى كل بيئة عن الطابع الذى ميزه إنسان بيئة أخرى . وليس من شك فى أن الإنسان الذى عاش فى الجبال اختلفت مدنيته فى العصر الحجرى الحديث اختلافا بينا عن ذلك الإنسان الذى حول مجارى الأنهار أو بالقرب من شواطىء البحار ، ومن ثم بدأت تظهر فروق واضحة المعالم بين المدنيات المختلفة لشعوب الشرق الادنى القديم .

وطبعت كل بيئة مدنية شعبها بطابع خاص ليتفق مع مقتضيات الحياة بها . فمناطق غرب آسيا بما فى ذلك الأناضول وسوريا ومناطق النهرين لم تعرف الدولة للوحدة إلا فى عصور متأخرة وكانت بيئتها بسهولها الممتدة إمتداداً واسعاً . من أهم الاسباب التى دعت إلى ظهور دويلات المدن .

أما مصر وهى هذه الواحة الممتدة فى شريط ضيق ويخترقها النيل اعتمدت كل الإعتماد على نيلها الذى كان بامتداده الطويل من الجنوب إلى الشمال من أهم الأسباب التى ساعدت المصريين على الاتحاد . فقد أضطروا منذ فجر التاريخ أن يعملوا متحدين على تنظيم الرى . ولذا كانت مصر هى الأمة الأولى بين أمم الشرق القديم — كما يقال — التى نعمت منذ أول عصور تاريخها باتحاد كامل تحت حكم ملك واحد .

(ج) العصر الحجرى النحاسى :

يتميز هذا العصر عن سابقه ، بان الإنسان قد وفق إلى اكتشاف المعادن (أقدمها النحاس) وتصنيعها على هيئة مثاقب ودبابيس وأسلحة وغيرها .

ولقد توفرت مصادر النحاس لدى المصريين فى شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية ، وذلك على عكس حال أهل العراق القديم الذين لم تتوفر لديهم مصادره مما دفعهم إلى إستيراده من أماكن توفره فى عمان وإيران والأناضول .

أما شبه الجزيرة العربية فهناك احتمال أن أهل أطرافها الشمالية الغربية قد عرفوا النحاس واستخدامه على نطاق ضيق بحكم قربهم من مواطن تعدينه فى شبه جزيرة سيناء ، وكذلك أهل جنوب الشام الذين عرفوا النحاس فى وقت قريب من معرفة المصريين له . ويمكن القول بنفس الشىء بالنسبة للمناطق الشرقية لشبه الجزيرة العربية القريبة من حدود العراق .

ومما لاشك فيه أن إنسان هذا العصر قد بدأ يخطو خطوات كبيرة فى مجال التطور بكل جوانب الحياة ومدنياتها التى عرفها فى العصور السابقة .

الفصل الرابع

الجهود التى بذلت فى تجميع ورصد ودراسة آثار شبه الجزيرة العربية

مما لا شك فيه ان الجزيرة العربية هى مهبط الوحى ، ومهد الإسلام وموطن الحضارات ولذلك فإن أرجاءها لابد وأن تحوى آثارا لأمم بائدة بعضها ظاهر وبعضها مطمور وسوف يؤدى كشفها ودراستها إلى اماطة اللثام عن تاريخها ومدنياتها وحضارتها .

وقد دفعت هذه الآثار الكثير من الرحالة والمؤرخين وعلماء الآثار إلى زيارتها وتجميع الظاهر منها ودراسة الثابت منها وقد أمكن تجميع حوالى الآلاف من النقوش التى تحوى معلومات عن ممالك الجزيرة العربية فى الجنوب وذلك غير عشرات الآلاف من المخربشات القصيرة على واجهة الصخور فى شمال بلاد العرب بين ثمودية ولحيانية وسبئية وغيرها .

وسوف نتتبع فيما يلى جهود السابقين فى هذا المجال :

١ — يستقى معظم المؤرخين معلوماتهم عن عصر ما قبل التاريخ فى بلاد العرب من نتائج أبحاث الدكتور سليمان حزين ومن كيتين — تومسون miss Caton Thompson فى مناطق محدودة فى جنوبى الجزيرة حيث عثر على أدوات من الظران فى حضر موت ترجع إلى العصر الحجرى القديم .

٢ — قام الرحالة الأوربى دى فرتما L. de farthema بزيارة مكة قادما من دمشق فى أوائل القرن السادس عشر .

٣ — قام المغامر الأسبانى بادبايى ليبلخ Badiay Leblich بزيارة جدة عام ١٨٠٧ تحت اسم « على بك العباسى » مدعيا أنه أمير مسلم من نسل الخلفاء

العباسيين وقد ترك لنا كتابات تحوى وصفا دقيقا لمكة والكعبة وما كان يجرى أيام الحج .

٤ — كتابات هو حارث عن تاريخ جميع الرحالة الذى زاروا شبه الجزيرة حتى عام ١٩٠٤ م . وكذلك كتابات جاك بيرن Jacqueline Pierenne وفيها نجد الشىء الكثير عن :

* نيبؤور Carsten Niebuhr الهولندى (١٧٦١ — ١٧٦٤ م) وله كتاب بعنوان وصف بلاد العرب (الطبعة الثانية عام ١٧٧٩) .

* سيتيزن A. J. Setzen الألمانى (١٨١٠) وقد نقل بعض نقوش ظفار إحدى عواصم دولة سبأ .

* هاليفى Halevy (١٨٦٩) زار كل بلاد اليمن بما فيها مأرب والجوف ونجران وقد نشر عدة أبحاث بالفرنسية ، حوت حوالى ٦٨٦ نصا .

* جلازر Glaser (١٨٨٢ — ١٨٨) وله مذكرات عن زيارته لليمن بمعهد الدراسات الشرقية بفيينا .

وقد زار الثلاثة اليمن ودونوا كثيرا من المعلومات عن تاريخها .

* ولسنند Wellsted (١٨٢٥) وقد كان له رحلة إلى أطراف الربع والخالى وجه الاهتمام إلى نقوش وأطلال حصن الغراب ودولة حضر موت القديمة .

* فون فريده Von Wreda

* هيرش Hirch

* بنت Bent

* مايلز Miles وقد زار وفحص جميع شواطىء بلاد العرب عام ١٨٦٧ .

* بوركهارت J. L. Burckardt (١١٧٥) .

* برتون R. Burton له وصف للمقابر النبطية فى مقابر شعيب .

• سنوك هورجونية Snouck Hurgonje

* بجلجريف Palgrave (١٨٦٢ — ١٨٦٣) .

٥ — ومن أهم من كتب فى تاريخ اكتشاف بلاد العرب :

دوتى Doughty مؤلف كتاب Arabia Deserta (١٨٧٥) — وقد زار مدائن صالح والعلا والحريبة ونقل منها نصوصا لحيانية وثمودية ونبطية ترجمها له J. Renan

وكذلك

• هوبر Huber

وايتنج Euting (١٨٨٣) زار العلا ومدائن صالح والحريبة وتيماء .

٦ — رحلة أرنو Arnaud إلى سد مأرب عام ١٨٤٣ وحرم بلقيس وخرائب مدينة صرواح وقد نسخ ٥٦ نقشا قديما .

وقد نشر مذكراته فرزنل Fresnel قنصل فرنسا فى جدة عام ١٩٤٥ . فى كتابه « بحوث فى النقوش الحميرية » . وفى عام ١٩٦٩ أصدرت الاكاديمية الفرنسية موسوعة النقوش السامية .

٧ — موزل Alois Musil وله كتاب فى سبعة أجزاء يحوى دراسة تفصيلية عن شمال الحجاز وشمال نجد ، وجنوب فلسطين وبادية الشام .

٨ — جاوسين وسافنياك Jaussen Savignac وكان من الآباء والفرنيسكان فى القدس لهما مؤلف عن آثار الحجاز وبخاصة مداين صالح والعلا .

٩ — ديسودينان Dussaud & Dunand (قاما بنقل كثير من النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية من شمال بلاد العرب .

١٠ — الرحالة برترام توما وهنرى سان جون فيلبي وج . ربكمانز .

وقد قاموا برحلات فى نجد وأواسط بلاد العرب . وقد نجح جون فيلبى فى

رحلته الأخيرة عام ١٩٥١—١٩٥٢ فى تجميع ١٢٠٠٠ نقش جديد أكثرها ثمودية وسبئية . وقد قام فيلبى بزيارة نجران وما فيها من مواقع أثرية .

١١ — مؤلفات راتينس رويسمان Carl Rathjens - H. von Weismann الجغرافية والأثرية عن اليمن فى ثلاثة أجزاء خصص الثانى فيها من مواقع أثرية .

٢ — رحلة نزيه مؤيد العظم عام ١٩٣٦ مأرب وكتابه : رحلة فى بلاد العرب السعيدة .

١٣ — رحلة بعثة الجامعة المصرية ونشاطها فى جزيرة حضرموت وفى اليمن وقد نشر الدكتور سليمان حزين بعض نتائجها .

١٤ — رحلة محمد توفيق عام ١٩٤٥ لزيارة آثار معين فى جوف اليمن وله كتاب بالفرنسية عن آثارها فى جزئين .

١٥ — زيارة الدكتور أحمد فخرى لمنطقة صرواح ومأرب وما حولها ومراكز الحضارة فى الجوف وقد نشر نتائج زيارته فى كتاب من ثلاثة أجزاء .

١٦ — بعثة وندل فيلبس Wendell Philips قامت بالحفر فى منطقة مأرب وبلاد بيحان بحضرموت . وقد نشرت النتائج فى تقرير علمى واف .

١٧ — بعثة جامعة الدول العربية التى قامت بتصوير المخطوطات العربية النادرة باليمن عام ١٩٥٢ .

١٨ — عبد الغنى بن أحمد بن إبراهيم النابلسى (١٩٦٣) له مؤلف « الحقيقة والمجاز فى رحلة » بلاد الشام ومصر والحجاز وفى هذا المؤلف وصف لمدائن صالح ونسخ لبعض نقوشها .

آثار شبه الجزيرة العربية

« أمثلة مختارة »

المملكة العربية السعودية :

أولا : مدينة الأخدود :

وتبعد عن نجران القديمة حوالى ٤ كم ، وتقع بين قريه القابل فى الشمال وجبال السوداء والحمراء والعرق فى الجنوب .

ويمكن إجمال الملامح الرئيسية لهذه المدينة كالآتى :

١ — منطقة الأخدود (١) ويرى بها عظام ، لابد وأن تكون — لجمع خفير من الناس ، مختلط بعضها بالبعض الآخر بصورة غير منتظمه داخل طبقات من الطمى . وأسفل طبقة العظام يوجد طبقة من الطمى المحروق إلى درجة تحول معها إلى ما يشبه الفخار الأحمر .

٢ — بقايا قصور مبنية بكتل من الحجر الجرانيتى الرمادى وحجر البازلت عليها نقوش حميرية ، وذلك غير نقوش تمثل حيتان ، وحصان وجمل ورقعة مربعات والواقع أن طريقة قطع الحجر ، وصقلها مع ضخامة حجمها يدل دلالة قاطعة على تقدم كبير فى مجال العمارة . كما نرى كذلك مساكن من الطوب اللبن والآجر .

هذه القصور وبقايا المساكن فى مكان بعيد عن منطقة الأخدود وفى أطلال هذه المدينة يمكن مشاهدة :

(أ) رحى ضخمة منحوته من حجر الجرانيت الأحمر والرمادى ، يبلغ قطر الواحد حوالى متران .

(ب) قطع متناثرة من الفخار الأحمر . والقيشانى . والزجاج . والبرنز .

(ج) هون ضخم من الحجر الجرانيت الرمادي .

---

(١) ورد ذكر أصحاب الأخدود فى القرآن الكريم وفى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ففى سورة الأخدود « قال تعالى : قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد .

كما ورد فى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم تفصيل لهذه القصة فى مختصر صحيح مسلم الذى قام بتحقيقه الشيخ ناصر الدين الالبانى (طبعة وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية بالكويت) .

ومما لاشك فيه أن هذه المنطقة تحتاج إلى بعثة حفر أثرى ، لتقوم بواجبها من حفر وتنقيب واستخراج مخلفات الإنسان الذى عاش فى هـذا المكان ودراستها بطريقة علمية صحيحة قبل أن نقول الكلمة النهائية عن تاريخ هذه المنطقة .

ثانياً : سد (؟) الموجة (١) :

ويقع غرب الموجة بالقرب من المضيق حيث يرى على سفح الجبل بقايا أحجار مرصوصة تبدو وكأنها بقايا جدار ضخم كان يمتد من أعلى إلى أسفل حتى يصل إلى الأرض الزراعية فتصبح على هيئة أحجار متناثرة ، لازال بعض منها يبرز على سطح الأرض المزرعة .

ويمكن افتراض أن هذه الأحجار من بقايا بناء السد ، ولكن قبل الفصل فى هذا الموضوع لابد من قيام بعثة حفر أثرى ، يكون أحد أفرادها مهندساً متخصصاً فى بناء السدود وآخر فى فك رموز اللغة الحميرية على أن تقوم هذه البعثة بالحفر فى الوادى فى المنطقة — على امتداد الجدار المبنى بالحجر أعلى منحدر الجبل وتحت مستوى الأرض الزراعية الحالية ، وذلك غير الحفر فى المناطق القريبة من السد (المحتمل أنه كان قائماً فيها) .

فإذا عثر على أساسات بناء السد أسفل الأرض الزراعية ، أو إشارت النقوش الموجودة بعد ترجمتها إلى وجود مثل هذا السد ، يمكن استمرار الدراسات لمعرفة طوله وسمكه وطريقة بنائه .

ثالثاً : جبانة نجران : وتقع على بعد ٣٥ كم شمال شرق نجران فى بطن جبل تصلال وهى عبارة عن مساحة واسعة تدل النظرة المجردة عليها أنها تحوى مقابر حدد مكانها بقطع حجرية غير منتظمة الشكل مرصوصة فى خط بيضاوى ليحدد المكان الذى استخدم للدفن .

---

(١) هنالك بقايا سد (؟) آخر شرق القرية يمتد من جبل المعسان شمالاً حتى الدرين جنوبا .

وطبعاً لا يمكن القطع بشكل المكان الموجود تحت مستوى سطح الأرض المستخدم للدفن إلا بعد القيام بحفائر أثرية .

رابعاً : النقوش المحفورة بالغائر :

وهى عبارة عن نقوش يبدو أنها حميرية وأخرى كوفية — وذلك غير تماثيل للحيوانات من بينها الجمل ، الحصان ، والوعل ، بالاضافة إلى أشكال آدمية وحيات .

ويمكن مشاهدة هذه النقوش فى مناطق للسماة (شمال شرق نجران . على بعد ١٠ كم من المدينة الفيصلية) ومنطقة الأخدود ، وأبو رشاش ، ومنطقة سد الموفجة . وبالطبع فإن هذه النقوش تحتاج إلى متخصص فى اللغة الحميرية لترجمتها حتى يمكن إستخلاص المعلومات التى يمكن أن تلقى الضوء على تاريخ هذه المنطقة .

خامساً : نقوش المشيع وآثارها شرق قصر الأمير تركى بأبها :

وهى عبارة عن نقوش بالغائر تمثل رجل بحجم صغير يهاجم أسداً . وذلك غير نقوش تمثل وعولا بحجم صغير وكبير . وصخور هذه المنطقة من الحجر الجرانيتى الوردى كما يشاهد هناك قطع ضخمة من الحجر الجرانيتى مجوفة بما يسمح باستخدامها كخزانات مياه .

سادساً : كتابات حميرية وثمودية (كلها محفورة بالغائر) وذلك غير نقوش لأشخاص وحيوانات (جمال ، وعول . . الخ) . ويمكن مشاهدتها فى المناطق الآتية :

(ا) هضبة العروسي على بعد ١٥ كم من أبها .

(ب) جرش (حموما) على بعد ٩٠ كم من أبها (طريق خميس مشيطة) : ويلاحظ أن نقوش هذه المنطقة موجودة على جبل مرتفع يحتمل أن يكون قد بنى أعلاه قلعة للدفاع عن القرية التى كانت موجودة فى الوادى الذى يقع عند

قدميه وهذه القرية صارت الآن تحت مستوى الأرض الزراعية ، ولكن يمكن مشاهدة بعض الآثار الظاهرة مثل : رحى لجرش الحبوب أو عصر الزيوت ، منحوته من الحجر الجرانيتى الأحمر ، وذلك غير بقايا أوان فخارية . وبالطبع هذه المنطقة تحتاج إلى حفر أثرى .

سابعاً : قنطرة أبها :

غرب منطقة فارا . مقامة على وادى لابد من إجتيازه للوصول إلى طريق : أبها — السودا وشعار ، ويرجع بناء القنطرة إلى عهد الخلافة العثمانية ، وإن كان قد رمم حديثاً .

ثامناً : قلعة شمسان . أبها :

على قمة جبل إرتفاعة ٤٠٠ قدم أقيمت قلعة شمسان بالحجر على رقعة من الأرض مستطيلة الشكل ، لها مدخل فى منتصف واجهتها الجنوبية ، ويؤدى المدخل إلى فناء مفتوح على جميع حجرات القلعة فى الجنوب والشرق والشمال والغرب وفى أركان هذا البناء يوجد بقايا ثلاثة أبراج وهى ترجع إلى عهد الخلافة العثمانية.

تاسعاً : قلقة بيت الحكومة ـ أبها :

وهى فى مكان قريب من مكتب البريد الحالى .

عاشراً : آثار الحجر بوادى القرى (بين الحجاز والشام) على أربع مراحل من تبوك وكانت مقراً لثمود قوم صالح عليه السلام وتعرف الآن بمدائن صالح ، وقد مر النبى صلى الله عليه وسلم بمنطقة الحجر فى غزوة تبوك عام ٩ هـ . وذكر المسعودى فى كتابه « مروج الذهب (٢٥٩/١) » ان رسومهم كانت باقية وآثارهم بادية فى طريق الحاج من ورد من الشام .

وقد حكى لنا القرآن الكريم أخبار قوم ثمود وهم من قبائل العرب البائدة ـ فى قول الله سبحانه وتعالى : « والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه إن ربى قريب مجيب . قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن

نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ، قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير ، وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود .
(هود ٦١ — ٦٨)

كما ورد فى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر المسلمين ألا يدخلوا مساكن ثمود إلا باكين أو متباكين كما أوردنا فى مقدمة الكتاب .

ومصارع قوم صالح ، وهى فى الأصل مساكنهم حقيقة قائمة ، لم ينقطع عن التذكير بها والتنبيه إلى الأحداث التى ترويها ، كل داعية الى الله على مدار تاريخ البشرية بما فى ذلك رسل الله الكرام . . . فالقرآن يروى لنا ذلك على لسان شعيب عليه السلام . وهو يدعو قومه إلى عبادة الله وحده دون شريك ، وألا ينقصوا الكيل والميزان ، لئلا يحيق بهم عذاب يوم محيط مثلما حاق بقوم صالح : « وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد » . (هود : ٨٩)

وقد حاول علماء الآثار الغير مسلمين طمس وجه الحق الذى تعكسه آثار مدائن صالح ، وقالو إن مدائن صالح ليست إلا جبانة كانت تستعمل المدفن . وذلك لكى ينفوا عنها صفة المسكن التى أخبر بها القرآن والحديث . كما قالوا إن الذين سكنوا هذا المكان ليسوا ثمود الذين استخلفهم الله بعد عاد انما هم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية . كما قالوا إنهم من بقايا العماليق أتوا الى ذلك المكان من الفرات ، أو بقايا فلول الهكسوس طردوا من مصر . . . . وحملة التشكيك هذه تستهدف الحقيقة التى أخبر بها القرآن الكريم : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا

وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » : (الاعراف : ٧٤)

اليمن :

سد مأرب : وهو أحد الملامح الأثرية لمدينة مأرب . وتقع مأرب على بعد ١٠٠ ك .م الى الشرق من صنعاء وترتفع عن سطح البحر ٣٩٠٠ قدم . وأصل كلمة مأرب — أرامى — وتتكون من ما و« راب » أى الماء الكثير أو السيل الكبير . ومأرب كان عبارة عن جسر ضخم من الأحجار أقيم على امتداد مجرى طبيعى كبير لبعض الوديان التى كانت تتجمع فيها مياه السيول وتتوسط بين جانبين لجبل مرتفع من صخور بركانية يسمى جبل البلق . (١)

وعلى كل من الجانبين الأيمن والأيسر للجسر أعدت بوابة ضخمة يعتمد أحد كتفيها على جسم السد ويعتمد كتفها الآخر على جانب الجبل نفسه من الناحية الأخرى . وكانت المياه التى تخرج من البوابة تصب فى مجرى واسع ينتهى الى حوض ضخم بطنت جوانبه بالحجر . وفى نهاية الجانب الأيمن من الحوض تركت فتحات مناسبة لتصريف المياه بالمقادير المطلوبة . تصب فى ترع اختلفت اتجاهاتها وأطوالها واتساعاتها .

وكان الهدف من بناء هذا السد تخزين المياه اللازمة للرى . حينما تقل مياه الأمطار ، وتقليلاً من اندفاع السيول إلى وادى ذنه ومايمكن أن تؤدى إليه من بوار الزرع وتدمير القرى فى فصول الأمطار (الغزيرة) ، وذلك بالإضافة إلى رفع مياه الرى إلى مستوى يمكن من زراعة الأراضى القابلة للزراعة .

ولقد استفادت الأراضى الواقعة فى وادى ذنه . فربت وانبتت من كل زوج بهيج ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور » ويقال إن آثار القرى التى انتفعت بالمجرى الأيمن وهى مدينة النحاس وخرابه ومحرم بلقيس تدل على عمرانها القديم .

---

(١) وهو جبل كان يفصل الصحراء عن اليمن فى جبال فى منطقه مأرب .

وعلى صخور السد عثر علماء الآثار على إسم لشخص هو سمهو عالى ينوف يقول العلماء أنه عاش فى القرن السابع أو بداية الخامس قبل الميلاد .

وقد تمت إضافات وإصلاحات للسد (١) فى فترات مختلفة آخرها فى عهد أبرهة حاكم سبأ عام ٥٤٢ م ، ثم أنهار حوالى ٥٧٥ بعد الميلاد بعد إنشائه بحوالى أحد عشر قرنا من الزمان بما وصفه القرآن الكريم : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . (سبأ ١٥ — ١٨) .

عـدن :

نقش حصن الغراب : (على مقربة من عدن) . وقد تم الكشف عنه عام ١٨٣٤ م ويرجح العلماء رجوعه إلى عام ١٨٠٠ ق . م ومن دراسة هذا النقش أمكن استبيان الحقائق التالية :

الإعتراف بشخصية هود وتأييدها ، وأن أتباعه هم الوحيدون الذين نجوا من العذاب الآلهى ، وأنهم كانوا مهرة فى البناء . ولقد حدثنا رب العالمين سبحانه وتعالى عن رسالة هود عليه السلام :

« واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتافكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون . فلما رأوه عارضا مستقبل

---

(١) أبعاد الجزء المتبقى الآن : إرتفاع الجزء المتبقى من جدار السد ١١ متراً . وعرضه ٠٠ر١٢ م . ويبلغ عرض البوابه اليمنى ٥٥ر٤ م . طول ضلع الحوض الأيمن ٨٠ر٧٨ من الأمتار . إمتداد المجرى المائى الأيسر ٦٠ر١١ مترا . ويخرج من الحوض الذى ينتهى إليه ١٤ ترعه يبلغ عرض الواحدة منها نحو ثلاثة أمتار .

أودیتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شیء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً أبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شیء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ، ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك أفكهم وما كانوا يفترون » . (الأحقاف : ٢٠ — ٢٨) .

وفى موضع آخر من القرآن : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » . . جزاء شركهم بالله وكفرهم بأنعمه واستخفافا منهم بوعد الله ووعيده الذى تحقق ويمكن أن يحيق بكل مشرك بدين الله . (١)

(١) وهكذا أضافت الدراسات الأثرية دليلا آخر يدحض أقوال الذين قالوا إن أخبار قوم هود ماهى إلا أسطورة ، وهذا دليل يؤكد حقيقه تحريف التوراة التى تنكر رسالتى هود وصالح عليهما السلام .

الفصل الخامس

أمثلة مختارة من الآثار المكتشفة فى مصر

من المتفق عليه أن علم الآثار المصرية قد بدأ يمارس دوره منذ عام ١٨٢٢ وهو العام الذى وفق فيه عالم فرنسى إلى فك رموز اللغة الهيروغليفية المدونة على حجر رشيد الذى عثر عليه فى قلعة سانجليان برشيد عام ١٧٩٩ .

وقد كان ذلك مشجعاً لتكوين بعثات الحفر الأثرى التى قامت بأعمال الحفر والتنقيب والكشف والنشر عن آثار مصر التى سنعرض لنماذج منها .

ولكى يسهل علينا فهم هذه النماذج ومدلولاتها فهما صحيحا ، لابد وأن نلقى نظرة سريعة على الفكر الحضارى [1] الذى أنتج هذه الآثار .

كان فى مصر تصور سائد بأن الإنسان يبعث بعد الموت ، وأن حياته الثانية ستكون مادية بمعنى أنه سيحتاج إلى كل ما كان يستعمله فى الدنيا الأولى ، ومن المعروف أن عامة الشعب اعتقدوا أن للموتى سوف يرحلون إلى حقول واسعة يشقها نيل . وقد سميت هذه الحقول بحقول « أيارو » حيث ينمو القمح والشعير إلى ارتفاع ٧ أذرع ، وأنه سيحرث ويحصد المزروعات فاذا أدركه التعب استراح تحت شجرة الجميز ، وأخذ يتحدث إلى أصحابه ورفاقه . وهذا هو التصور الذى لازم المصرى القديم طوال عصور تاريخه القديم .

وعرف المصرى أن الإنسان البشرى يتكون من ثلاثة أقسام :

١ — الجسم : وهو ذلك الجزء المادى الذى يكون الهيكل العظمى وما يكسوه من لحم وشحم وجلد .

---

(١) وهو ما يمكن التعرف عليه من دراسة الآثار المصريه .

٢ — الروح : وصورها على شكل طائر برأس آدمى له ملامح صافية وهذه الروح تطير وتحلق فى السماء ولكنها تعود من حين لآخر لتزور جثتها فى غرفة التابوت .

٣ — القرين : وهو كائن روحى له صفة الاستقلال عن الجسم البشرى المادى إلا أنه يعيش داخله ويكفل وجوده للشخص الحماية . وكان هذا القرين يعتبر بعد موت صاحبه كما كان فى حياته هو الممثل لشخصيته البشرية ولذلك كان هدف المصرى باستمرار — كما يقال — هو الإبقاء على قرينه هذا فيتمتع بالحياة بعد موت صاحبه ، ولكى يتحقق ذلك كانت هنالك شروط معينة منها :

(أ) الحفاظ على جثة المتوفى فى هيئة تجعلها أقرب فى شكلها الخارجى إلى هيئتها الأولى حتى يمكن للقرين أن يتعرف عليها فيتجسدها عندما يريد .

(ب) حفظ تمثال بالمقبرة ليكون بديلا عن الجثة إذا ما اختفت لسبب من الأسباب أو فنيت .

(ج) تزويد المقبرة بكل أنواع الأثاث المنزلى الذى اعتاد صاحب المقبرة استعماله فى أثناء الحياة الأولى .

(د) تزويد المقبرة بكل أنواع الطعام والشراب الذى يقدم على موائد حجرية وذلك خشية أن يجوع أو يظمأ وهذا أشد ما كان المصرى يحرص عليه ويخشاه .

ولقد ترتب على هذا الاعتقاد أن حفظ المصرى موتاه ، وأقام مقابر ضخمة وحبس الأوقاف لتزويد المقبرة بالقرابين من أجل المتوفى . واحتفظ بالتماثيل والأثاث المنزلى فى المقابر وقصارى القول ، قام بإعداد كل ما أمدنا بمعلومات عن مدنية وحضارة هذا الشعب .

هذا الاعتقاد بالبعث بعد الموت ، وبالحساب ، وبالجنة ، بالنار وبأن الإنسان يتكون من روح وجسد . . الخ تعكسه لنا الوثائق الأثرية المصرية التى منها :

١ — نصوص الأهرام ونصوص التوابيت وما يسمى بكتب الموتى .

٢ — نصائح الملك خيتى لابنه مريكارع .

٣ — تسابيح أخناتون .

وذلك كله يقدم لنا دليلا لا يمكن ان يتطرق إليه الشك أن التوحيد هو سمة أصيلة فى حياة البشرية ، وأن شعب مصر كغيره من الشعوب لابد وأن يكون قد أرسل إليه من يعيده لله الواحد القهار تصديقا لكلام الله سبحانه وتعالى :

« إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير . . . »
(فاطر : ٢٤) .

وهذه حقيقة يؤكدها القرآن الكريم فى عرضه لقصتى يوسف وموسى عليهما السلام اللذين أرسلهما الله إلى شعب مصر وفراعنتها منذ قديم الزمان .

مخلفات المصرى القديم الأثرية :

يمكن تقسيم هذه المخلفات إلى قسمين وذلك من الناحية الفنية :

١ — فن التقليد يقوم على تقليد أشياء موجودة فى محيط البيئة التى يحيا فيها الإنسان ، ففن النحت وفن النقش هما فنان تقليديان لأن الفنان يقوم بنحت تماثيله ، إما لبشر أو لحيوانات ، مقلدا أياها سواء فى تمثيل أو فى نقوش يرسمها فوق الجدران .

٢ — فن الإنشاء وهو كل ماقام به الإنسان من تشييد الأبنية أو نحتها فى الصخر أو صناعة الأوانى الحجرية أو الفخارية أو صناعة الحلى . فهى أشياء ينتجها الإنسان ولا يقلد بها ماهو موجود فى بيئته الطبيعية . ولو أنه فى نفس الوقت عندما يزخرف جدران بنائه برسوم أو يحلى السطوح الخارجية لأوانيه الفخارية بأشكال مختلفة فهو ينتقل من الفن الإنشائى إلى الفن التقليدى ومعنى ذلك أن كلا الفنيين يكمل أحدهما الآخر ويتداخلان فى معظم الأحيان .

الفن التقليدى

له مجالات ثلاثة : النحت والنقش والرسم :

الآثار التى أنتجتها ممارسة الفن التقليدى :

١ — تماثيل للملوك والأفراد والحيوانات والطيور وغيرها . .

٢ — مقابض السكاكين المصنوعة من العاج ، بينما يكون السكين نفسه مصنوعا من الصوان .

٣ — الألواح الأردوازية لصحن الكحل .

٤ — الصولجانات الحربية (دبابيس القتال) من الحجر والتى كان يدافع بها المصرى عن نفسه ويستعملها فى الحروب .

الفن الانشائى

الآثار التى انتجتها ممارسة الفن الإنشائى :

الفن الإنشائى فن أصيل فى مصر القديمة لأن للمصرى كان يرى فى تشييد كوخ لسكناه وفى حفر وبناء مقبره لموتاه ، أو إعداد ملابس يتقى بها شر التقلبات الجوية أو أدوات يستعملها فى حياته . وإنشاء هذه الأشياء بحكم الحاجة والضرورة لم تكن محكومة بأمثلة واضحة وظاهرة فى البيئة إنما نشأت وتطورت من مراحلها المتقدمة المتقنة ، ولايمكن تتبع تطور المسكن والمعبد المصرى منذ بداية نشأتهما فى مصر ولذلك سنبدأ بالمقابر منذ بداية عصورها حتى أوائل التاريخ . كان المصرى يدفن موتاه فى حفرة بيضاوية ، تطورت وأصبحت مربعة أو مستطيلة مبطنة بحوائط من اللبن لمنع انهيارها .

وكانت الجثة تلف بالحصير أو الجلد ، وتدفن فى هذه الحفرة وكان يوضع مع المتوفى ما كان يتصور أنه سيحتاجه للاستعمال فى العالم الآخر من مأكل ومشرب وأدوات زينة وتماثيل من الطمى ثم تغطى الحفرة بكومة من الرمال . وتوضع فوقها كومة من الأحجار للتدليل على مكانها .

أخذت هذه المقبرة تتطور فى شكلها وحجمها والمواد المستعملة فى تشييدها حتى وصل التطور إلى تشييد بناء أعلى مكان حفرة أو حجرة الدفن . والمصطبة عبارة عن بناء مستطيل ضخم ، جوانبها تميل إلى أعلى كلما ارتفعت . ومن أهم المصاطب مسطبة الملك عحا (المحارب) ثانى ملوك الأسرة (١) التى عثر عليها فى سقارة وهى تتكون من :

١ — حجرة محفورة فى الأرض مبطنة بالخشب ومقسمة إلى خمسة أقسام لاحتواء التابوت ومتعلقات الملك المتوفى من أدوات زينة وأثاث وغيرها .

٢ — بناء مستطيل ضخم سطحه العلوى مقوس يحوى ٢٧ غرفة ويعلو هذا الجزء المحفور فى باطن الأرض ، وهو يحوى أوانى لاحصر لها تحوى طعاما وشرابا . هذا البناء شكلت جوانبه على هيئة مشكاوات (دخلات وخرجات) ويحيط به سوران ، غطيت جميعها بالملاط ولونت بألوان تعبر عن زخارف نباتية (ربما الحصير) . وبين بناء السور الداخلى وحوائط المصطبة كانت توجد مائدة قرابين توضع عليها قرابين الطعام والشراب ليستمتع بها المتوفى عند بعثه فى العالم الآخر كما يقول عنهم .

نماذج أخرى لآثار الفنين التقليدى والانشائى :

وبعد أن فرغنا من التعرف على بعض النماذج الأثرية التى أنتجتها ممارسة الفنين التقليدى والانشائى . سنستمر فى سرد نماذج أخرى طبقا لعصورها حتى يسهل الرجوع إليها عند دراستنا لتاريخ وحضارة مصر القديمه .

مجموعة زوسر الجنائزية :

من أبرز المعالم الأثرية لمنطقة سقارة مجموعة زوسر الجنائزيه التى فاقت فى ضخامتها وعظمتها كل ماشيده ملوك مصر السابقون من حيث استعمال الحجر فى بناء الجزء العلوى من المقبرة وتوابعها وتطوير المصطبة إلى هرم مدرج وتقليد عناصر العمارة النباتية فى المادة الحجرية .

وقد شرف على تصميم وتنفيذ هـذا البناء الوزير « إيمحوتب » الذى

أختار لسيده — الملك زوسر الإله المعبود من شعبه — مكانا فى الجبانة يشرف على الوادى الفسيح وعناصر هذه المجموعة الجائزية هى :

١ — السور الخارجى والمدخل .

٢ — « فناء » الحب سد (صالة العيد الثلاثينى) .

٣ — مقبرتا الأميرتين حتب حرنبتى ، أنت — كاس .

٤ — الهرم المدرج ومعبده الجنزى .

٥ — المقبرة الجنوبية .

ويبلغ طول السور الخارجى ٥٤٤ متراً وعرضه ٢٧٧ متراً وارتفاعه نحو عشرة أمتار . وقد زخرفت جوانبه الخارجية بمشكاوات تقليداً للعمارة النباتية التى تبناها إنسان زوسر فى بناء عمارته المدنيه أيضاً . كما تم كساؤه بالحجر الجيرى الأبيض المصقول وفى الطرف الجنوبى للجانب الشرقى للسور الخارجى يفتح المدخل الذى يؤدى بدوره إلى صالة طويله ممتدة من الشرق إلى الغرب ، وقد قسمت إلى مقصورات عديدة تقع على يمين ويسار الداخل . وفى نهاية هذه الصالة الطويلة توجد صالة أخرى مستعرضة فى جانبها الغربى باب يؤدى إلى الفناء الواسع الواقع فى جنوب الهرم المدرج .

ويعكس لنا هـذا الجزء بوضوح مدى الجهد الذى بذله المصرى القديم فى تقليد عناصر البناء النباتى فى عمارته الحجرية . فباب المدخل الرئيسى يعكس لنا شكل الباب الخشبى بتفاصيله العاديه . والصالة الكبيرة يحف بهـا الأعمدة الحجرية التى تقلد الأعمدة المصنوعة من أعواد النباتات وقد ضمت إلى بعضها . والسقف يبدو كما لو كان محمولا على جذوع أشجار النخيل . أما الصالة الثانية فسقفها محمول على ثمان أعمدة يصل بين كل اثنين منها جدار نصفى .

وبالصالة الأولى يوجد المدخل الذى كان يستعمله الملك وحاشيته للدخول إلى صالة العيد الثلاثينى . وقد كانت هذه الصالة الأخـيرة ، حاوية لعدد من المقاصير فى شرقها وعدد آخر فى غربها بعدد أقاليم مصر العليا والسفلى . وأنها

كانت تحوى رموز معبودات هذه الأقاليم . وكانت تتصدر هذه الصالة منصة تحمل عرش مصر العليا والسفلى ويجلس عليه الفرعون أثناء الإحتفال بمرور ثلاثين عاما على حكمه .

وتتلخص مراسيم هذا الأحتفال فى إرتداء الملك لزى معين ، يقوم بعده بالتوجه إلى مقاصير الأقاليم ، كل على حدة ، ويقدم فى كل منها وعاء أو قربانا يناسب إلهها . ثم يعود لتبديل ملابسه وتكرار هذه الحركة التى يبدو من خلالها وكأن الفرعون يريد تسليم موافقة وتأييد الأوثان فى حكم أقاليم مصر كلها . وفى نهاية الإحتفال كان على الملك أن يصرع ثورا للتدليل على قوته واستحقاقه لمباشرة مهام منصبه .

وإلى الشمال من فناء « للعبد الثلاثينى » أقيمت مقبرتا الأميرتين ابنتى للملك زوسر .

أما الهرم المدرج فهو يتوسط مركز هذه المجموعة الجنزية الضخمة . وقد أريد له أن يكون بناء من ست مصاطب من الحجر الجيرى تعلو إحداها الأخرى وكل منها يقل فى الحجم عما تحتها وطول ضلع قاعدة الهرم حوالى ٨٥ متراً وعرضها ٧٧ متراً أما ارتفاعها فيبلغ ٦٠ متراً تقريباً وأسفل هذا البناء تحتت حجرة الدفن مع عديد من الممرات التى غصت بأوانى حجرية بلغت حوالى ١٠٫٠٠٠ إناء .

وإلى الشمال من الهرم المدرج بنى للمعبد الجنزى الذى كان مخصصا للطقوس الدينية ولتقديم القرابين للملك الميت . وفى وسط هذا المعبد حفر المدخل الذى يؤدى إلى حجرة الدفن والممرات السفلية للهرم .

وقد عثر على حجرة مقفلة من الحجر الجيرى تحوى تمثالا للفرعون زوسر عند الطرف الشرقى للضلع الشمالى للهرم .

هذا وصف سريع لماقدمه لنا علم الآثار نتيجة الحفر والكشف والدراسة لهذه المجموعة الجنزية بجبانة سقارة . والتى يرجع تاريخها إلى الأسرة الثالثة المصرية ٢٧٨٠ — ٢٦٨٠ ق . م .

ولكن ماهى الغاية التى من أجلها أعد المصرى كل هـــذه المنشآت التى استنفذت بدون شك جزءاً كبيراً من ثروات الشعب الذى عاش على ضفاف النيل ؟ وماهى القيمة الحقيقية لهذه الآثار فى ضوء التصور الإسلامى ؟

١ — أهرامات الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ — ٢٥٦٠ ق . م .) :

يطلق على عصر الأسرة الرابعة « عصر بناة الأهرام » لأنها الملامح المعمارية البارزة فى تاريخ الأسرة . ويهمنا هنا الحديث عن ثلاث مجموعات هرمية وهى (المقابر الملكية) بمنطقة الجيزة : الأولى أقامها الملك خوفو ، والثانية خاصة بالملك خفرع والثالثة شيدت للملك منقرع ، ولقد أبانت الدراسات الأثرية التى كشفت عن هذه المقابر الملكية أنها التزمت بتصميم عام مشترك يتلخص فى كونها شاملة للعناصر التالية :

١ — الهرم كمقبرة يثوى فيها جثمان الفرعون فى داخل تابوته .

٢ — المعبد الجنزى المبنى إلى الشرق من الهرم ويخصص للاحتفالات الدينية .

٣ — معبـد الوادى لاستقبال جثمان الفرعون المتوفى ومشيعيه لتحنيطه وتجهيزه للدفن .

٤ — الطريق الصاعد الذى يربط المعبدين السابقين .

وسوف يقتصر حديثنا هنا عن :

١ — هرم الملك خوفو (الهرم الأكبر) :

ويعتبر من عجائب الدنيا السبع لما يعكسه من عظمة الفن المعمارى والجهد الذى بذل فى إقامته وتنظيم العمل بين آلاف العمال الذين شاركوا فى بنائه لفترات طويلة .

ويشغل هذا الهرم مساحة تبلغ حوالى ١٣ فـدانا ، ويحوى مالا يقل عن ٢ر٥ مليون كتلة حجر جيرى يزيد وزن بعضها على ثمانية أطنان ، ويقال

إن كتل أحجار الهرم تكفى لعمل خط متصل من أحجار كل منها قدم مكعب واحد حول ثلثى الكرة الأرضية عند خط الاستواء . ويتكون الهرم من جزئين رئيسيين : الأول وهو فوق سطح الأرض ويبلغ ارتفاعه فى الأصل ١٤٦ متراً وطول ضلع قاعدته ٢٣٠ متراً ، وفى الضلع الشمالى لهذا البناء يفتح المدخل على ارتفاع ١٥ متراً من الهضبة .

والجزء الثانى وهو محفور فى باطن الصخر ويؤدى إليه المدخل السالف الذكر . ويحوى هذا الجزء السفلى ممراً يؤدى إلى حجرة محفورة أسفل الهرم كما أن العلوى يحوى ممرات صاعدة وهابطة تنتهى بحجرتى الدفن .

وعلى سبيل المثال فإن حجرة دفن الملك يؤدى إليها ممر صاعد طوله ٤٨ متراً وارتفاعه ثمانية أمتار ، ومساحة هذه الحجرة حوالى ٥ر٥ × ٥ر١٠ × ٢٠ر٥ متراً وقد كسيت كلها بألواح من الحجر الجرانيت كما أنها سقفت بتسع لوحات ضخمة من الجرانيت أيضاً وسقف هذه الحجرة مائل الجوانب قد فرغ أعلاه خمس حجرات ضيقة وذلك لتحمل الضغط الناجم عن بناء الهرم . ويوجد داخل الهرم منفذان للتهوية .

جبانة الهرم :

لقد تعطف وتكرم الفرعون خوفو وسمح لرجال بلاطه وكبار موظفيه ونسائه أن يكونوا حوله بعد الموت لأنه يقدر قربهم منه بقـــدر ماتتحقق لهم السعادة بعد الموت (هكذا صور لهم الفكر الوثنى) ولذلك سمح لهم ببناء مقابرهم حول هرمه ، وخصص الناحية الشرقية لأفراد عائلته والناحية الغربية لرجال بلاطه وهكذا . . حتى التفرقة بعد الموت . . لكل مقامه الذى كان يشغله بالقرب من ربه وولى نعمته صاحب السلطان فى الدنيا والآخرة ! ! !

٢ — معبد الملك خفرع الجنزى :

وهو يقع إلى الجانب الشرقى من بناء هرمه الحالى . . . وفى هذا المكان كانت تقام الطقوس الدينية للفرعون المتوفى ، وتقدم له القرابين الطازجة من مأكل ومشرب ، وتعاد إليه الروح (هكذا يقول لنا علماء المصريات) . وغير مسقوف

ويحيطه من جوانبه الأربعة من الداخل عدة ممرات يمكن الدخول إليها عن طريق مداخل تقع بين أعمدة مربعة شيدت حول هذا الفناء والقسم الثانى عبارة عن حجرة متطاولة أقيم فى أحد جوانبها بناء صغير على هيئة الباب من الحجر ويسمى الباب الوهمى . ويسمى هذا القسم قدس الأقداس ولا يدخل إليه إلا كبير الكهنة ، وهو عادة ابن الفرعون الراحل أو من ينوب عنه أما القسم الثالث فهو عبارة عن مخازن متفرقة .

٣ — معبد الوادى الخاص بالملك خفرع :

يقال أن معبد الوادى هو المكان الذى يتجمع فيه وفود زائرى الفرعون الراحل للاحتفال به فى المعبد الجنزى ، ويقال أيضا أنه المكان المخصص لتحنيط جثة الفرعون وإعدادها للدفن .

وعلى كل فإن مايهمنا أن الدراسات قد ألقت الضوء على تصميم وعمارة هذا المعبد الذى يؤدى إليه مدخلان فى جانبه الشرقى المطل على الوادى . والمدخل يؤدى إلى صالة مستعرضة فى وسطها من الجانب الغربى يفتح مدخل يوصل إلى الصالة الرئيسية فى المعبد وهى على شكل حرف مقلوبا وهذا البناء كسيت جدرانه الحجرية بلوحات من الحجر الجرانيتى من الداخل والخارج وتحوى الصالة الرئيسية فى جانبها المتطول ستة أعمدة ضخمه قدت من الجرانيت الوردى بينما الجزء العمودى فيها يحوى صفين من الأعمدة المربعة من الجرانيت الوردى أيضاً . وكانت هذه الصالة تحوى صفا من التماثيل الكبيرة للفرعون خفرع رصت بجانب الجدران .

وبعد لقد أفادنا علم الآثار فى إلقاء الضوء على فن عمارة وهندسة البناء ولكن كم من الأموال قد أنفقت ، وكم من النفوس قد سخرت ، وكم من الأرواح قد أزهقت فى سبيل بناء قبر يثوى فيه جسد الفرعون الفانى . لقد قال أحد المؤرخين القدماء :

إن الهرم الأكبر قد سخر فى بنائه ١٠٠ ألف عامل ، كانوا يعملون ثلاثة أشهر سنوياً على مدار ٢٥ عاما . وإن كنا لا نعرف مدى صحة هذا الكلام .

تمثال أبو الهول : من الحجر الجيرى — بصحراء الجيزة :

وهو ذلك التمثال الرابض على حافة الصحراء ، ولقد كتب عنه الكثير بمعرفة الكتاب القدماء ، كما أنه أخذ مكانة معروفة فى آداب العالم ، لما كتب حوله من أساطير على أنه يخفى الكثير من الأسرار .

وهو مقطوع فى الصخر على هيئة أسد رابض وله رأس إنسان وطـــوله ٨٠ متراً وارتفاع الرأى من الهضبة يبلغ ٢٢ متراً .

ويرى البعض أنه يمثل وجه الفرعون خفرع . وأنه بعد موت خفرع بأكثر من ١١ قرنا عتبر المصريون أبا الهول صورة للوثن المعبود حورماخيس وزاد الاهتمام بهذا التمثال فى العصور المتأخرة فكانت تقام له الأعياد التى يجرى فيها الرقص والغناء . وقد عثر حوله على كتابات تشير إلى أن أبا الهول كوثن معبود كان يسمى بوهول وهو على الأرجح أصل اسمه الحالى .

وقيمة هـــذا التمثال من الناحية الأثرية فى أنه يكشف عن القواعد الفنية المتبعة فى فن النحت كما أن ماعثر عليه حوله وبين يديه من لوحات مكتوبة قد ألقت ضوءاً على الفكر الوثنى المنحرف الذى كان سائداً فى ذلك الوقت ، وذلك غير بعض جوانب من تاريخ الملوك المصريين القدماء (مثال ذلك لوحه الحلم لتحتمس الرابع التى تركها لنا هذا الفرعون بين يديه) .

تمثال الفرعون خفرع : من الحجر الديوريتى — بالمتحف المصرى بالقاهرة

وقد عثر عليه مع غيره من التماثيل فى معبده بالجيزة وتمثله بالحجم الطبيعى على عرشه ويظلل رأسه بجناحى صقر وعلى جانبى العرش مثلث عملية توحيد القطرين ، وذلك غير اسم الملك وأهمية هذا التمثال التى يكشفها لنا علم الآثار هى :

١ — أنه قد كان هناك ملك يسمى خفرع « خع أف رع » كان يحكم مصر .

٢ — أنه صاحب معبد الوادى والهرم الثانى الذى أعد بمنطقة الجيزة لدفن الفرعون .

٣ — إن مصر كانت أمة موحدة أقاليمها تحت حكمه .

٤ — قواعد فن النحت التى استعملت فى نحت هذا التمثال .

تمثال شيخ البلد : من خشب الجميز — بالمتحف المصرى :

وقد عثر عليه فى أحد مقابر الأسرة الرابعة بجبانة سقارة وقد أطلق عليه اسم « شيخ البلد » للتشابه الكبير بينه وبين شيخ القرية . قد أبانت الدراسات الأثرية التى تمت فى هـذا المجال الفارق بين الهيئة التى تمثل عليها أشكال الأفراد وأشكال الفراعنة ، فقد كان محرما على الأفراد أن يمثلوا فى الهيئه التى يمثل عليهـا الملوك الفراعنة .

ومن الناحية الفنية أمكن التعرف على الملامح الخشنة والاعتداد بالنفس فى تمثال شيخ البلد ، (وأبهة الملكية فى تمثال خفرع) وذلك غير الوجه المستدير للتمثال الذى تطل منه العينان المثبتتان داخل اطارين من النحاس يكونان الجفنين ويضفيان نوعا من التباين والعمق على العين المكون بياضها من الحجر الجيرى وقرنيتها المكونة من البللور الصخرى وإنسان العين من رأس دبوس من النحاس

تمثال الكاتب المصرى :مجموعة منقرع تمثال رع حتب ونفرت :

وترجع جميعها إلى الأسرة الرابعة وهى محفوظة بالمتحف المصرى بالقاهرة . وتمثال الكاتب يمثل إنسانا جالساً متربعاً وعلى ركبتيه ملف من البردى من الحجر الجيرى الملون . والمجموعة الثانية تمثل الملك منقرع واقفا بين حتحور وسيدة ترمز لأحد الأقاليم المصرية . وعند أقدامهم يوجد نقش مصرى قديم وكذلك أعلى رأس السيدة رمز الإقليم الذى تمثله .

أما التمثالان الآخران فيمثلان شخصاً جالساً وسيدة جالسة أيضاً على كرسى وكلا التمثالين منحوت من الحجر الجيرى الملون . وأعلى رأس التمثالين يوجد نقش بالهيروغليفية .

وبعد هذا نعرض لتخصصات البحث الأثرى التى يحتاج إليها الأمر لدراسة

هذه الآثار واستخلاص المعلومات اللازمة بما يلقى الضوء على تاريخ ومدنية هذه الفترة :

١ — متخصص فى فك رموز اللغة المصرية القديمة (لغوى) .
٢ — متخصص فى فن نحت التماثيل من الأحجار .
٣ — أثرى .

فإذا ماأمكن للغوى أن يقرأ النقوش الموجودة على قاعدة مجموعة منقرع .

وإذا مافككت رموز تمثال رع حتب و نفرت وأمكن التعرف على نسبه و القابه والوظائف التى تولاها .

وإذا ما أمكن المتخصص فى فن النحت أن يعرفنا بالقواعد المتبعة فى تنفيذها وكذلك فى تحديد عصرها . وإذا ماتجمعت هذه المعلومات لدى الأثرى فإنه يمكننا بعد إجراء الدراسة اللازمة أن نقول :

أن تمثال الكاتب يرجع إلى عصر الأسرة الرابعة . وإن وظيفة الكاتب كان لها دور فعال فى ذلك العصر . أما المجموعة الثانية فهى للملك منقرع بانى الهرم الثالث بمنطقة الجيزة والذى يرجع إلى عصر الأسرة الرابعة ، كما تعرفنا بألقابه وبمعبوداته وأسمائها وذلك غير أسماء أقاليم مصر السفلى والعليا .

أما المجموعة الثالثة فهى لرع حتب ابن سنفرو « وزوجته نفرت » وتلقى ألقابه الضوء على النظام اللادارى الذى كان سائداً فى ذلك العصر وقد عثر عليها فى مقبرتهما بميدوم .

نقوش المقابر بالمتحف المصرى :

هناك بعض القطع الحجرية التى عثر عليها فى مقابر سقارة وميدوم تحمل بعض الرسومات أو النقوش الملونة مثال ذلك :

١ — لوحة أوزميدوم التى عثر عليها فى داخل مقبرة « نفرمعات » وتمثل الأوز بالألوان فى حركة طبيعية .

٢ — لوحة أخرى قد مثل عليها صاحب المقبرة وقد جلس إلى مائدة حفلت بأنواع الطعام (لحوم وفاكهة وخضروات وشراب وزهور) وفى جواره يرى عازف الناى ، وضارب العود والراقصات على أنغام المصفقات .

٣ — لوحة أخرى تصور مشاجرة بين بحارة يتراشقون بألفاظ سوقية .

تماثيل الخدم : من الحجر الجيرى — بالمتحف المصرى :

عثر فى حجرات دفن المتوفى على تماثيل حجرية يقوم أصحابها بطحن الغلال كما يقوم البعض الآخر بصنع الجعة ؛ وإعداد الخبز ، وغير ذلك من الأعمال .

وطبعاً العثور على هذه التماثيل يمكن أن يلقى الضوء على الحرف والصناعات التى كانت سائدة فى ذلك الوقت . كما أنها تعرفنا بفكر المصرى القديم الذى كان يتصور أنه سيحتاج لمن يقوم بإعداد مايلزمه فى العالم الآخر (أى على خدمته) .

الأثاث الجنزى : بالمتحف المصرى :

سمى كذلك لأنه كان يتبع جنازة المتوفى إلى قبره ليستعمله فى حياة ما بعد الموت ، وإذا شئنا تقريب ذلك إلى أذهاننا فإنه يمكن القول أنه : أثاث المنزل الذى يستعمل فى الحياة العادية ويصطحبه معه المتوفى إلى مقبرته .

ومثال ذلك ؛ قامت إحدى بعثات الحفر الأثرى ، بالكشف والتنقيب فى منطقة الجيزة (الجبانة الواقعة فى الشرق من الهرم الأكبر) وهناك عثرت على بئر عمقه ١٩ متراً ، وبالنزول فيه وجد أنه يؤدى إلى حجرات جانبية ، وبالدخول إليها وقع البصر على أهم ماوصل إلينا من أثاث الدولة القديمة . قام العمال بالكشف والتنظيف وقام الأثريون بإثبات كل ماعن لهم من ملاحظات وقام اللغويون بترجمة النص الموجود وقام المصورون بالتصوير والرسامون بالرسم ، والكيميائيون والمرممون بفحص الآثار التى عثر عليها وتقويتها وإعدادها للنقل . هذه الآثار عبارة عن :

خيمة كبيرة مربعة الشكل أعمدتها من الخشب المغطى بصفائح من الذهب

وداخل الخيمة سرير من الخشب المغطى جوانبه بصفائح من الذهب وذلك غير مسند للرأس وكرسى للجلوس ومحفة من الخشب كسيت بلوحات رقيقة من خشب الأبنوس الأسود وبرزت منه بعض العلامات الهيروغليفية المصنوعة من الذهب الخالص . وبالإضافة إلى ذلك عثر على صندوق من حجر المرمر حفظت به أدوات الزينة والتجميل من عطور وكحل وبخور . ووجد فى الحجرة أيضاً مجموعة من السكاكين من الذهب الخالص وإبريق من النحاس وآخر من الذهب الخالص وأخيراً كان هنالك التابوت وصندوق الأحشاء المحوتين من حجر المرمر .

ومن خلال الدراسات التى تمت أمكن القول أن هذه المقبرة لسيدة تدعى حتب حرس «إبنة الملك وزوجة الملك وأم الملك خوفو» كما أمكن التعرف على صناعة الآثاث فى ذلك الوقت البعيد . وذلك غير أدوات الزينة والتجميل وموادها .

معابد الشمس : الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ — ٢٤٢٠ ق . م .) .

والآن سنعرض لنموذج من المعابد ، أقامه المصريون منذ آلاف السنين للتعبد لوثنهم رع (قرص الشمس) وسوف نتبين الجهود التى بذلت والأموال التى أنفقت فى سبيل تعظيم الوثنية واتباعها . والناس لاتدرى ولاتحس أنهم فى ضلال وأنهم قد تجنبوا جادة الصواب وقبل ذلك كله أنهم أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا بل كانوا يتصورن أنهم يقومون بأعمال جليلة « . هذا النوع من المعابد هو مايسمى بمعبد الشمس . وهو ما كان يشيده ملوك الأسرة الخامسة لعبادة الوثن « رع » . وكل معبد يتكون من (معبد الوادى) والطريق الصاعد والمعبد المكشوف .

ومعبد الوادى عبارة عن مدخلين يوصلان إلى حجرة أوصالة متطاولة يتفرع منها الطريق الصاعد إلى الهضبة ليصب فى مدخل المعبد الذى تقام فيه طقوس العبادة لوثن الشمس «رع» . هذا المعبد المكشوف عبارة عن فناء ضخم مفتوح فى أقصى الغرب منه قدس القداس ، وهو يتكون من قاعدة عالية مشيد فوقها

مسلة عالية إرتفاعها يصل أحيانا إلى حوالى ٣٦ متراً ، وإلى الشرق منها وفى وسط الفناء المفتوح وضعت مائدة القرابين الضخمة من المرمر . والتى كانت تتكدس عليها القرابين من لحوم وفواكه وزهور وخضروات ثم تحرق ويصعد دخانها إلى السماء قربانا واسترضاء للشمس « رع » أو رمزه « المسلة » .

وجنوبى ذلك المعبد أقيمت سفينتان ليستعملهما «رع» فى رحلتيه المعروفتين من الشرق إلى الغرب نهاراً ، ومن الغرب إلى الشرق مساء .

وغير ذلك فقد رصدت له الأموال وأوقفت الأوقاف للصرف عليه ولضمان استمراره مفتوحا ، وما كان أحرى بهؤلاء الفراعنة أن يصرفوا هذه الأموال على المحتاجين والمساكين ، وما كان أكثرهم ، ألم يدر بخلدهم يوماً ماسفاهة تصورانهم ومعتقداتهم . لحوم وخضروات وفواكه تحرق وتتبدد . ألم يكن الأولى بها أولئك الذين يبيتون على الطوى ، ولكن ذلك لم يكن من السهل على أى حال ، فهناك رجال الدين من الكهنة وسدنة الهيكل والمستفيدين الذين كانوا على استعداد للحرب من أجل استبقاء نفوذهم وسلطانهم بالدجل والشعوذة والضحك على عقول الجماهير . وفوق ذلك كله كان الفرعون الذى أدعى الربوبية وحرص على أن يغرق الناس فى الوثنية إلى آذانهم حتى يسهل عليه الانفراد بمقدرات الأمة المصرية .

المجموعة الجنزية لمنتوحتب الثانى بالدير البحرى (الأقصر) :

الأسرة الحادية عشرة (٢١٦٠ — ٢٠٠٠ ق . م .) .

من أهم النتائج التى توصل إليها البحث الأثرى فى البر الغربى لمدينة الأقصر التعرف على ملامح المجموعة الجنزية للفرعون منتوحتب الثانى :

معبد صغير عند التقاء الأرض الزراعية بالصحراء ، ثم يمتد منه إلى الغرب طريق طوله حوالى ٥٨٠ متراً بين جدارين عاليين حتى يصل إلى فناء كبير . وقد أقيم على جانبى هذا الطريق تماثيل تمثل منتوحتب الثانى فى هيئة أوزوريس ويبعد كل منهما عن الآخر بحوالى عشرة أمتار .

أما الفناء فقد كان محاطاً بجدران عالية وغرست فيه أشجار عالية امتدت فى صفوف لتظلل تماثيل حجرية الملك منتوحتب الثانى جالساً فوق كرسى .

وفى الجانب الغربى لهذا الفناء يوجد بهوان كبيران ارتفع سقفهما على أعمدة مربعة . ويفصل بين البهوين طريق منحدر إلى أعلى ليصل إلى شرفة بها بهوان آخران يقوم سقفاها على أعمدة وبين هذين نجد مدخلا يؤدى بنا إلى صالة كبيرة تحوى أعمدة لاحصر لها حيث أقيم بوسطها هرم غير مرتفع وفى أسفل هذا الهرم نحتت حجرات الدفن . وفى الجانب الغربى لهذه الصالة يوجد مدخل يؤدى إلى فناء مكشوف يؤدى فى غربه إلى حجرة متسعة نقرت فى صخر الجبل وفيها أعد الباب الوهمى وأمامه مائدة القرابين .

والآن نتساءل عن الغاية التى من أجلها أعد المصرى هذه المجموعة الجنزية . والإجابة تتلخص فى إعدادها لتكون مثوى للفرعون منتوحتب وأهل بيته . وبعد ذلك يأتى سؤال آخر ، وهل جثة الإنسان تحتاج لإقامة هذه المنشآت الضخمة التى تكلفت — مما لاشك فيه — أموالا ضخمة وجهوداً بشرية كبيرة !

نماذج « مكت رع » :

عثر « عقبرة » « مكت رع » أحد كبار رجال حكومة منتوحب الثانى على نماذج مصغرة أغلبها من الخشب تمثل :

١ — ورشة نجارة ، وقد بدأ فيها العمال وهم يقومون بتقطيع الخشب ونشره بينما انشغل البعض الآخر فى إعداد تابوت الدفن .

٢ — ورشة نسيج ، غزل ونسج الأقمشة ويرى فيها العاملات منهن من يقمن بغزل الخيط والبعض الآخر يقمن بلفه على قطع من الخشب ومنهن من تعمل على « النول » .

٣ — شون غلال ، وفيها يرى بناء الشونة ، والحمالون وهم يرفعون الغلال على رؤوسهم تمهيداً لتفريغها فى الفتحة العليا للشونة ، وفى نفس الوقت يرى الكاتب وهو يسجل الكمية التى تم تخزينها .

٤ — مراكب صيد الأسماك ويرى عليها البحارة وهم يقومون بصيد الأسماك التى نراها فى الشبك .

وبعد هذا الوصف الموجز نتساءل ماهى تخصصات البحث الأثرى اللازمة لفحص هذه النماذج لاستخلاص المعلومات اللازمة . والإجابة تستدعى وجود متخصصين فى أعمال النجارة ، ومتخصصين فى غزل ونسج الأقمشة ومتخصصين فى العمارة ومتخصصين فى الزراعة وفى صناعة المراكب ، وأنواع الأسماك .

ومما لاشك فيه أن تقارير هؤلاء المتخصصين سوف تزيح النقاب عن بعض جوانب التاريخ الاجتماعى لمصر القديمة فى هذه الفترة . وهذه هى بعض الجوانب الرئيسية :

١ — الحرف والمهن التى كان يمارسها الناس .

٢ — الأدوات المستعملة فى التنجير وعملية التنجير نفسها.

٣ — طريقة غزل الخيوط ونسج الأقمشة والأدوات المستعملة فى إعدادها .

٤ — طريقة بناء شون تخزين الغلال ، وأنواع الحبوب التى كانت تزرع فى ذلك الوقت .

٥ — طريقة بناء المراكب وأنواعها وكذلك إعداد شباك صيد الأسماك وذلك بالإضافة إلى أسماء الأسماك التى كانت تعيش فى نهر النيل .

التخطيط العام للمعبد [١] : الدولة الحديثه (١٥٨٠ — ١٠٩٠ ق . م .)

إذا ألقينا نظرة على المعابد فى الدولة الحديثة كما يعكسها لنا مثلا معبدى الكرنك والأقصر ، نجد أنها تلتزم بأسلوب معمارى فريد ، الذى يحتم أن يكون المعبد مطلا على نهر النيل ، حيث يصل الزائر بالسفينة عند مرفأ صغير ، ثم يصعد بضعة درجات بسلم منحدر ليبدأ السير فى طريق معبد تحف به تماثيل ضخمة

(١) مثال ذلك معبد الكرنك ومعبد الأقصر ومعبد مدينة هابو والرمسيوم

تمثل أبي الهول إما برأس آدمى أو برأس كبش [١] وفى نهاية هذا الطريق يصل الزائر إلى مدخل المعبد وهو عبارة عن صرحين كبيرين يطلق عليهما اسم بيلون وبين الصرحين توجد البوابة التى تؤدى إلى داخل المعبد . وعلى جانبى هذه البوابة كانت تقام مسلات عالية وتماثيل ضخمة تمثل الملك الذى أمر ببناء المعبد إما واقفاً أو جالساً على عرشه [٢] وأحياناً نجد فقط نوعاً من التماثيل الواقفة [٣] أو الجالسة [٤] .

وقد شكلت فى واجهة بناء الصرح مشكاوات (قنوات) لتحوى صوار عاليه من الخشب تنتهى فى أعلاها بأعلام . وبالإضافة إلى ذلك فإن واجهة الصروح كانت تستخدم لتسجيل أهم المعارك الحربية واحداث الدولة .

وإذا مادخلنا المعبد نجد فناء واسعاً تحيط به الأعمدة على طول جوانبه الأربع وقد شكلت تيجان هذه الأعمدة على هيئة زهرتى اللوتس والبردى أو قمم شجر النخيل . ويعرف هذا الفناء باسم البرستيل .

وإذا ماتركنا هذا الفناء إلى داخل المعبد : نجد صالة أخرى انتشرت فيها صفوف من الأعمدة تسمى « صالة الأعمدة » .

وبعد ذلك نصل إلى قدس الأقداس « أى أقدس مكان فى المعبد » وهو عبارة عن حجرة طويلة يحيط بها عدة حجرات صغيرة . وهذه الحجرة تحوى فى العادة تماثيل الأوثان أو منصة مرتفعة يقوم فوقها صندوق يحوى تمثال الوثن وفى نهاية عرضنا هذا يخطر على بالنا السؤالان التاليان :

ماهى الغاية من وراء إنشاء هذه المعابد ؟ وما هو حكمنا عليها من ناحية الفكر الكامن وراء إنشائها فى ضوء التصور الإسلامى ؟

---

(١) مثال ذلك معبد رمسيس الثانى بوادى السبوع ببلاد النوبة .
(٢) مثال ذلك معبد الكرنك حيث يسمى هذا الطريق طريق الكباش .
(٣) مثال ذلك مدخل معبد الأقصر ومعبد نفرتارى بأبى سمبل .
(٤) معبد أبو سمبل الكبير .

التخطيط العام لمقابر ملوك الدولة الحديثة :

ابتدع ملوك الدولة الحديثة بدعة جديدة فى بناء مقابرهم وذلك بالفصل بين الجزء المعد لدفن الجثة وبين المعبد الجنزى .

والجزء المعد لدفن الجثة ، كان محفوراً فى باطن الصخر فى الصحراء فى مكان مختفى وهو يتكون من مدخل يؤدى إلى عدة ممرات وغرف يتخللها أحياناً بعض الآبار . وقد كانت جوانب هذا الجزء مسرحا لنشاط فنى واسع النطاق ، وفى هذا الجزء كانت تدفن الجثة فى داخل تابوت ، يحاط بالأثاث الجنزى وكل مايحتاجه المتوفى فى عالم مابعد الموت .

أما الجزء الثانى فهو المعبد الذى كان يبنى عند حدود الأرض المزرعة على الشاطىء الغربى للنيل وهو يشبه فى تخطيطة معابد الآلهة المصرية القديمة .

مثال : <u>مقبرة أمنحتب الثانى</u> : (١٤٥٠ — ١٤٢٥ ق . م .)

وهى منقورة كلية فى الصخرة وتتكون من محورين ، الأول يبدأ من المدخل وينتهى عند الحجرة ٦ ، والثانى يبدأ من الحجرة ٦ مكوناً معها زاوية قائمة وينتهى إلى حجرة الدفن .

وللوصول إلى مدخل المقبرة لابد من نزول بضعة درجات سلم منحدر . والمدخل يؤدى إلى ممر طويل « ١ » الذى يؤدى بدوره إلى حجرة « ٢ » التى يتوسطها سلم منحدر إلى أسفل يصل إلى ممر آخر « ٣ » ينتهى ببئر عميق « ٤ » وينتهى البئر بدوره بحجرة جانبية « ٥ » . وبعد ماعبرنا البئر ، فإننا نصل إلى الحجرة « ٦ » — المحمول سقفها على عمودين مربعين والتى فى أحد أركانها منحدر يسير فى ممر طويل « ٧ » ينتهى بحجرة « ٨ » من واسعة المستطيلة المحمول سقفها على ستة أعمدة مربعة قدت من الصخر . وفى أقصى الحجرة يوجد التابوت .

والملاحظ أن جدران الحجرات المقبرة قد كسيت بلوحات من الحجر

الجيرى المنقوش عليها صور تمثل المتوفى وهو بين أوثان العالم السفلى ، وذلك غير بعض فصول من كتاب للموتى .

ومما لا شك فيه أن دراسة نقوش ورسومات هذه المقابر ، قد أفادنا بمعلومات هامة عن الحياة الاجتماعية التى كانت لمصريين فى ذلك الوقت .

هذا وصف سريع لتخطيط المقبرة وهو نتيجة حققها علم الآثار بمعرفة متخصصين فى فروعه المتعددة .

نظرة إسلامية على ما خلفه الفراعنة من آثار :

بقى علينا الآن أن نتساءل ماهى الغاية التى من اجلها نحتت التماثيل وأقيمت المعابد وأنشئت المقابر وزودت بالأثاث . . . وأوقفت عليها الأموال الطائلة . . . وعمل فيها الآلاف من بنى البشر ؟ وهل هذه الغاية مشروعة أم لا ؟ إن الغاية من وراء ذلك كله هى الإعلاء من شأن الوثنية والوثنيين . فالهدف من تشييد المقابر بهذا الشكل هو الحفاظ على الجثه من التحلل والضياع أو السرقة ، لأن البعث فى تصورهم . . كان يعتمد على الحفاظ عليها ، وإلا فقد الانسان فرصه بعثه مرة أخرى — ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من الأموال التى انفقت على بناء المقابر أو نحتها ، والوقت والجهد الذى بذل فيها ، فلم يعثر إلا على القليل من أجساد الفراعنة وسرق وحطم وتحلل الجزء الأعظم منها ، أما المعابد فإن الغرض من إنشائها ، كان لعبادة الأوثان الذين اتخذوا أربابا من دون الله ، أو الرغبة فى الاحتفال بالميت فى مناسبات عديدة . .

أما التماثيل ، فقد نحتت واقيمت لتمثل الأوثان المعبودة من دون الله وتقدم إليها القرابين فى مناسبات مختلفة أو للاعلاء من شأن الانسان المتوفى .

وإذا نظرنا إلى الفكر الكامن وراء تلك الإنشاءات ، فى ضوء التصور الإسلامى . فإنه يمكننا القول بأنه فكر منحرف عن هدى الله ، فهو يشرك بالله أربابا ويتخذ من دونه أندادا . . . ويتصورون أن البعث لا يكون إلا لمن أخذ بأسبابه المادية . والعجيب وهذا فكر منحرف أيضا أنه فى سبيل

هذه الوثنية تنفق الأموال — وتوقف الأوقاف ويستخدم بنو البشر .. وهذا حرام .

أما المقابر .. فهى بتلك الصورة حرام قطعا ، لأن القبر الشرعى عبارة عن حفرة يوضع فيها الانسان وتسوى بالأرض .. والله وحده هو الكفيل بجمع ذرات الانسان من العدم .. « قل من يحى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون .. أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم .. إنما امره إذا اراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون .

أما تهيئة القبر بهذه الصورة .. صورة البذخ الممقوت فلن تنفع الموت ، بل تؤذيه فى حاضره ومستقبله .. فالعبرة ليست بفخامة القبر ولكن العبرة بالعمل الصالح ..

هذه نبذة بسيطة عن الفكر الشارد عن الهدى الإلهى ، والدى يكمن وراء هذه الآثار التى خلقها لنا الغابرون .. وهو ما يحكى لنا عنه القرآن الكريم فى أكثر من سورة من سوره .

تلك هى النماذج المختارة من آثار الفراعنة الذين اعتدوا على سلطان الله فى الأرض فادعوا الألوهيه والربوبية « فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى » ، ولما كان الله لا يعذب حتى يبعث رسولا يدعوا الناس إلى عبادة الله الواحد القهار فقد أرسل الله إلى فرعون موسى عليه السلام « اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فترضى » . ولكن الطغاة أبوا أن يقروا عبوديتهم لرب العالمين . ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد .. بل « وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ..

تلك آثار الفراعنة تحدثنا عن فرعون الذى استخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين . . تلك آثار الفراعنة الذين هتكوا الحرمات . « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » . . تلك آثار الفراعنة تحكى لنا تاريخ مجتمع من المجتمعات الشاردة عن الهدى الإلهى التى رفضت دين الله . . الإسلام كنظام وكمنهج . . ذلك الدين القيم الذى دعا إليه رسل الله ومنهم يوسف وموسى والرجال المؤمنون . . « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذى آمن . ياقوم إنى اخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد » . . .

تلك آثار الفراعنة التى تحكى لنا عن اللحظة الحاسمة التى تحقق وعد الله ووعيده وعده للمسلمين الموحدين بالنصر والتمكين ووعيده لفرعون بالغرق « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » . (يونس ٩٠ — ٩٢)

والجدير بالتأمل والملاحظة أن تاريخ المجتمع الفرعونى ، ليست صورة انتهت ولم تعد ولم تتكرر . . أبدا على العكس من ذلك فطغاة الفراعة وطغيان المجتمع الفرعونى يمكن أن تتكرر صورته فى أى مجتمع شرد عن الهدى الإلهى فى أى بقعة من بقاع الأرض . . وهذه حقيقة واقعة فى حياتنا فى القرن العشرين فى معظم بقاع الأرض ، مجتمعات شاردة عن هدى الله . . لا تقيم حياتها على الاسلام . . بل وذهب الشرود إلى حد انكار وجود الله بالكلية . بل والتنكيل بكل صوت

يرتفع بالحق . . فرحين فيما حققوا من انتصارات علميه وقوة بطش مادية كان في الامكان أن تزيدهم إيمانا بالله تعالى . . لولا أنهم لا يفقهون . ولما كان الأمر كذلك فإن القرآن الكريم نزل ليربي الأمة وليردها إلى ربها الحق وليقون لها لا تفترى بما لديك من العلم . . ولا تشركين بالله وتتكلين بالدعاة إلى الله . . وإلا حاق بك ما حاق بغيرك من المجتمعات السابقة من عقاب الله عز وجل » .

« افلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة من قبلهم ؟ كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة ، وآثارا في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانو به يستهزءون» (غافر : ٨١—٨٣) .

« إن رؤية هذه الآثار وفيها مصارع الغابرين كما يقول سيد قطب رحمه الله ، وهي كثيرة في تاريخ البشريه تحكي لنا قصة الغابرين . الذين وقفوا موقفهم ، وكانوا اشد قوة وأكثر آثارا في الأرض . ولكنهم مع هذه القوة والعمارة . كانوا ضعاف أمام بأس الله ، وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوة الحقيقية لقد توافرت لهم الكثرة والقوة والعمران لم ينقصهم شيء ، ولكنهم كانوا ضعافا أمام باس الله ، وكانت ذنوبهم تعزلهم عن الله ، مصدر القوة الحقيقيه « فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » والعلم بغير إيمان فتنة تعمي وتطغى ولو قاس الناس ما يعلمون إلى ما يجهلون وما يدركون إلى مالا يدركون في هذا الكون الفسيح لطامنوا من كبريائهم وخففوا من فرحهم الذي يستخفهم . ولأقلعوا عن الاستهزاء بمن يذكرهم بما وراء ، ولما حاق بهم ما كانوا به يستهزءون من باس الله . وعدم قبول توبتهم لأنها توبة الفزع لا توبة الإيمان : « سنة الله التي قد خلت في عباده »وهي ثابتة لا تضطرب ولا تتخلف ولا تحيد عن الطريق .

وفي موضع آخر من القرآن يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن هوان فرعون الطاغية المتعالي وملئه المهالي على الظلم والطغيان . هوانه وهوانهم على الله ، وعلى هذا الوجود ، الذي كان يشمخ فيه بانفه ، فيطأطيء له الملأ المفتونون به . وهو

أضأل وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو سليب النعمة فلا يمنعها من الزوال ولا يرثى له أحد على سوء المآل : « فكأين من قرية أهلكنا وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ، أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . (الحج : ٤٥—٤٦) . وهذا المشهد يصور النعيم الذى كانوا فيه يرفلون ، ويصور هذا النعيم ماتركوه من آثار : جنات وعيون وزروع ومكان مرموق ، ونعمة يتلذذون بها ويعيشون فيها مسرورين ، ثم ينزع منهم كل هذا ، أو ينزعون منه ، ويرثه قوم آخرون ثم ماذا ؟ ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس فى هذه الأرض ، ذهبوا فلم يبك على ذهابهم أحد .

وماجرى على غيرنا ، يمكن أن يجرى على أى من أمم الأرض حين لاتستجيب لداعى الله وتثوب إلى رشدها ، وتأخذ الاسلام عقيدة وشريعة .

الفصل السادس

أمثلة مختارة من الآثار المكتشفة
فى بلاد العراق القديم

التلال الأثرية :

حينما قام الأثريون بالبحث والحفر عن مخلفات إنسان مدن العراق القديم لاحظوا أن بقايا هذه المدن مشيدة دائما على تل عال يتكون من عدة طبقات تمثل كل منها فترة من فترات تاريخ هذه المدن ، وذلك بسبب ما جرت عليه العادة من تشييد المساكن أو المدن على الانقاض السابقة المساكن أو للمدن التى هجرت أو تهدمت لأسباب طبيعية أو غير طبيعية .

ولقد كانت هذه التلال الأثرية مصدر معلومات لا يستهان به عن تاريخ وحضارة العراق القديم وتطورها على مدى العصور . وهنا يجد الأثرى كنزا لا يفنى من المدنيات التى مكنت المؤرخين من التعرف على تاريخ وحضارة العراق القديم .

ما أسفرت عنه الحفائر الأثرية فى التلال :

ففى ثنايا هذه التلال عثر على اطلال للمعابد والقصور الملكية ، عثر على وثائق تتعلق بالعبادات والمعتقدات العراقية القديمة ، وكذلك أخبار الحروب التى كان ملك المدينة يقوم بها ، وذلك بالإضافة إلى التشريعات التى كانت تحكم حياة الناس هناك .

أما بقايا المنازل فقد عثر فيها على اعداد من اللوحات الطينية التى استعملوها للكتابة عليها ، بعضها دون عليه اصحاب المنازل قائمة بمحتويات مخازنهم من مواد

مختلفة والبعض الآخر يحمل خطاباتهم وبعض الوصفات الطبية والنصوص الدينية وكانت الاطلال تحوى بقايا أوانيهم الفخارية والنحاسية والحجرية وغيرها .

وبعد الحفر والتنقيب والفحص العلمى أمكن معرفة تخطيط المدن السومرية وموقع القصور والمعابد منها ، كما أن فك رموز اللغة السومرية قد أتى الضوء على كثير من جوانب الحياة فيها .

ذخائر فى مقابر أور :

ومن مخلفات إنسان العراق القديم للمقابر التى أمكن تميز نوعين منها فى مدينة أور . الأول : ويحوى دفنات ملكية فى حالة جيدة من الحفظ . وقد وجد فيه عدد كبير من أفراد الحاشية والخدم ، وضع كل منهم على مسافة من جثة الملك تتفق والمراكز الذى كان يشغله صاحبه فى القصر ، فمثلا عثر على أفراد من الحرس الملكى وقد تزين كل منهم بخوذته النحاسية المذهبة وامسك بحربة طويلة . كما أن سيدات البلاط قد اصطحبت كل منهن حليها الفخمة وذلك إلى جانب المغنيات اللاتى احتفظت كل منهن بآلتها الموسيقية إلى جانبها .

كما عثر فى هذه المقابر على عدد من العربات ذات الأربع عجلات تجرها الثيران أو الحمير وقد رقد بعض السياس بجانب كل عربة .

كما عثر على عدد كبير من الأوانى الذهبية والفضية وغير ذلك مما يستعمل فى شئون الحياة .

أما النوع الثانى من المقابر وهو احدث من الأول وهو عبارة عن بئر عميق تؤدى إلى حجرة واسعة تحوى تابوتا خشبيا ، وفى داخل هذا التابوت كانت ترقد جثة الامير ومعها تاج من الذهب وآنيتان نقش عليهما اسم الملك ، وخنجر صنع مقبضه من الذهب ، هذا غير الحلى والأساور والاقراط المصنوعة من الأحجار النفيسة . أما خارج التابوت فقد كشف عن اسلحة مثل الحراب والخناجر وغيرها من الأدوات المنزلية .

القرائن الأثرية الدالة على الطوفان :

(ا) قرائن مادية :

من المظاهر التى افاد علم الآثار فى الكشف عنها عند الحفر والتنقيب فى مخلفات اسان العراق القديم ، ما يدل على حدوث ما يمكن أن يسمى بالطوفان التى تحدثت عنه الوثائق السومرية والبابلية باسهاب مطول (عن وصف الطوفان ومسبباتة ونتائجه) وقد تأكد حدوث ذلك حينما اسفر الحفر عن العثور على طبقات طميية تتراوح فى سمكها ما بين ٥ر ، ٥ر٣ متر فى مناطق متعددة من العراق (اور ، وكش) ويختلط فيها كثير من القواقع وأعداد كبيرة من الاسماك التى تعيش فى مياه الأنهار ، وأسفل هذه الطبقات عثر على طبقة أخرى بها بعض المخلفات البشرية ، وهو ما يدل على أنه كانت هناك حياة بشرية قبل تكون هذه الطبقة الطميية التى نشأت عن الطوفان الكاسح الذى أهلك الحرث والنسل فى النصف الثانى من القرن الأربعين ق.م .

(ب) قرائن فكرية :

١ — الأدب السومرى : ويغلب عليه الطابع الدينى وقد عثر عليها مكتوبة على الواح ترجع إلى الألف الثانى قبل الميلاد (١) . ويقال أن أصحابها نسخوها عن أصول قديمة يصعب تحديدها تحديدا قاطعا . وحوى الأدب السومرى قصصا وملاحم وأساطير ومحاورات دينية ودنيوية . وكانت من اشهرها مغامرات جلجميش وقصة الطوفان :

وتبدأ قصة الطوفان بالحديث عن خلق البشر والحيوانات والنباتات وتعمير الأرض فى خمس مدن من مدن العراق منها شوروباك وأريدو . وبعد ذلك تقرر ان يغمر الفيضان الأرض ، ودب الذعر فى قلوب قاطنى المدن الخمسة . زيوسودرا الرجل الصالح فى هذه المدن يوحى إليه بالقرب من جدار مقدس : « سوف ألقى إليك كلمى ، فاستمع لأمرى ، بقضائنا سوف (يكتسح) الفيضان مراكز العبادة (الوثنية ؟) ويقضى على سلالة البشر (العاصين؟) ذلك قرار ..

---

(١) مصر والعراق

وقضاه . . ويبدو أنه نصحه ببناء سفينة كبيرة وينقل إليها من كل الأزواج ؟ وصدع الرجل الصالح بالأمر ، وفى اليوم المحدد هبت ريح عاتية واكتسح الفيضان الأرض بما عليها على مدار سبعة أيام وسبع ليالى بعد أن حمل السفينة على ظهره .

وبعد مضى وقت محدد فتحت طاقة فى جدار السفينة نظر الرجل الصالح من خلالها وعلم بصفح ربه فضحى من أجله بعد أن رست السفينة على اليابسة وصدرت كلمة السماء إلى الأرض فاخضرت . ودبت فيها الحياة ؟ ووهب الرب الأكبر زيوسودرا حياة طويلة ؟ وكانت حياته سببا فى الحفاظ على سلالة البشر .

٢ — الأدب البابلى : اسطور جلجميش والطوفان

وهى من الاساطير الشهيرة التى ادخل فى ثناياها قصة الطوفان على ايدى البابليين بعد أن ادخلو عليها بعض التعديلات . والواقع أن الجزء الذى يهمنا رصده هنا هو ما يتعلق بحادثة الطوفان ، ولكن ذلك لا يمنع أن نسرد بعض ملامح الاسطورة .

جلجميش كان حاكما على مدينة اوروك زاده الله بسطة فى الجسم ونضارة فى الوجه فطغى وتجبر حتى أنه كان يسخر الأبناء ويستحل النساء والبنات . ولما جأر الناس بالشكوى ، خلق انجيد اكثر قوة واقتدارا حتى تهبط عزيمة جلجميش ويصرف طغيانه عن شعبه (هكذا تقول الاسطورة) ، وتستمر الاسطورة فى متابعة اخبار جلجميش وانجيدو إلى أن يحين الوقت الذى يلتقى فيه جلجميش بـ أوتنابشتيم طالبا منه سر الخلود ولكن اوتنابشتيم يأبى إلا أن يقص على مسامع جلجميش اخبار الماضى البعيد ومنها قصة الطوفان القديم :

سأكشف لك جلجميش سرا ، وهو سر ربانى ، ويتلخص السر أن رجل شوروباك أمر ببناء سفينة يحملها من كائن حى « ارحل بها وخذ بذرة كل حى » وصدع رجل شوروباك بالأمر قائلا « وسأكون اهلا لحمل الرسالة . وأتم بناء السفينة ثم إنزالها إلى الماء بعد تحميلها بصنوف الأحياء . وفى الموعد المضروب اكفهر الجو ، واعتمت السماء وفاضت الترع وهبت العواصف فنسفت

الجبال واقتلعت الناس ، واستمرت اعاصير الطوفان ستة أيام وليال وفى اليوم السابع هدأ البحر وتوقف الطوفان ففتح رجل شوروباك طاقة من السفينةفسقط الضوء على وجهه فسجد وبكى ورست السفينة لينزل الاحياء منها وتبدأ الحياة من جديد » .

ولا يفوتنا ونحن نسرد جانبا من هذه القصة أن نذكر بعض التعبيرات التى وردت فى ثناياها :

« من يستطيع أن يعاند السماء ياصديقى ؟ ليس من يخلد تحت الشمس » « أما البشر فأيامهم معدودات » . « إن للموت نهاية كل حى » ، وأنه ليس من سبيل إلى حياة الخلود التى تبتغيها .

وهذه بعض القرائن التى تحكى لنا قصة الطوفان الذى عاقب به الله سبحانه وتعالى للمشركين من قوم نوح — كما وعتها عقول البشرية ودونوها بلغاتهم القديمة حتى كشفت عنها الأبحاث البشرية ، وهو ما يؤكده كل حرف من حروف القرآن حينما يحدثنا عن قصة نوح عليه السلام « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . إنى لكن نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم اليم » .

والجدير بالذكر.. أن علماء الآثار . حين عثورهم على القرائن الأثرية الدالة على الطوفان ، لم يحاولوا أن يربطوها من قريب أو بعيد بالحقائق التى أوردها القرآن الكريم والتى تؤكد اصالة خط التوحيد فى حياة البشرية ، بل على العكس من ذلك فقد راحوا يطمسون معالمه ويقولون إن القرآن ومن قبله التوراة والانجيل قد نقلوا أحداث القصة — قصة الطوفان — عن الآداب العراقية القديمة حتى يصلوا فى النهاية إلى الزعم بأن الدين من اختراع العقل البشرى ، وأن الكتب التى أنزلها الله على رسله هى من اختراع أو فعل هؤلاء الأنبياء .

وسنفند هذا الزعم الذى لا سند له من الحق فى موضع آخر انشاء الله .

المعابد العراقية القديمة :

عثرت إحدى بعثات الحفر الأثرى فى بلدة أريد والعراقية (أبى شهرين)

على بقايا معبد قديم كان قد أقيم من أجل الوثن رب المياه العذبة . وحينما قام أحد المهندسين المتخصصين فى العمارة الدينية وهى أحد فروع البحث الأثرى ، بدراسة هذه البقايا ورفعه هندسيا . . . . اسفر ذلك عن معرفة الأجزاء التى كانت تكون هذا المعبد والاضافات والتعديلات التى أدخلت عليه على طول فترات مدنية العبيد .

فقد كان هذا المعبد يتكون من مقصورة بسيطة لها مشكاة لحفظ تمثال الوثن أو رمزه وأمام هذه المشكاة كان يوجد مائدة قرابين وكان هذا الجزء من المبنى مقاما على مسطح يؤدى إليه درج . وفيما بعد أحيطت المقصورة بحجرات جانبية مع إضافة مذبح جديد بالقرب من مائدة القرابين . والملاحظ أن جميع عناصر المعبد قد احيطت بصور له مشكاوات رأسية مستطيلة .

بذلك أفادنا علم الآثار عن العمارة الدينية وعناصرها والمواد المستعملة فى تشييدها وتاريخها . وأن عناصر هذا الطراز من المعابد قد ميز العمارة الدينية لانسان العراق القديم .

ومن خلال علم الآثار أيضا يمكن تتبع تطور عمارة المعبد خلال عصر مدنية الوركاء والعصور التالية . وكان هذا التطور ينصب على زيادة عدد المسطحات القام عليها المعبد وإضافة عدة افنية رئيسية داخل سور كبير تتقدم مدخل المعبد . ويسمى علماء الآثار هذه الهياكل المشيدة على المسطحات المرتفعة بعد تطورها باسم « زقورة » التى تعنى « القمة المرتفعة » .

ولقد تطورت عمارة الزقورة على مدى تاريخ العراق القديم .

المعبد الأبيض بالوركاء — أعمدته المزخرفة بالخرائط الفخارية الملونة — ودائع الاساسات .

ويتكون المعبد الأبيض من مقصورة رئيسية — بها مشكاة لحفظ تمثال الوثن تحوى مائدة قرابين ومذبح يجاوره موقد نصف دائرى . ويحيط بالمقصورة والحجرات الجانبية المتصلة بها ، سور مستطيل يزين سطحه الخارجى بمشكاوات

ولقد أقيم البناء كله بأكمله فوق تل صناعى محاط بسور من الطوب اللبن . شكل على هيئة دخلات وخرجات دعمت بفلوق النخل ، ويؤدى إلى سطح المعبد طريق صاعد ودرج طويل .

ويعتبر هذا البناء أصل الزقورة . التى تتميز بها العمارة العراقية القديمة .

والآن يجب أن يستقر فى أذهاننا أن هذا الوصف العلمى هو حصيلة دراسة علماء الآثار المتخصصين الذين قاموا بالكشف والدراسة والنشر العلمى لآثار العراق .

فالمهندس للعمارى المتخصص فى العمارة الدينية ، قدم لنا وصفاً لتخطيط المعبد وأجزائه للعمارية المختلفة ، والأسلوب الهندسى المتبع فى بنائه ، وكيفية بناء الأعمدة الدائرية والنصف دائرية التى تنتهى بها جدران الحوائط فى موضع آخر وكيف أن الفنان قد قام بزخرفة هذه الأعمدة بمخروطات فخارية ملونة أحياناً أخرى .

كما جاءت نتيجة الحفر لتبين لنا أن بناة للعابد السومرية كانوا يقومون بوضع ودائع فى أساسات للعبد . ومن هذه الودائع لوحات وتماثيل وإن كانت تحفظ فى صناديق من الطين المحروق . وعلى سبيل المثال تمثال من البرنز لحاكم سومرى يضع قصعة ملاط على رأسه . رمزاً لاشتراكه فى وضع أساسات بناء المعبد .

ويبقى أخيراً السؤال التقليدى عن الغاية من إنشاء هذه للعابد ، وماقيمة ذلك فى ضوء التصور الإسلامى . وهذا ما سنحاول الإجابة عليه فيما بعد إن شاء الله .

الأختام الأسطوانية :

وهى التى كانت تستخدم فى ختم سدادات الأوانى بعد ملئها بالمواد المراد نقلها من مكان إلى آخر ، وأحياناً أخرى تختم بها الخطابات وللستندات بعد غلقها . ولم تكن هذه الأختام مموهة باسم الشخص أو الهيئة كما هو فى عهدنا ، بل كانت منقوشة بموضوعات مختلفة بعضها دينية وبعضها دنيوية . وحينما قام للتخصصون فى

الآثار فى فرع الأختام بدراستها أمكن استخلاص نتائج هامة فيما يختص بأعياد الأوثان ، وصفات الحكام ، والأحداث العامة وكفاح الأفراد ضد أخطار البيئة . كما أفادت الدراسة فى معرفة أزياء العصر وصفات السكان العرقية وأنواع الحيوانات والنباتات التى كانت تستنبت حينئذ ، وذلك غير مصنوعات العصر المستعملة كما أفادت فى معرفة القواعد الفنية المتبعة فى نحت ونقش هذه الأختام .

ومن نقوش تلك الأختام مايمثل :

١ — واجهة معبد يجرى أمامها بعض الاحتفالات الدينية .

٢ — تمثيل بعض الحيوانات الخرافية بجسم أسد وعنق ثعبان .

٣ — مشرق الشمس .

٤ — بطل أسطورى يرفع أسدا تمهيداً لصرعه .

الأوانى الحجرية :

من الأشكال المدنية (وهى جميع الأشياء المادية التى يستعملها الإنسان فى حياته) التى عثر عليها بين مخلفات إنسان العراق القديم إناء من المرمر ارتفاعه ٩٠ سم . وقد قسم سطحه الخارجى إلى ثلاثة أقسام رسم فى الأول منها بعض النباتات والحيوانات وفى الأوسط منها حاملى القرابين وفى العلوى منها بعض الأشخاص يقدمون المأكولات إلى أوثانهم .

ولكن ماقيمة هذا الإناء من الناحية التاريخية أو الحضارية ؟

والإجابة على هذا السؤال يقدمها لنا علم الآثار فعلم الآثار هو الذى أتاح لنا العثور على ذلك الإناء نتيجة البحث والتنقيب كما أن للتخصصين فى فروع البحث الأثرى قد قاموا بدراسته ليقولوا لنا ان هذا الإناء منحوت من المرمر ، وأن الفنان العراقى قد اتبع قواعد معينة فى نقش الإناء وإن موضوعات النقش تبين لنا أن الصف الأول ممثل به نوع من الأغنام وسنابل قمح وأشجار نخيل . كما أنه يعكس لنا ملامح الشعب السومرى وملابسه والمصنوعات الشائعة — كما أنها تبين لنا أشكال أوثانهم ومايقدمونه لها لتؤكد لنا طبيعة الفكر الوثنى المنحرف ، ثم يجىء التسجيل

بالرسم والصورة والنشر العلمي ليحفظ لنا مايعطينا فكرة عن أحد جوانب مدنية وحضارة العراق القديم في عصر ماقبل الاسرات .

التماثيل :

التماثيل تمكن المؤرخ من معرفة ملامح الحكام والأشخاص الذين عاشوا في فترة معينة وأسمائهم والقابهم وملابسهم . كما أن القابهم تمكننا من معرفة المناصب والتنظيمات الإدارية الموجودة في ذلك الحين .

الآلات الموسيقية — رقعة لعب :

ومما عثر عليه بين مخلفات إنسان « أور » آلة موسيقية ورقعة لعب مما يعكس لنا صورة عن حياة المرح واللهو وتمضية أوقات الفراغ .

لوحة العقبان : (عصر بداية الاسرات السومرى ٣٠٠٠ ـ ٢٤٠٠ ق.م)

من بين ما كشف عنه معول الحفار ، لوحة من الحجر منقوشة الوجهين . وتحكى لنا هذه اللوحة أحد جوانب الصراع بين دويلة « لجش » بقيادة مليكها « آياناتم » ضد دويلة « اوما » بقيادة حاكمها « أوش » والأول قد حقق انتصاراً كبيراً ضد الثاني في هذا النزاع العسكرى على الأراضي الزراعية التي تقع على الحدود بين البلدين .

فعلى أحد وجهى هذه اللوحة يرى الملك « أياناتم » محاربا ومعه رمحه وقوسه وعصاه ، يركب عربته حينا وراجلا حيناً آخر والى جواره يشاهد المشاة متترسين بدروع كبيرة بينما صور آخرون بالحراب والبلط في أيديهم .

وفي موقع آخر من هذه اللوحة يرى بعض الجنود يحملون سلال التراب ليواروا إخوانهم الذين قتلوا في مقابرهم . بينما نرى جثث الاعداء وقد انهالت عليها العقبان والطيور لتنهشها .

وفي نهاية اللوحة يعكس لنا النقش الفكر الوثنى ، إذ يشاهد الحاكم

« أياناتم » وهو يقدم القرابين والشكر لمعبوده المصور على هيئة عجوز يقبض على شبكة تحوى ضحاياه ويرفع دبوس قتاله ليرهب به من تبقى من جنود العدو .

لوحة نارامسين (العصر الأكادى) : (٢٣٤ — ١٨٠ ق . م)

فى أعلى هذه اللوحة الحجرية يرى الملك نارامسين يقود جيشه لمهاجمة أحد حصون الأعداء فوق أحد التلال الذى يتساقط من سفحه الأعداء وإلى جواره يرى نافخ البوق وامامه يرى جبل عظيم يعلوه بعض الرموز .

هذا وصف سريع للنقش المنفذ على اللوحة . ولكن ماذا يمكن أن نستخلصه من هذه اللوحة ؟

إن المتخصصين فى فروع البحث الأثرى أمكنهم الوصول إلى النتائج الآتية نتيجة لدراسة هذه اللوحة :

١ — إن هذه اللوحة تخلد انتصار الملك « نارامسين » على بعض أعدائه .
٢ — إن الملك هو قائد جيشه الذى يتقدمه حاملو الألوية ونافخ البوق .
٣ — طبيعة تسليح الجيش وطبيعة التحصينات على سفوح التلال .
٤ — الصفات العرقية لأفراد الجيش وأزيائهم .
٥ — القواعد المتبعة فى تنفيذ هذا النقش الأكدى المتأثر بالفن السومرى .

نصب حمورابى دولة بابل الأولى :

فى عام ١٩٠١ — ١٩٠٢ كشفت أعمال حفائر البعثة الفرنسية فى صوصة عاصمة عيلام القديمة عن نصب من الحجر الديوريتى ارتفاعه سبعة أقدام وست بوصات وعرضه حوالى ثلاثة أقدام . وهو محفوظ بمتحف اللوفر بفرنسا وقد صور فى أعلاه حورابى أمام رب العدالة الممثل على هيئة شيخ ملتح جالس على كرسيه (نعوذ بالله من هذا التصوير : فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء) وذلك لتلقى الأمر بالسماح له بإصدار القوانين .

وأسفل هذا التصوير نجد نقشا عبارة عن نصوص القوانين التى كانت تطبق فى عهد حمورابى (١٧٢٨ ق . م) ومما لاشك فيه أن الدراسات الأثرية وترجمة النصوص المدونة على نصب حمورابى قد مكنت من التعرف على نوعية التشريعات التى كانت سائدة فى ذلك الوقت .

هذه التشريعات لها ملامح الإسلام ، فمنها مبدأ السن بالسن والعين بالعين ، وعقاب للمرأة الزانية بالقتل ، وحق الزوجة فى استرداد بائنتها حال طلاقها . .

ولما كان الله قد تعهد البشرية بالرسل يدعون إلى عبادة الله وحده ، ويطالبون البشرية بإخضاع حياتها لمنهج الله وشرعته : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

فإن من الغريب أن علماء الآثار الغير المسلمين ، حاولوا أن يطمسوا هذه الملامح الإسلامية : وذهبوا إلى أبعد من ذلك نكاية فى الأمة المسلمة ودينها فقالوا: « هذه التشريعات هى حصيلة الفكر البشرى نتيجة لتطوره وترقيه ، وإن التشريعات التى نزلت بها التوراة ومن بعدها القرآن ماهى إلا صدى وإنعكاس للتشريعات التى اخترعها الفكر البشرى . لكى يصلوا فى النهاية إلى القول بان رسل الله ليسوا حملة رسالة من عند الله . ولكنهم مؤسسو دين من اختراعهم وتأليفهم ، وأن التوراة والإنجيل (الغير المحرفة) والقرآن هى حصيلة الفكر البشرى [١] .

وهذا زيف وبهتان « إنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً » وسنفند هذه المزاعم التى تحاول طمس خط التوحيد الظاهر فى حياة البشرية فى وقت آخر إن شاء الله .

نظرة إسلامية على ماخلفه العراقيون من آثار :

تلك النماذج المختارة من آثار العراق القديم تحكى لنا قصة الحياة الإنسانية

---

(١) Saqqs The greatnesr that was Babylan.

التى نمت وترعرعت على ضفاف دجلة والفرات . . تلك الآثار تروى لنا قصة حياة للملوك الجبابرة أمثال سناخريب وآشور بانيبال وأسرهدون ونبوخذ نصر وغيرهم من الذين اعتدوا على سلطان الله فى الأرض ، وعاثوا فى الأرض فسادا يقتلون ويسلبون فى سبيل مد سلطانهم على غيرهم ومقدرات غيرهم من بنى البشر .

أما أطلال قصور القوم فتذكرنا بمجتمع شرد بعضهم عن الهدى الإلهى فى فترات عديدة على مدار تاريخ البشرية فأرسل الله عليهم الطوفان وغيره من ألوان العذاب عقاباً لهم على عدم توحيدهم لله سبحانه وتعالى بلا شريك بعد أن أنذرهم وأعذرهم بإرسال نوح وإبراهيم وغيرهم عليهم صلوات الله وسلامه يبلغون رسالات الله . ويطلبون من البشرية أن تكون وجهتهم وعبادتهم خالصة لله الواحد القهار .

إن دراسة هذه الآثار وفيها مصارع القوم توقف البشرية أمام نفس المصير إن هى أشركت بالله الواحد الأحد . . ورفضت منهاج الله وشريعته .

إن تأمل تلك الآثار يوقفنا على عدة حقائق هامة وضرورية من الواجب على البشرية أن تدركها :

١ — إن من ثمرات الإيمان فتح بركات الله على المؤمنين من السماء والأرض « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

٢ — إن الشرك يؤدى بصاحبه إلى حالة من الضياع القاتل « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

٣ — إن المشرك لا يأمن على نفسه أبداً من بأس الله . . الذى يمكن أن يحل به كما حل بغيره من بنى البشر .

« أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم

الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد اهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم و نطبع على قلوبهم فهم لايسمعون » . (الأعراف)

وماجرى على غيرنا يمكن أن يجرى علينا إذا نحن لم نحدد موقفنا و نعود إلى الله نعبده وحده بلا شريك . . إذ أنه هو المعبود وحده وهو الخالق وحده وهو الرازق وحده . . وهو المنفرد وحده بكل صفات الجلال والكمال . . . فسنة الله لاتتغير ووعده لايتخلف . .

« وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . وقوم إبراهيم وقوم لوط . وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير . فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ».
(الحج ٤٢ — ٤٦)

الفصل السابع

الآثار الاسلامية فى العالم

تمهيـــد :

ومما لا شك فيه أن المسلمين كان لهم السبق فى تجميع الآثار ووضعها فى متحف أثرى بدليل المتحف الذى انشأه الخليفة الفاطمى للمستنصر بالله بالقاهرة فى القرن الخامس الهجرى بينما لم يعرف الغرب المتاحف إلا فى القرن العاشر الهجرى .

وفى وقت من الأوقات ، لم يكن للآثار الإسلامية شأن يذكر ، ولم يكن لها مكان بين غيرها من آثار الآشوريين والفراعنة واليونان والرومان والساسان والبيزنطيين ، وذلك لأن معرفة الناس والعلماء بالحضارة الإسلامية ومدنيتها لم تكن تتعدى ماسجلته كتب التاريخ حتى بداية القرن الثالث عشر الهجرى . حينما أقام مزيد من العلماء بدراسة الآثار الاسلامية الثابتة كالمساجد والقلاع والقصور وغيرها وكذلك الآثار المنقولة (كالمصنوعات الزجاجية أو الخزفية أو الخشبية أو الطنافس والمنسوجات) وذلك غير البحث والتنقيب وإخراج الكثير من الآثار الاسلامية مع النشر العلمى الذى مكننا من الوقوف على مكانة الفن الاسلامى بين الفنون واظهار معالم المدنيات التى أقامها المسلمون أيام عظمتهم ، بينما نحن لا نكاد نعرفها أو نحس بقيمتها .

وكما يقول أحد المؤرخين أنه « لا يستقيم فهم الآثار الاسلامية قبل معرفة الخطوط الرئيسية للتاريخ الاسلامى ، لأن فى ضوئه يمكن معرفة الظروف المختلفة التى أحاطت بانشاء وصناعة الآثار ، كما أن التاريخ يمكن أن يمدنا بوصف الآثار التى اندثرت معالمها .

وأول معالم التاريخ الاسلامى ، تاريخ النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ويقسم المؤرخون تاريخ الدعوة إلى ثلاث مراحل : الأولى قبل بعث محمد صلى الله عليه وسلم والثانية قبل هجرته والثالثة بعد هجرته .

وسنخص بالحديث المرحلة الثالثة أى بعد أن وجدت الدعوة الاسلامية بقيادة محمد صلى الله عليه وسلم أرضا تنطلق منها وهى أرض يثرب (المدينة) .

ولقد استقر المسلمون فى وطنهم الجديد وكان ذلك إيذانا بمولد الدولة الاسلامية التى استكملت أهم مظاهرها حينما اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم وله ولأصحابه مسجدا ليقيموا فيه شعائر الدين الاسلامى الحنيف . وللتشاور فى أمور الدنيا والاعداد للآخرة ، ولتربية الأفراد المسلمين اللبنات الصالحة والضرورية لبناء المجتمع المسلم .

ولقد حفظت كتب التاريخ وصف ذلك المسجد الذى عمل فيه الرسول الكريم بيديه ، ويترجم فى بساطة عن بساطة الاسلام :

« بناء مربع الشكل ، بنيت جدرانه من اللبن وكانت قبلة المصلين فيه تجاه بيت المقدس ، وكان يظلل الجزء الموجود فيه القبلة ظلة من جريد النخل المغطى بالطين ، والتى تستند على أعمدة من جذوع النخل . وعندما تحولت القبلة إلى الجنوب تجاه الكعبة انشئت سقيفة شبيهة بالظلة السابقة ، وتركت الأولى ليستظل بها مسلمو المدينة ، وبذلك اصبح للمسجد جزء مكشوف فى الوسط هو الصحن . وفيما بعد تم وصل ما بين هاتين السقيفتين بظلتين أحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا طال وقوفه أثناء خطبه ، كان يستند إلى جذع النخل ، ثم بنى له منبر من الخشب ذو ثلاث درجات .

وعلى كل فإن هذا البناء البسيط كان النواة للمساجد العظيمة التى يغص بها العالم اليوم .

وبعد ذلك تطورت المساجد فى بنائها وأثاثها . فاستخدم الحجر والرخام فى بنائها وإقامة أعمدتها ، وأعدت المحاريب الجميلة والمنابر العظيمة ، وتدلت منها الثريات النحاسية والزجاجية ، وكست أرضيتها الطنافس الجميلة بعد أن كانت مفروشة بالحصى أو الحصير .

لقد أصبحت الأمة الإسلامية فى المدينة ، تدين بدين واحد هو الإسلام وينتظمها حزب واحد هو حزب الرحمن ، ويقودها قائد واحد هو الرسول الأمين وخرجت هذه الأمة لتدك معاقل الوثنية فى كل مكان ، فطهرت الكعبة من الأصنام وأحس العرب والناس جميعاً أن الإسلام صار قوة يحسب حسابها ويخشى بأسها وحينذاك بدأ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا .

ومات النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وبعد أن ترك النواة لخير أمة أخرجت للناس .

وخلفه أبو بكر ثم عمر رضى الله عنهما واستمر المسلمون يبلغون رسالة الإسلام وينشرون دين الله فى الأرض ويدكون صروح الظلم والطغيان ويعيدون الناس لربهم الحق ويقيمون منهج الله وشريعته فى حياة البشر ، فسقط طغاة الفرس والروم ، وانهارت الدولة الساسانية ، وفقدت دولة الروم معظم أملاكها فى بلاد الشام ومصر وغيرها .

ولقد أبقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النظم الإدارية التى وجدها المسلمون فى البلاد التى فتحوها مع إصلاح مافيها من فساد وتقويم مافيها من أعوجاج ، وذلك غير تغيير مااستدعاه حفظ كيان المسلمين . ولقد كسب الإسلام من وراء هذه السياسة الحكيمة مايأتى :

١ — انتشار الإسلام الذى استتبعه انتشار اللغة العربية للتفقه فى الدين نتيجة حرص للمسلمين على تعلم اللغة العربية . وقد أدى اتحاد عنصرى اللغة والدين إلى تعريب البلاد المفتوحة .

ومع نشوء جيل ينسب نفسه للإسلام ازداد انتشار الخط العربى الذى اتخذ

أداة لرسم حروف لغات الأمم التى آثرت الاحتفاظ بلغتها فى ظل الاسلام فكتبت به اللغة الايرانية والهندية (والآردية) والتركية وغيرها .

٢ — حينما فتح المسلمون الكثير من البلاد تعلموا صناعاتها وحذقوها ولم يتجمدوا عندها بل طوروها وارتقوا بها وساروا بها إلى الامام خطوات واسعة ، وذلك غير التقدم الذى أحرزوه فى مجال الزراعة والتجارة .

٣ — أوجد المسلمون فناً رائعاً ، لعب دوره فى الفنون التى عاصرته أو أتت بعده ، كما شمل المسلمون رجال الفن فى البلاد التى فتحوها برعايتهم كما استخدموهم فى الأعمال التى تتصل بفنهم ، ولما اكتملت الملكة الفنية لدى المسلمين ، مزجوا بين عناصر الفنون التى عرفوها وصهروها فى بوتقتهم ليخرجوا منها فنا جديداً تبدو فيه الشخصية الاسلامية القوية الواضحة .

وبالاضافة إلى ذلك فإن الفتوحات الاسلامية ، ارتبطت بها نهضة عمرانية واسعة النطاق . فقد أنشئت الأمصار فى البلاد التى وسعتها سماحة الاسلام ، فبنيت البصرة[١] سنة ١٤ هـ ، وأقيمت الكوفة[١] سنة ١٧ هـ وشيدت الفسطاط[٢] عام ٢٠ هـ ، وكان من الطبيعى أن تكون نواة هذه الأمصار المسجد ، ففيه تبرم أمور الدين والدنيا . والذى يسترعى النظر بالنسبة لبناء المسجد هو ارتكاز السقيفة على أعمدة رخامية نقلت من أبنية قديمة وهذه فى حد ذاتها ظاهرة معمارية جديدة بالنسبة للمسلمين . ولكن المسلمين ، لم يقتصروا فى سكنهم على الأمصار بل كانوا يسكنون المدن القديمة وكانوا يحولون بعض معابدها [٣] وكنائسها إلى مساجد بعد الاتفاق مع أصحابها .

ولقد كان المسلمون على وعى وعلم وسعة أفق جعلتهم يأخذون من العناصر المعمارية التى شاهدوها ما يتفق مع دينهم وشعائرهم ، لينفذوها فى مساجدهم ،

---

(١) بالعراق
(٢) بمصر .
(٣) مثال ذلك المسجد الجامع بمدينة حماة والمسجد الأموى بدمشق .

ومثال ذلك للمئذنة التى أخذها المسلمون عن الصوامع المربعة الشكل التى كانت قائمة فى الزوايا الأربع لسور معبد دمشق القديم . وترتفع قليلا عن مستواه ولذلك بعد أن وجدوا فى هذه الصوامع مكانا مناسبا يمكن أن يدعى منه المسلمون للصلاة فاستخدموها لهذا الغرض .

وانتهت خلافة عمر ثم عثمان اللذين امتدت فى عهدهما الدولة الاسلامية [١] امتدادا كبيرا ، وأعقبهما على بن أبى طالب [٢] وبموته ينتهى عصر الخلافة الراشدة ، والتى غلب على أصحابها الزهد والتقشف مع القدرة على التمتع . سيرا على منهج رب العباد وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم يأتى بعد ذلك عصر الدولة الأموية الشرقية [٣] (٤١ – ١٣٢ ق . م .) واتسعت الدولة الإسلامية إذ وصل المسلمون حوض نهر السند ، وأقاليم ما وراء النهر بين سيحون وجيحون ووصلوا إلى وسط آسيا ، وزحف الاسلام إلى الصين . كما اتجه المسلمون غربا ففتحوا مصر وشمال افريقية واتجهوا منها إلى الاندلس ، وبذلك ارتفع النداء « الله أكبر » فى جنبات رقعة من الأرض تمتد من المحيط الاطلسى غربا إلى آسيا الصغرى والهند شرقا .

ومن الامصار التى انشئت فى هذه الفترة القيروان فى تونس (سنة ٥٠ هـ على يد عقبة بن نافع) وواسط فى العراق (سنة ٨٣ هـ) .

ويرتبط بهذا العصر اقبال المسلمين على الحياة المدنية وتعريب الدواوين فى عهد الوليد بن عبد الملك .

وبعد سقوط الخلافة الأموية ، تسلمت الخلافة العباسية [٤] (٥٠٠ عام) شعلة الحضارة الإسلامية .

(١) كانت عاصمتها بالمدينة المنورة .
(٢) كانت العاصمة فى الكوفة .
(٣) كانت عاصمتها فى دمشق .
(٤) كانت العاصمة فى الكوفة ثم الهاشمية ثم بغداد .

ويقترن بهذا العصر الانقلاب الذى طرأ على الحياة الاجتماعية والفنية للمسلمين الذين بدءوا يقلدون الحياة الفارسية . واندفعوا يصيبون الكثير من أسباب الترف والمتعة والدعة . فتفننوا فى إعداد موائد الطعام ، وارتدوا فاخر الثياب ، وغيرها ، وقد ترتب على ذلك تفنن فى ابتداع السلع التى تستلزمها هذه الحياة الجديدة من ملابس وحلى وكئوس وأوان .

وفى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ م) أنشئت مدينة « سر من رأى » أو « سامراء » على الضفة الشرقية لنهر دجلة إلى الشمال الغربى من بغداد ، وقد ظلت مدينة « سرمن رأى » عاصمة الدولة العباسية فترة من الزمن (٥٥ سنة) حتى ٥٨٩ حينما أعاد الخليفة المعتضد العاصمة إلى بغداد .

وفى عام ٦٥٦ هـ أجهز المغول على الخلافة العباسية فى بغداد بعد أن تدهور سلطانها السياسى وتسلطت عليها الكثير من القوى وانفصلت عنها الكثير من الدويلات التى كونت أمارات مستقلة ، والسبب واضح : بعد عن منهج الله ، وضعف شخصية الخلفاء العباسيين ، واستيقاظ روح القومية .

ومن الأقاليم التى انفصلت عن الدولة العباسية ، وتكونت فيها دويلات إسلامية مستقلة :

فى المغرب كانت :

الأندلس : حيث نجح عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الملقب بالداخل فى تأسيس دولة ولم يكن قد مضى ستة أعوام على تأسيس الخلافة العباسية .

مراكش : وقد تمكن إدريس بن عبد الله من سلالة الحسن من تأسيس إمارة فى مراكش عرفت باسم دولة الأوارسة وكان ذلك فى عهد الرشيد .

تونس : وقد حكمها إبرهيم بن الأغلب بموافقة هارون الرشيد الذى منحها استقلالا ذاتياً عام ١٨٤ .

مصر : وقد حكمها أحمد بن طولون بعد مجيئه إليها عام ٢٥٤ هـ .

وفى عام ٢٦٤ﻫ استولى ابن طولون على بلاد الشام بعد موت أميرها متخذا من ثغر عكا قاعدة لاسطوله البحرى . وقد بنى مدينة القطائع فى مصر وشيد فيها مسجده الذى لايزال باقيا إلى اليوم .

وفى عهد شيبان بن أحمد بن طولون . عادت مصر إلى حوزة الدولة العباسية مرة أخرى .

وفى عام ٣٢٣ ﻫ قامت فى مصر دولة الاخشيدين التى أسسها محمد بن طغج الأخشيد ، والذى استطاع أن يضم إليها بلاد الشام و بلاد الحجاز .

وفى عام ٣٩٨ ﻫ خلف الفاطميون الأخشيديين فى حكم مصر ، بعد أن أقاموا دولتهم على أنقاض دولة الأغالبة فى شمال أفرقيا عام ٢٩٧ ﻫ وقد اتخذ المعز لدين الله مصر عاصمة له منذ عام ٣٦٢ ﻫ وقد ضم إليها بلاد الشام .

وفى عام ٥٦٧ﻫ انهارت الدولة الفاطمية وقامت على أنقاضها الدولة الأيوبية .

شمال العراق : وقد أسس فيها الحمدانيون (سلالة حمدان بن حمدون ومنهم سيف الدين الحمدانى) إمارة منذ عام ٢٩٢ ﻫ .

فقد أسس طاهر بن الحسين سنة ٢٠٥ ﻫ دولة الطاهريين فى خراسان وقد امتدت حدودها حتى بلاد الهند . وفى عام ٢٥٩ ﻫ ضمت إلى دولة الصفاريين التى أسسها يعقوب بن الليث الصفار فى سجستان . وفى عام ٢٩٧ ﻫ ضمت الدولة الصفارية إلى دولة السامانيين التى أسسها إسماعيل بن أحمد السامانى عام ٢٧٩ ﻫ . وقد شملت دولة السامانيين التى كانت عاصمتها فى بخارى وكرمان وجرجان والراى وطبرستان وخراسان و بلاد ماوراء النهر .

دولة الغزنويين جنوب شرقى خراسان التى قامت منذ عام ٣٥٢ ﻫ على يد البتكين من الموالى الأتراك . وقد شملت اقليم البنجاب وجزءا من السند والراى وأصبهان .

فارس : دولة البويهيين فى فارس وقد قامت منذ عام ٣٢٣ ﻫ . واعترف

بسلطانهم الخليفة العباسى لراضى (٣٢٢هـ ـ ٣٢٩ هـ) وقد ضمت إليها فيما بعد اصبهان والراى وهمذان وبقية بلاد العراق بما فيها بغداد . وقد انتهت دولة البويهيين على يد طغرل بك السلجوقى الذى دخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، وخلصت الخلافة العباسية فى عهد القائم بأمر الله لحكم البويهيين . وقد اخذ سلطان السلاجقة يتضاءل على بغداد حتى انتهى عام ٥٩٠ هـ فى عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) .

ويقال أن الناصر لدين الله قد استعان بجنكيز خان (ولد عام ٥٤٩ هـ) زعيم التتار ضد الشاهات[١] .

الغزو الخارجى لبلاد المسلمين :

وفى هذه الظروف القاسية التى تفتتت فيها وحدة الدولة الإسلامية ، لا نعجب إذا ما عرفنا أن أوربا الصليبية قد حشدت هى الأخرى جيوشها منذ أواخر القرن الخامس للاستيلاء على بلاد المسلمين . وقد نجحوا فى ذلك إذ أنه منذ عام ٥٠٢ هـ كانت هنالك أربع إمارات صليبية هى الرها وانطاكية وطرابلس تابعة لبيت المقدس التى وقعت تحت الحكم الأوروبى .

ولاشك فى أن مسئولية تلك المصيبة تقع على عاتق الدولة العباسية فى بغداد ودولة الفاطميين فى مصر الذين تقعد حكامها عن الجهاد حتى وطد الصليبيون أقدامهم فى بلاد المسلمين . وتطلب اجلاؤهم عنها مجهودا كبيرا ووقتا طويلا من ابطال الإسلام الذين كرسوا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله أمثال عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب (٥٦٤ ـ ٥٨٩ هـ) ومن جاء بعدهم من المماليك .

ولقد نجح المماليك بقيادة سلطان الدين قطز فى حماية الدولة الإسلامية

(١)وقد اجتاحت جموع التتار خوارزم شاه عام٦١٦هـ ، وواصلت مسيرتها حتى بخارى التى اتخذ جنكيز خان من مساجدها مرابض لخيله ، وكذلك فعل ببخارى عام ٦١٧ هـ . وبعد ذلك استولى التتار على فارس ثم بلاد العراق عام ٦٥٦ هـ على يد زعيمهم هولاكو .

من شر المغول فى معركة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ . ولم تقتصر جهود المماليك على صد غارات المغول على بلاد الشام ومنعهم من الوصول إلى مصر بل أرغموا من بقى من الصليبيين بالشام بعد انتهاء الدولة الأيوبية على الجلاء عنها ، وكان ذلك فى عهد الاشراف خليل بن المنصور قلاوون الذى قضى على آخر معقل للصليبيين فى عام ٩٦٠ هـ .

نشأة الدولة العثمانية وتوسعها :

وينسب تأسيسها فى آسيا الصغرى على الحدود بين آسيا الصغرى والدولة البيزنطية إلى عثمان زعيم إحدى القبائل التركية التى نزحت من بلاد التركستان . وقد امتدت لتشمل معظم آسيا الصغرى وجزء كبير من جزيرة البلقان حتى نهر الدنوب . وقد أصبحت القسطنطينية عاصمة لها فى عهد فاتحها السلطان محمد عام ١٤٥٣ هـ .

وقد حمل العثمانيون لواء الجهاد الإسلامى ضد أوروبا وأصبحوا أقوى دولة فى الشرق الإسلامى . بعد أن ضمت إليهم بلاد الشام ومصر والحجاز فى عهد السلطان سليم الأول فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى .

* * *

الفنون الإسلامية التى تعكسها الآثار الإسلامية :

نشأتها وعوامل نضوجها :

لقد خرج المسلمون من صحراء شبه الجزيرة العربية متجهين شرقا وغربا ، ينشدون كلمة التوحيد ، ويعبدون الناس لربهم الحق ، ويخضعون حياتهم لتشريعات الإسلام وسماحتها ، فرفعتهم من السفح الهابط إلى القمة السامقة .

وفى هذه البلاد التى دخلها الإسلام ، تفتحت أعين للمسلمين على كثير من

وكان الشرق تتقاسمه ثلاث دول إسلامية : الدولة العثمانيه وعاصمتها القسطنطينية ، الدولة للصفوية وعاصمتها تبريز ، ودولة المماليك وعاصمتها القاهرة .

النظم والمدنيات التى كانت سائدة بين هذه الأمم قبل أن تدين بالإسلام ، فأبقت عليها وتبنتها طالما لا تتعارض مع الحضارة الاسلامية .

ولقد ترتب على اتساع الفتوحات الإسلامية ، تدفق الثروات على المسلمين . وكان فى الامكان أن يندفع المسلمون على جوانب الحياة ، ينعمون بها ويتلذذون بترفها ، ولكن أبو بكر وعمر كبحا جماحهم . وذلك بالإضافة إلى كونهم تلك الصفوة المختارة التى تربت على يدى رسول الله على مائدة القرآن ، فكان أغلبها زاهدا فى الحياة رغم مقدرته على التمتع بها .

ثم جاء عهد خلافة عثمان بن عفان ، وكان حييا لينا ، فافلت الزمام من يده ، وزاد تأثير البيئات الجديدة فى نفوس المسلمين ، فحرصوا على التأنق فى الملبس والمسكن، وبدأت تختفى تلك المساكن البدائية البسيطة ليحل محلها القصور المنمقة والمزودة بالأثاث الفخم ، ثم أحس الناس الفارق بين المسكن والمسجد وما ينبغى له من جلال ووقار وخاصة إذا ما قورن بالكنيسة الجميلة التى شوهدت فى البلاد التى شملها عظمة الإسلام .

لذلك فقد قام المسلمون بتشييدها وتنميتها ، وكان أول مسجد يلبس هذا الثوب الجميل ، مسجد المدينة الذى اعاد الخليفة عثمان بن عفان بناءه بالحجارة والجص ، ورفع سقفه (من خشب الساج) على أعمدة من الرخام . أى أنه أصبح أثرا فنيا ترتاح له العين ، ولذلك يقال إن الفن الإسلامى قد ولد على يدى عثمان ابن عفان .

وفى العصر الأموى ازدادت عناية المسلمين بهذه الجوانب ، مستعينين بخبرة رجال الصناعة والفنيين فى البلاد التى طهروها من رجس الشرك والوثنية .

وعلى الجانب الآخر وجد هؤلاء الفنانون والصناع تقديرا لأعمالهم ، سواء أكانت تحفا منقولة أو أبنية قائمة تتحلى بزخارف الفن البيزنطى فى الشام ومصر وبلاد المغرب ،وبزخارف الفن الساسانى فى العراق وإيران ، أو بكلا الفنيين إذا اشترك فى الاعداد فنانون وصناع من بيزنطة وإيران كما تعكسها لنا آثار بلاد

الشام ، حيث نجد أن خليط العناصر الزخرفية لم يمتزج امتزاجا تاما . أى أن الفن الإسلامى الذى كان يتجلى فى الآثار الإسلامية كان لا يزال وليدا يحبو .

وجاء العصر العباسى ، وازداد تقدم المسلمين ، وهو مايعكسه لنا انشاء بغداد التى خططت على نمط جديد ، وكذلك زخارف مدينة سامراء التى كشف الحفائر الأثرية على طابع طرزها الخاصة التى انتشرت فى العالم الإسلامى .

ولما ضعفت الدولة العباسية ، بدأ الفن العباسى أو فن سامراء يترك مكانه للفنون المحلية فى زخرفة العمائر والتحف مما أعطى الفرصة للفنون المحلية أن تتطور وتنضج اعتمادا على ما ورثته من تقاليد فنية قديمة . وذلك بالإضافة إلى ما أتى به المسلمون من موضوعات زخرفية أخرى . ونتيجة لذلك أصبح لدينا طرز إسلامية شتى تختلف فى مظهرها تبعا للوطن الذى نشأت فيه وتتفق فى كون الروح الإسلامية فيها ، فهناك الطراز المغربى (١) والطراز الاندلسى(٢) والطراز المصرى (٣) والطراز السلجوقى (٤) ، والطراز العثمانى(٥) والطراز الايرانى (٦) والطراز الهندى (٧) .

ولقد كان الدين الإسلامى بما يتضمنه من النظم والتوجيهات الآتية أكبر معاون على نشأة ونضوج الفن الإسلامى .

---

(١) نشأت فى القرن السادس فى عهد دولة الموحدين وبلغ غاية ازدهاره فى القرن الثامن الهجرى فى المغرب والاندلس .

(٢) وقد تبلورت شخصيته منذ القرن الثانى حتى القرن الخامس الهجرى فى الاندلس (أسبانيا — والبرتغال) .

(٣) ويشمل على سبيل المثال الطراز الفاطمى الذى ازدهر فى القرن الرابع الهجرى فى مصر وكذلك الطراز المملوكى الذى ازدهر بين القرنين السابع والعاشر الهجرى .

(٤) وقد ازدهر عند القرن الخامس حتى نهاية السابع الهجرى .

(٥) وقد ازدهر منذ القرن العاشر إلى الثانى عشر الهجرى وعلى الأخص بلاد آسيا الصغرى (تركيا) .

(٦) ومنه الصفوى الذى ازدهر فى ايران فيما بين القرن العاشر والثانى عشر الهجرى .

(٧) وقد ازدهر فى الهند منذ القرن العاشر .

ومن الطرز الأخرى : الطراز الأموى والعباسى والمغولى .

١ — الحج : وهو أحد الأركان الخمسة ، أعطى الفرصة لاجتماع للسلمين من جميع أنحاء العالم فى مكة ، يرون فيها منتجات العالم المختلفة من قماش وخزف وخشب ومعادن وزجاج وعاج وغيرها ، فيتبادلونها ، كما يتم التشاور بين رجال الصناعة فيما يختص صناعاتهم وتطويرها ، وإذا ماعاد هؤلاء ومايحملون من منتجات وخبرات جديدة اكتسبوها ، يتم التأثير فى مصنوعاتهم المحلية .

٢ — الوقف : وقد نشأ هذا النظام فى الإسلام إستناداً إلى أحاديث (١) أثرت عن النبى صلى الله عليه وسلم .

ومنذ عهد عمر ونظام الوقف مستمر . وقد اتسعت أغراضه حتى شملت معظم نواحى الإصلاح الإجتماعى ، فحسب الأعيان على المساجد وللدارس والبيمارستانات وعلى للساكن وعلى الذين وهبوا حياتهم للعلم أو الدين .

وأهمية هذا النظام تتلخص فى أن أول قواعده وأهمها هى عمارة الأعيان المحبوسة لضمان بقائها ودوام إستغلالها ، حققت الحفاظ على روائع العمائر والتحف الإسلامية ، كما أن الوقفيات حوت اصطلاحات فنية ووصفاً دقيقا لهذه العمائر ، التى أتت عليها عوادى الزمن ، بالإضافة إلى ذلك فقد ضمن ذلك نشاط الصناع والفنانين كما ضمن حركة تطور فى الفنون المختلفة . فلولا هذه الأموال التى أوقفت على العناية بالمنشآت لضاع هذا التراث الإسلامى العظيم .

٣ — الحسبة : لكى يستقيم أمر الجماعة المسلمة ، لابد من وجود سلطة تلزم كل إنسان حده ولاتدع مجالا للعبث بمصالح المجتمع المسلم إرضاء لشهوة جامحة أو نزوة طارئة ، وهذه السلطة هى « الحسبة » التى أوجدها الإسلام (٢) .

وقوام أعمال المحتسب جميع مايتصل بشئون الناس من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصاب أرضا بخيبر فأتى النبى يستأمره فيها ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن شئت حبست أصلها وتصدقت بريعها » .
(٢) إستناداً لآيات قرآنيه (نهاية الرتبه فى طلب الحسبه : لعبد الرحمن بن نصر) .

ومايهم منها أنها تدخلت فى جميع شئون الصناعات ، ووضعت للصناع النهج السوى الذى يمكن أن يسلكوه . فالنساج والنجار والخزاف والوراق وغيرهم من أصحاب الحرف والمهن عليهم أن يتبعوا منهجاً خاصاً موضوعا لهم ، حتى يأمنوا عقاب المحتسب فى الدنيا وغضب الله فى الآخرة .

وطبيعة هذا النهج إتقان العمل والإخلاص فيه وتجنب الغش والتدليس ولقد كان لهذا النظام أثر كبير فى رفع مستوى الإنتاج الصناعى وتحسينه ، كما أن هذه الصناعات قد حظيت بفضل اشراف المحتسب خطوات واسعة فى سبيل الرقى حتى بلغت الغاية القصوى فوصلت إلى مستوى الفن الجميل .

٤ — موقف الإسلام من استعمال الأوانى المصنوعة الذهب أو الفضة ومن لبس الحرير .

أما فيما يختص باستعمال الذهب والفضة فقد ورد التحريم فيها صريحا فى الأحاديث النبوية (١) .

وقد كان هـذا التحريم من العوامل المساعدة على ابتداع الخزف المعروف

(١) مثال ذلك : لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها فانها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة (البخارى).

عن على كرم الله وجهه قال : أخذ النبى صلى الله عليه وسلم حريرا فجعله فى يمينه ، وأخذ ذهبا فجعله فى شماله ، ثم قال : (إن هذين حرام على ذكور أمتى) وعن عمر قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « لاتلبسوا الحرير فان من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » .

وقال صلى الله عليه وسلم فى حلة من الحرير : « إنما هذه لباس من لاأخلاق لهم » ورأى خاتما من ذهب فى يد رجل ، فنزعه وطرحه ، وقال : « يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها فى يده » فقيل للرجل بعد ماذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ خاتمك أنتفع به . قال : لا والله ، لا آخذه وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومثل الخاتم ماتراه عند المترفين من قلم الذهب ، ساعه الذهب ، قداحه « ولاعه » الذهب علبه الذهب للسجاير والفم المذهب . . الخ (أنظر يوسف القرضاوى : الحلال والحرام فى الاسلام ، الطبعه السادسه ١٣٩٢ بيروت ص ٨٠ – ٨١) .

باسم الخزف ذى البريق للعدنى وهو نوع من الخزف عالجه الخزاف المسلم بوسائل صناعية واستطاع أن يخرج منه أوانى لها بريق الذهب والفضة وفيها جمال الإخراج والصنعة ، وقد انتشرت صناعته فى العالم الإسلامى .

كما أن هذا التحريم قد أدى إلى ابتكار طريقة جديدة فى الصناعة وهى تطعيم الأوانى المصنوعة من النحاس أو البرنز بالذهب والفضة ، مما مكن الفنان من إخراج أوان أجمل وأعظم .

أما الحرير فقد وقف الاسلام من استعماله موقفا كان من شأنه أن يؤدى إلى تقدم صناعة الحرير على أيدى المسلمين . فالاسلام لم يحرم استعمال الملابس الحريرية ولكنه نظم استعمالها فقد أباحها للنساء دون قيد أو شرط وأجاز للرجال استعمالها عند الضرورة ، كما رخص أيضاً فى ارتداء الثوب إذا كان به من الحرير قدر أصبعين أو أربعة أصابع ، ولقد أدت الرخصة الأخيرة إلى ظهور طريقة مبتكرة فى زخرفة المنسوجات تعرف بطريقة التابسترى .

٥ — موقف الاسلام من فنون الخط والزخرفة :

لقد شمل الاسلام الخط برعايته . ورغب إلى الفنان نوعين من الزخرفة .

وحينما شمل الاسلام الخط برعايته ، فذلك لأنه وثيق الصلة بالعقيدة فقد أقسم به الله فى كتابه الكريم : « ن والقلم ومايسطرون » (سورة القلم) « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » (سورة العلق) .

وقد دفع هذا التكريم الإلهى الفنان المسلم إلى تزيين ماشيده من العمائر وما أخرجوه من المصنوعات بالآيات القرآنية والعبارات الدينية وبصيغ المدح والثناء . وأصبح الخط قاسما مشتركا فى جميع فروع الفن الاسلامى : فنراه على الخشب وعلى العاج والزجاج وعلى الطنافس والأقمشة وجدران المساجد والقصور وللخط العربى سبع صور :

(ا) النسخ	(ب) الكوفى
(ج) الثلث	(د) التعليق (الفارسى)

(هـ) النستعليق　　　(و) الرقعة

(ز) الديوانى

أما الزخارف ، فقد حبب الإسلام إلى الفنان الزخارف[1] النباتية والهندسية ومن أبرز هـذا النوع من الزخارف الذى يتجلى فيه جمال الفن الإسلامى ، الزخرفة المعروفة باسم للقرنصات التى تستمد أصلها من الكوه Niche التى تقام فوق الزوايا الأربع لغرفة مربعة يراد تسقيفها بالقبة والتى بواسطتها يستطيع البناء أن يوجد سطحاً يمكن للقبة أن تستقر عليه . وقد واصل الفنان المسلم يعدل فى شكل هذه « الكوة » ويعقد فى مظهرها فقسمها إلى كوى صغيرة متعددة تفنن فى وضعها وتنسيقها وتزيينها حتى بدت قطعاً من الفن الجميل ولكن استعمال هذه الزخرفة لم يقف عند حد استعمالها تحت القباب بل اتخذوا منها وسيلة لتزيين الأبنية فى مواضع مختلفة .

ومن الزخارف النباتية التى ابتدعها الفنان المسلم ، الأرابسك أو التوريق أو الرقش .

٦ — موقف الإسلام من النحت والتصوير :

وكما أوردنا فإن الإسلام لم يشجع على نحت التماثيل ، فالله عز وجل يقول : « إنما الخمر والميسر والأنصاب [1] والازلام رجس من عمل الشيطان

(١) روى فى صحيح البخارى عن سعيد بن الحسن حديث عن النبى جاء فيه « كنت عند ابن عباس رضى الله عنهما إذ أتاه رجل فقال ياابن عباس إنى إنسان إنما أعيش من صنعه يدى ، وإنى أصنع هذه التصاوير ، فقال ابن عباس لا أحدثك إلاماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، سمعته يقول من صور صورة فان الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً ، فربا الرجل ربوة وأصفر فقال ويحك إن أبيت ألا تصنع فعليك بهذا الشجر ، وكل شىء ليس فيه روح (رواه البخارى) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لاتدخل بيتا فيه تماثيل (أو تصاوير) .

فاجتنبوه » كما فصلت الأحاديث النبوية القول فى هذا الأمر ، فبينت اثم من يصنع هذه التماثيل .

أما التصوير ، فقد قيل إن الأحاديث النبوية قد تناولته من زوايا متعددة بينما لم يتناوله القرآن بنص صريح ، وبعض الأحاديث ترخص فى التصوير على الفرش وماأشبهها وبعضها يبيح تصوير ماليس فيه روح . والكثير يلعن المصور ويبيع الصور .

وقد غزا التصوير جميع فروع الفن الإسلامى من أبنية وأخشاب وعاج ومعادن وزجاج ومنسوجات ، وخزف ومخطوطات ، وعلى الأخص تزيين المخطوطات بالصور الصغيرة التى توضح كتب العلم والدين والأدب والتاريخ .

وهكذا ولد الفن الإسلامى . ونضج واكتمل وأخذ يشق طريقه إلى بلاد العالم حيث أثر فى فنونها وصناعاتها ، بعد أن بهرهم بشخصيته وفتنهم بقيمته التى صاغتها له العقيدة الإسلامية .

وسوف نرى على الصفحات التالية كيف انتقل الفن الإسلامى إلى أوربا وكيف أثر فى فنونها .

انتقال الفن الإسلامى إلى أوربا وتأثيراته فى فنونها :

لقد انتقل الفن الإسلامى إلى أوربا عن طريقين رئيسيين :

١ — طريق السلم : فقد عرف الأوربيون الفن الإسلامى عندما كانوا يحجون لبيت المقدس ، ويرون أجمل ماأنتجته مصانع الشرق من طنافس ومنسوجات وغيرها ، وعندما كانوا يتبادلون سلعهم مع التجار للمسلمين ، وعن طريق الهدايا التى كان يبعث بها سلاطين المسلمين إلى أمراء وملوك أوربا .

---

(١) سورة المائدة والأنصاب ، فسرها النسفى بالاصنام أى التماثيل التى تعبد من دون الله .

٢ — طريق الحرب : عندما غزت جيوش المسلمين بعض أنحاء أوربا (الأندلس وجنوب فرنسا وصقلية ، وجنوب إيطاليا ، وبولندة واليونان) .

فهناك عاش المسلمون ، وشادوا الصناعات والعمائر الإسلامية (مساجد وقلاع وأسوار وقصور) .

وعندما غزت الجيوش الصليبية بلاد الشرق ، ورأت تلك الجيوش معالم المدنية الإسلامية وآثار الفن الإسلامى العظيمة عن كثب ، آمنوا بان المسلمين قد وصلوا إلى ذروة التقدم ، فتأثروا بهم بعد أن اتسعت دائرة معرفتهم بالفنون الإسلامية .

ولكن ماهى التأثيرات التى تركها الفن الإسلامى فى فنون أوربا [١] ؟ :
الواقع إن هذه التأثيرات يمكن مشاهدتها فى :

١ — عقود وشرفات العمائر ومآذن المساجد التى احتذاها الأوربيون عند بناء عمائرهم .

٢ — الخط العربى الذى قلده الأوربيون ونقلوا بعض عباراته بقصد الزخرفة والزينة نقلا صادقا دون معرفة معناها مثال ذلك : الدينار الأوربى الموجود بالمتحف البريطانى الذى يوجد على وجهيه كتابة بالكوفية نصها « لا إله

(١) كتابات برتو فى سنة ١٨٩٥ عن الفن الاسلامى فى جنوب إيطاليا :
Bertaux, Les Arts de l'orient Musulman dans l'Italie Meridionale
وعن تأثير الفن الاسلامى فى الفن الرومانى فى جنوب فرنسا .
Fikry, L'art Roman de Puy et les influences Islamiques
وعن أثر الفن الاسلامى فى بولنده .
Mankoasky, Influences of Islamic Art in Poland
مجلة جامعة متشجان ص ٩٣ — ١١٧ .
Christie, Islamic Minor Arts and their fluences in European work, (Legacy of Islam p. 13).

إلا الله وحده لاشريك له » وعلى الوجه الآخر عبارة لاتينية وعلى حافته محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (١) .

وفى مجال التقليد لقد كتب الأوربيون لغاتهم بخط قريب من صورة الحروف الكوفية وذلك ماتعكسه لنا الكتابة القوطية التى شاع استعمالها فى أوربا .

٣ — الزخرفة الإسلامية التى درسها الصناع والفنانون فى عصر النهضة وزينوا بها مصنوعاتهم ، وقد وصلتنا بالفعل كراسة لفنان إيطالى بها تخطيط لزخرفة إسلامية .

٤ — الخزف ذى البريق المعدنى الذى تعلمه الأسبان من المسلمين ثم انتشر منها إلى بقية أوربا ، ووصل الأمر ان الفنان الأوربى كان يزينه بما يشبه الكتابة الكوفية تأكيداً لصبغته الإسلامية .

٥ — الأوانى النحاسية المطعمة بالفضة أو الذهب أو بهما معاً ، فقد تعلمها الأوربيون على أيدى صناع من المسلمين فى مدينة البندقية .

٦ — صناعة الأقمشة التى قلدها الأوربيون ، وبلغ من تأثرهم بها أنهم أطلقوا عليها أسماء البلاد التى كانت تنتج فيها (٢) .

كما أن صناعة المنسوجات قد تقدمت فى صقلية على عهد المسلمين ولقد وصلنا مثال رائع من هذا البلد وهو عبارة عن عباءة التتويج التى كان يتوارثها أباطرة الدولة الرومانية المقدسة والموجودة فى متحف الكنوز بفينا وهى تزدان فوق زخارفها الجميلة بنص عربى منسوج على حافتها بالكوفية بخيوط من ذهب« مما عمل بالخزانة الملكية المعمورة بالسعد والاجلال والجلال ... والسعد والسلامة والنصر والكفاية بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة . » .

---

(١) وهى الآية الكريمة التى كانت تنقش على العملة الاسلامية .
(٢) مثال ذلك كلمة الموسلين المأخوذة من اسم مدينة « الموصل » العراقية .

الفصـل الثـامن

أمثلة مختارة من الآثار الاسلامية

العملة :

قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كان العرب يتعاملون بدراهم الفرس الفضية ودنانير الروم الذهبية . أما بعد الرسالة فقد ضربت دراهم إسلامية على الدراهم الفارسية فى عهد عمر بن الخطاب الذى زاد فيها عبارة « الحمـد لله » أو « محمد رسول الله » أو « لا إله إلا الله وحده » .

وفى عهد عثمان بن عفان ، زاد على ماسبق « الله أكبر » .

وفى عهد عبد الله بن الزبير الذى أمر بضرب الدراهم المستديرة ، نقش عليها « محمد رسول الله » وعلى الوجه الآخر « أمر الله بالوفاء » .

وفى عهد عبد الملك بن مروان ، تم ضرب أول عملة إسلامية خالصة (سنة ٧٦ هجرية) حيث لانصيب فيها لنقش الفرس أو الروم . . وبذلك يعتبر هـذا الخليفة هو أول من اتخذ عمله .[١] رسمية من الذهب والفضة صبغتها إسلامية خالصة ، ولايجوز التعامل بغيرها .

---

(١) درج بعض الكتاب إطلاق عبارة Minor Arts على صك العملة ، ويقول الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق أن هذه العبارة غير مقبولة لأن الفنون الجميلة عندالمسلمين ونعنى بها فنون العمارة والحفر والنقش والنحت والتصوير – ليس فيها ماهوفرعى minor وماهو أصلى major بل كلها فى الأهميه لدى الفنان سواء وذلك على عكس الحال عند الغربيين وهم الذين وضعوا أسس دراسة هذا التراث الفنى – الذين يفرقون عادة بين مظاهر الفنون الجميلة ، فنون النحت والتصوير هى عادة إنتاج فنانين Artists لهم فى الهيئة الاجتماعيه مكانة ملحوظة أما ماعداهما من فنون زخرفه الأمتعه المنقولة فهو من عمل صناع Artisans وهى لذلك فى المحل الثانى من الأهميه ولا تعتبر فى نظر الأوربيين تحفا

وكان الدرهم أو الدينار يحمل على أحد وجهيه « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، وعلى الوجه الآخر : « الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد » وطوقهما بالآية الكريمة محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وعلى الوجه الآخر « بسم الله ضرب هذا الدينار (أو الدرهم) فى سنة .

ويلاحظ أن الخلفاء الأمويين لم يثبتوا أسماءهم على النقود التى ضربت فى عصرهم واكتفوا بذكر التاريخ . وتعتبر العملة الإسلامية من أهم مصادر التاريخ الإسلامى لأنها كثيراً ماتعاون الباحث على تحقيق مايعرض له من وقائع تاريخية

العمارة :

المملكة العربية السعودية :

المسجد النبوى : المدينة المنورة :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدى والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » .

« صلاة فى مسجدى خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » .

منذ أربعة عشر قرنا شيد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده فى المدينة وكانت له ثلاثة أبواب أحدها فى الشرق وهو مايسمى الآن باب جبريل ، والباب الغربى فهو باب الرحمة ، والباب الجنوبى الذى يقال أنه سد بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وفتح بدله باب فى الشمال .

ولم يكن للمسجد محراب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى عهد خلفائه الراشدين ، وإنما أنشىء المحراب فقط فى عهد عمارة الوليد بن عبد الملك

نفيسه بمعنى الكلمه ولكن المسلمين قد جمعوا بين الفن والصناعة فى كل ماأخرجته أيديهم يستوى عندهم فى ذلك آنيه الأميرة المتخذة من النحاس المطعم بالذهب والفضه وآنيه الفقير المصنوعه من الفخار » ولعل أصدق عبارة تستبدل بها كلمه arts Mineurs هى arts décoratives أى الفنون الزخرفيه .

للمسجد عام ٨٨ — ٩١ . أما المحراب الحالى فهو من عمارة الأشراف قايتباى ، كان مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد استبدلت جذوع النخل التى كانت تحمل سقف للمسجد بالاساطين (السوارى أو الأعمدة) التى أقيم الجزء القبلى منها فى أثناء عمارة السلطان عبد المجيد العثمانى. ولقد أطلق على بعض هذه الأعمدة تسميات منها الأسطوانة المخلقه (المعطرة [1]) ، واسطوانة السيدة عائشة وأسطوانة التوبة ، واسطوانة السرير واسطوانة الحرس واسطوانة الوفود واسطوانة التهجد . وقد روعى فيها أن تكون الأعمدة موضع جذوع النخل التى كانت على عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وكما عرفنا كان بالمسجد منبر من ثلاث درجات ، أزيد على عهد معاوية إلى ست درجات ، وقد احترق عام ٦٥٤ هـ . وقد أهدى غيره إلى المسجد من بعض حكام المسلمين عدة مرات أما المنبر الموجود الآن فهو يرجع إلى العهد العثمانى .

وأهم مايذكر عند حديثنا عن المنبر ، هو ماأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » ، ولا يفوتنا أن نذكر أن أعمدة الروضة قد غطيت إلى منتصفها بالرخام الأبيض والأحمر مع تذهيبها فى عهد السلطان سليم العثمانى .

ولم يكن للمسجد مآذن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عهد خلفائه الراشدين ، وإنما أضيفت أربع مآذن فقط فى كل ركن من أركان للمسجد على عهد الوليد بن عبد الملك استبدل بعضها وعدل فى عهد السلطان عبد المجيد العثمانى وعهد آل سعود . وبيان للمآذن كالآتى :

١ — المنارة الشامية الغربية أو المجيدية وقد حددها السلطان عبد المجيد وأزيلت مع بناء بدل منها على أجمل وأحسن طراز فى عهد آل سعود .

---

(١) وكان مسلمة بن الأكوع يتحرى الصلاة عندها .

٢ — المنارة الشامية وتسمى العزيزية وقد أزيلت و بنى أحدث منها فى عهد آل سعود .

٣ — المنارة الجنوبية الشرقية وهى المجاورة للقبة الخضراء

٤ — منارة باب السلام الغربية الجنوبية ويقال إن الذى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٦ هـ) .

٥ — المنارة الغربية (أو منارة باب الرحمة) . وقد أزيلت فى العمارة والتوسعه السعودية .

وفى عهد السلطان العثمانى عبد المجيد (١٢٦٥ هـ) تمت عمارة للمسجد كله على مدار ثلاثة عشرة سنة . وكان من أضخم العمارات التى جرت فى مسجد الرسول وأتقنها وأجملها وقد بقى منها بعد العمارة السعودية الجزء القبلى ويبدو هذا الجزء حتى الآن قويا متماسكا جميلا رائعاً وقد سقف بالقباب بدل الخشب وزينت بطون القباب بصور طبيعية كما كتبت فى جدار المسجد القبلى سور من القرآن الكريم وأسماء النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك بخط جميل بقلم الثلث الممتاز وذهبت الحروف بالذهب الوهاج وبنيت أبوابه بشكل رائع . وأبواب الجزء القبلى الباقيه هى باب جبريل وباب السلام وباب الرحمة (١) .

وفى عهد الملك عبد العزيز آل سعود تمت عمارة وتوسعة المسجد فى الفترة من عام ١٣٧٠ — ١٣٧٥ هـ وهى العمارة التى نشاهدها الآن للجزء الشمالى من المسجد المتصلة بالباقى من عمارة السلطان عبد المجيد .

المسجد الحرام : مكة المكرمة

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن

(١) على حافظ ، فصول من تاريخ المدينة المنورة ، جدة ٧٦ وماقبلها .

ذريتنـا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » (البقرة : ١٢٧ — ١٢٨) .

يتكون للمسجد الحرام (١) من العناصر الأساسية الآتية :

١ — الكعبة : وهى بناء قائم وسط للمسجد الحرام ، مربع الشكل . يتكون من غرفة واحدة يرتفع سقفها عن سطح الأرض نحو خمسةعشرة متراً ، وفى ضلعها الشرقى باب يوصل إلى جوفها ويبعد عن سطح الأرض بنحو مترين ويوجد الحجر الأسود فى ركنها الجنوبى الشرقى من الخارج وهو يرتفع عن الأرض نحو متر ونصف . يصلى الناس بداخلها متجهين إلى أى جهة من جهاتها الأربع

٢ — حجر إسماعيل : وهو أساساً جزء من الكعبة .

٣ — مقام إبراهيم : وقد ورد فى الحديث مارواه أبو عيسى الترمذى فى سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما . أن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة ، طمس الله نورهما ، ولولم يطمس نورهما لاضاءا مابين المشرق والمغرب » قال الترمذى : موقوفا .

وقد جاء ذكر مقام إبراهيم الخليل فى قوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . « وحجر المقام عبارة عن حجر رخو ، مربع مساحته حوالى ٥٠ × ٥٠ × ٥٠ سم تقريباً ، وفى وسطه أثر قدمى إبراهيم عليه السلام ، وهما حفرتان على شكل بيضاوى مستطيل قد حفرها الناس بمسح الأيدى .

---

(١) روى فى النسائى والمسند باسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « صلاة فى مسجدى افضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائه صلاة « ولذلك كان شد الرحال اليه فرضا ولغيره مما يستحب . ولا يجب ومن خواص المسجد الحرام انه أول مسجد وضع فى الارض كما فى الصحيحين عن أبى ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع فى الارض قال المسجد الحرام قلت ثم اى قال المسجد الاقصى قلت كم بينهما قال اربعون عاما .

٤ — بئر زمزم :

وهى بئر مستديرة الفوهة عليها قطعة من الرخام المرمر ، وأرض بئر زمزم مفروشة بالرخام الأبيض . وأعلا البئر بناء مربع الشكل من الداخل .

وقد روى السيوطى فى الجامع الصغير حديثاً هذا نصه : « ماء زمزم لما شرب له ، فإن شربته تستشفى بهشفاك الله ، وإن شربته مستعيذا أعاذك الله ، وإن شربته تقطع ظمأك قطعه الله ، وإن شربته ليشبعك أشبعك الله وهى حزمة جبريل ، وسقيا إسماعيل » .

المنـائر :

وبالإضافة إلى ذلك فبالمسجد سبعة منائر هى :

منارة باب العمرة ، ومنارة باب السلام ومنارة « باب على » ومنارة باب الوداع ومنارة باب الزيادة ومنارة أقامها السلطان سليمان بن سليم ومنارة أقامها السلطان قايتباى عام ٨٨٠ هـ .

ولايفوتنا أن نذكر أن المنائر كلها قد جددت تمـاما فى عمارة آل سعود للمسجد الحرام .

المنبر :

وقد تم عمله فى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم العثمانى عام ٩٦٦ هـ وهو من الرخام الأبيض . ويحتوى على ثلاث عشرة درجة .

وقد كتب على باب المنبر من الجهة الغربية « الحمد لله رب العالمين قد بنى سليمان منبر البلد الأمين » وكتب على باب المنبر من الجهة الشرقية . إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . صدق الله جل اسمه ، ٩٦٦ هـ .

الصفا والمروة :

المسجد نفسه :

وله ستة وعشرون بابا منها خمسة فى الجانب الشرقى ، وسبعة فى الجانب الجنوبى ، وستة فى الجهة الغربية وثمانية فى الجهة الشمالية .

وقد يكون من المفيد أن نذكر أنه منذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام القواعد من البيت — يقول المؤرخون إنه قد بقى على حاله ، تحيط به منازل أهل مكة منذ أن آل أمرها إلى قصى .

ولم يكن للمسجد الحرام فى حالته تلك سور ولا أبواب ، ولم يكن الأمر يحتاج إلى هدم منازل لتوسعته على عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أو عهد خليفته أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وأهم الزيادات التى أدخلت على المسجد الحرام تمت فى عهد :

١ — عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١٧ هـ) . الذى اشترى دورا وهدمها وأدخل أرضها فيه وأحاطه بجدار قصير . جعل فيه أبوابا ، وأمر بوضع المصابيح فوقه للإضاءة . كما قام رضى الله عنه ببناء سد يمنع عنه السيل ويحول مجراه الذى ينحدر من المرعى إلى مجرى وادى إبراهيم .

٢ — عثمان بن عفان رضى الله عنه (٢٦هـ) الذى استحدث رواق مسقوفا يستظل به المسلمون .

٣ — عبد الله بن الزبير رضى الله عنه (٦٦ هـ) جدد بناء الكعبة المشرفة عام ٦٤ هـ .

٤ — الوليد بن عبد الملك (عام٩١هـ) وقد تم تجديد العمارة فى عهده ، سقف أروقة لمسجد بالساج المزخرف . وهو أول من جعل أعمدته من الرخام الذى جلبه إليه من مصر والشام .

٥ — أبى جعفر المنصور (١٣٩ هـ) زاد فى أروقته رواقا أقامه على أعمدة رخامية وزينه بالنقوش .

٦ — المهدى بن المنصور العباسى (١٦١ ، ١٦٤ هـ) .

٧ — المعتضد بالله العباسى (عام ٢٨٤ هـ) .

٨ — المقتدر بالله العباس (٣٠٦ هـ) .

ولكنه احترق عام ٨٠٣ هـ فأمر السلطان الشركسى الناصر فرج بن برقوق بعمارة ما احترق منه وتم ذلك عام ٨٠٧ هـ .

٩ — فى عهد السلطان سليم العثمانى عام (٩٧٩ هـ) أمر بتجديد عمارته تجديدا كاملا ، فهدمت بعض الأروقة وأعيد بناؤها ، ولكنها لم تسقف فى هذه المرة بالأخشاب ، بل جعلت سقوفها قبابا ، وهى الموجودة الآن . وتوفى السلطان سليم ولم يتم عمارة المسجد كلها فأمر ابنه السلطان مراد الذى تولى الحكم بعده باكمالها على الصورة التى تم عليها ما بناه أبوه وهى العمارة القائمة حتى الآن بمآذنها وقبابها منذ عام ٩٨٤ هـ .

١٠ — فى عهد آل سعود تم توسيع المسجد ، وتجديد عمارته بصورة تفوق كل الصور التى تمت من قبل .

بلاد الشام :

القدس : وما يهمنا فيها هو الحرم الشريف وهو عبارة عن ساحة فسيحة يبلغ طولها خمسمائة متر وتعدل مساحتها ربع مساحة القدس تقريبا ، ويحيط بها سور .

ويتوسط هذه الساحة ما يسمى بقبة الصخرة . أو ما يطلق عليه « البعض جامع عمر [1] » .

والقبة مبنية فوق الصخرة التى يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد عندها إلى السماء وتقع وسط هضبة صخرية واسعة وطول الصخرة سبعة عشر مترا ، وارتفاعها متران . وقد أمر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ببناء قبة عليها يبلغ قطرها ٢٠٫٤٤ مترا مقامة على قاعدة مستديرة مكونة من أربعة دعائم كبيرة بين كل دعامة وأخرى ثلاثة أعمدة وكلها تحمل ستة عشرة عقدا مديبا .

« ويعلو القبة رقبة اسطوانية بها ١٦ نافذة — وهذه الرقبة تحمل القبة المستديرة العلوية وقطاعها الخارجي نصف دائرى — كما يحيط بالمنطقة الوسطى

---

(١) حضارة العرب ، ١٥٦ .

الدائرية مثمن مكون من ثمانية دعائم موجودة فى أركانه و بين كل دعامتين يوجد عمودان يكونان ثلاثة عقود وتكون فى مجموعها أربعة وعشرين عقدا — أما المثمن الخارجى ففيه أربعة مداخل محورية يتقدم كل منها سقيفة محمولة على أعمدة ، ويوجد داخل هذا الأثر كتابة بالخط الكوفى للذهب منفذة على أرضية زرقاء داكنة من الزخارف الفسيفسائية التى تحلى الجزء العلوى من التثمينة الداخلية . وقوام هذه الكتابة آيات قرآنية . كما تضم عبارة تشير إلى تاريخ هذا البناء .

وكان سطح البناء من الخارج مغطى بزخارف الفسيفساء ، ولكن لم يبق منها شيئ — أما داخله فلا يزال بعضه مغطى بهذه الزخارف النفيسة . وألوان هذه الفسيفساء هى الأخضر بدرجات مختلفة ثم الأزرق والذهبى و بعض درجات الأبيض والأسود والبنفسجى و الأحمر والفضى والرمادى .

وفى بعض رسوم الفسيفساء نرى رسما للنجوم والأهلة .

والقبة الأصلية مصنوعة من الخشب وتغطيها صفائح من الرصاص وفوقها ألواح من النحاس البراق .

ويوجد تحت الصخرة محراب املس غير مجوف ينسب للخليفة عبد الملك ابن مروان . كما يوجد محراب آخر يعرف باسم قبلة الأنبياء .

ولهذه القبة وصف رائع للمقدسى .

المسجد الأقصى :

ويشتمل المسجد على أعمدة أخذت من مبانى كثيرة ، تحيط بصحونه المركزية . ويحتوى المسجد على محراب أنيق مزين بالفسيفساء ، وتدل كتابته على أن صلاح الدين هو الذى انشأه فى سنة ٥٨٣هـ — ١١٨٧م) وأقيم منبره العجيب المصنوع من الخشب المنقور[١] المرصع بالعاج والصدف فى سنة (٥٦٤هـ — ١١٦٨م).

---

(١) وقد أحرقه اليهود بعد وقوع المسجد أسيرا فى أيديهم بعد هزيمة ١٩٦٧ .

ويرى فى جانب المسجد كوتان طريفتان للصلاة أحداها ذات أعمدة مبرومة وحنايا ، وتدعى محراب عمر على زعم أن عمر صلى فيه ، وتدعى الأخرى محراب زكريا عادة [١] .

والعجيب أن الحقد الصليبي لا ينقطع حتى عند التاريخ للمسجد ، فها هو ذا جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب يقول عن بناء المسجد الأقصى فى الحرم القدسى : « وهو قديم أيضا ، وأصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جوستينيان تبجيلا للعذراء وحولها العرب إلى مسجد بامر الخليفة عمر ، ثم هدم الزلزال للمسجد الأقصى وجدد بناؤه فى سنة ٧٨٥ م ، ثم نالته يد الاصلاح وألبسته مسحة عربية مع الزمن ولو فى الجزئيات على الأقل ثم رممه صلاح الدين سنة (٥٨٣ م – ١١٨٧ م)

إن الرد على ما قاله لوبون يكمن فى ما أورده ابن القيم فى كتابه زاد للعاد ج ١ نقلا عما ورد فى الصحيحين عن أبى ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع فى الأرض قال للسجد الحرام ثم قفلت ثم أى قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما قال أربعون عاما « ثم اضاف وأن الذى اسسه يعقوب بن اسحاق بعد بناء الكعبة . وجدد فيه سليمان بن داود عليه السلام أيضا . . .

ويعقوب كان مسلما ودعا إلى الإسلام : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون » (البقرة) . . وسليمان كان يدعو إلى الإسلام : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » (النمل) . .

كما أن الثابت حينما حضرت الصلاة وعمر داخل كنيسة القيامة ، أن اشار عليه البطريرك صفرونيوس أن يصلى فيها ولكن عمر أبى أن يفعل ذلك وخرج من الكنيسة وصلى على مقربة منها خشية أن يتخذ المسلمون صلاته داخل الكنيسة ذريعة لوضع يدهم عليها .

---

(١) حضارة العرب ، ١٦٢ .

إن مشاهدة المسجد الأقصى أو مذكراته يعيد إلى الذاكرة قول الله سبحانه وتعالى تكريما لهذه البقعة الطاهرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير . (الإسراء : ١) .

وتذكر النفس بما قاله رسول الله عرفانا بمقدار هذا المكان المقدس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشد الرحال إلا ثلاثة مساجد مسجدى والمسجد الحرام والمسجد الأقصى .

وفى المسجد الأقصى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إماما برسل الله الكرام ، فى ليلة الإسراء والمعراج • وحينما كلف رسول الله بالرسالة ، كان المسجد أسيراً فى أيدى طواغيت الروم ، لذلك فقد حرص صلى الله عليه وسلم على اعطاء إشارة البدء لتطهيره والأرض كلها من رجس الشرك ورجس الوثنية .

لذلك لم يكن مصادفة أن يوجه الرسول صلى الله عليه وسلم جيشا بقيادة مولاه زيد بن حارثة ، لقتال الغساسنة وجيوش الروم التى تجمعت عند مؤته عام ٨ هـ وفيها استشهد زيد وعبد الله بن أبى رواحه وجعفر بن أبى طالب .

وفى عام ٩ هـ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه على رأس جيش من المسلمين إلى تبوك ، فصالحه اهلها وجاءت الوفود من آيلة وغيرها ، وصالحوه على دفع الجزية . . كما بعث خالد بن الوليد بفريق من الجند إلى دومة الجندل فأسر صاحبها واستولى عليها .

وقد واصل الرسول صلى الله عليه وسلم جهاده للقضاء على طواغيت الأرض لتخلص الأرض ومن عليها لله الواحد القهار .. فأرسل رسالة إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك

مرتين . وإن تتولى فإن عليك إثم الاريسيين « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . .

وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يتردد المسلمون لحظة واحدة فى تنفيذ ما أراده الله لهم وللأمة المسلمة . . لم ترهبهم عدة الروم ولا عتادهم ولم يخشوا الموت . . لأن لقاء الله كان أفضل إليهم من العيش أذلاء يتبعون الشرق أو الغرب .. أن الشهادة فى سبيل الله أو تحقيق النصر . . كان شعارهم ....

فسير أبو بكر رضى الله عنه — جيش أسامة وكان قائدا لجيش المسلمين . ولاه رسول الله وعنده من العمر ثمانية عشر سنة . . وكان النصر حليفه ...

وأوفد أبو بكر رضى الله عنه جيشا آخر عقد اللواء لأربعة من الأمراء فيه هم : أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ويزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن ، على أن تكون القيادة العامة لأبى عبيدة .

وخرج جند الرحمن يقاتلون طواغيت الأرض حتى تخلص الأرض لله ويكون الدين لله . ثم انضم إليهم — بعد ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وخالد ابن الوليد رضوان الله عليهم أجمعين .

وكانت معارك عديدة كتب فيها النصر المسلمين على الكافرين من الروم وغيرهم . رغم قلة عدة المسلمين وعتادهم ؛ لأن معهم قوة الله تؤيدهم بعد أن آمنوا وأعدوا ما فى استطاعتهم .

وما يهمنا أن نسرده هنا هو فتح فلسطين .. بما فيها بيت المقدس على أيدى عمرو وأبى عبيدة بن الجراح — وذلك بعد هزيمة الروم وفرارهم . وطلب اهلها التسليم على أن يكون ذلك فى حضور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .. فرضى عمر بن الخطاب ، وغادر المدينة وحده .. ولم يأخذ معه من الزاد سوى قربة ماء وجراب شعير وأرز وتمر ، وآخذ عمر فى السير ليل نهار ليصل إلى

القدس فى وقت قصير ، فلما دخلها أبدى من التسامح العظيم نحو أهلها ما آمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم ..

عمر بن الخطاب يتسلم القدس .. وهو على بغلة .. لا مواكب .. لاضجة.. لا تعالى . . .

إن تذكر القدس يعيد إلى الذاكرة سيرة المسلمين الأوائل مع أعداء الله.. لاذلة .. لا خنوع .. لا خضوع إلا لله الواحد القهار .. إن تذكر القدس يعيد إلى النفس ذكرى كتاب عمر إلى هرقل يطالبه فيه بإطلاق سراح قائد مسلم أسره الروم فى إحدى الوقائع :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على رسوله من عبد الله عمر بن الخطاب إلى هرقل ملك الروم اطلقوا الأسير المسلم ، عبد الله بن حذافة — حين وصول كتابى هذا إليكم ، فإن فعلتم ذلك رجوت من الله أن يهديكم الصراط المستقيم . وإن لم تفعلوا فإننى أبعث إليكم رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد فى سبيل الله . والسلام على من اتبع الهدى » ..

ولم يكن أمام قيصر هرقل من سبيل إلا إطلاق الأسير مصحوبا بهدية إلى الخليفة عمر بن الخطاب . . . هؤلاء هم المسلمون ، الذين كانوا يوقنون أن الإمارة أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة .

وحينما وصل عمر إلى القدس وكتب عمر لأهل القدس وثيقة الأمان التى عرفت (بالعهدة العمرية) ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايليا من الأمان « أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها .

أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن

بايليا معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايليا أن يعطوا الجزية كما تعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايليا من الجزية . ومن أحب من أهل ايليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مامنهم فمن شاء منهم قعد .. وعليه مثل ما على أهل ايليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم .. وعلى مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا اعطوا الذى عليهم من الجزية .

كتب سنة ١٥ للهجرة وشهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان » .

إن هذه المشاعر تضطرم وتتزاحم فى الصدر والرأس عند الحديث عن القدس الأسيرة . أين القدس ؟ أين مسرى رسولنا عليه السلام ؟ .. أين أولى القبلتين ؟ أين فلسطين ؟ . أين أرض المسلمين كلها ؟ أين قبر صلاح الدين .. انها فى أيدى عصابات الصهيونية والصليبية العالمية .. أين أبناء المسلمين .. أين الزهرة التى نذرت نفسها لله ؟ .. أين الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد فى سبيل الله ؟ . اين رسول الله ؟ . اين عمر ؟ . اين خالد ؟ .. أين أبو عبيدة ؟ لقد لقوا الله بعد أن أدوا ما عليهم لله .

المسجد الأموى : دمشق :

أمر ببنائه الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٨ — ٩٦ هـ) على مساحة من الأرض مستطيلة الشكل ، فكان له ثلاثة مداخل محورية كما كانت توجد فى أركانه اربعة مآذن [١] لاتزال أحداها باقية حتى الآن فى الركن الجنوبى الغربى [٢] للمسجد .

---

(١) كانت فى الاصل ابراج ، ولذلك فهى تعتبر المآذن الأولى فى الاسلام .

(٢) الوصف مأخوذ عن فن العمارة الاسلامية ، ١٢-١٥ .

ويتوسط المسجد صحن مكشوف مستطيل التخطيط تحيطه أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة . والسقف محمول على صفين من العقود محمولة على أعمدة رخامية وتحيط بالصحن أروقة أخرى تحملها عقود محمولة على دعائم وأعمدة . ويعلو العقود التى تحيط بالصحن صف من النوافذ موضوعة بحيث تقع كل نافذتين منها فوق كل عقد من العقود السفلية .

وقد كان المسجد مفروشا بالرخام وكانت جدرانه مغطاة بلوحات من الرخام أيضا إلى ارتفاع قامة الانسان . وفوق هذه اللوحات توجد زخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة . وفى المسجد بضع نوافذ من الرخام بها أقدام نماذج من الزخارف الهندسية فى الإسلام .

قصير عمرا شرق عمان (٧١١–٧١٥ ؟)

وهو يشكل واحدا من القصور التى انشأها الخلفاء الأمويون فى بادية الشام للاستشفاء والصيد . (١)

ويتكون القصر من قسمين رئيسيين هما قاعة الاستقبال والحمام الساخن .

أما قاعة الاستقبال فهى مستطيلة التخطيط ويغطيها ثلاثة اقبية نصف اسطوانية يفصلها عن بعضها عقدان عرضيان . وفى نهاية القبو الاوسط من الاقبية الثلاثة ، على محور مدخل القصير توجد خشبة العرش وهى مغطاة بقبو نصف اسطوانى أقل أرتفاعا من سقف أقبية قاعة الاستقبال . وعلى جانبى القاعة كان يوجد غرفتان لخلع الملابس ليست بهما نوافذ ويغطى كلا منهما قبو نصف اسطوانى .

ويقع الحمام الساخن إلى يسار قاعة الاستقبال ويشمل ثلاث غرف رئيسية هى على الترتيب : الغرفة الباردة ويدخل إليها من قاعة الاستقبال ويغطيها قبو نصف اسطوانى وتليها الغرفة الدافئة وهى مغطاة بقبو متقاطع ومنها إلى الغرفة الساخنة وهى مغطاة بقبة نصف كروية .

(١) قام بالكشف عنه الأثرى الواموزيل عام ١٨٩٨ م .

والبناء من الحجر الجيرى الأحمر والاقبية تغشيها طبقة سميكة من البلاط كما كانت تغشى الأرضية بلاطات من الرخام يجرى بأسفلها مواسير البخار الساخن .

وتمتاز قبة الغرفة الساخنة بزخرفتها من الداخل برسوم منها مايمثل دائرة الفلك .

قصر المشتى : [1] عشرين ميلا جنوب شرقى عمان .

ينسب بناء هذا القصر للخليفة الأموى « الوليد الثانى » .

وكما أورد الدكتور كمال الدين سامح فى كتابه (ص ٢١) .

أن القصر مستطيل التخطيط ومساحته من الداخل حوالى ١٤٤ متراً مربعاً وحائطه الخارجى تكتنفه أبراج نصف دائرية . ويفتح مدخل القصر فى واجهته الجنوبيه كما أن القصر مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام رئيسية الأوسط منها عرضه ٥٧ متراً . ومدخل القصر يكتنفه برجان ويلى المدخل ردهة توصل إلى فناء مربع التخطيط مساحته ١٤ متراً مربعاً — ويكتنف ردهة المدخل من جهتها حجرات مكونة من طابقين كما توجد إلى يمين المدخل غرفة مستطيلة فى حائطها الجنوبى محراب أو تجويف عبارة عن حنية داخلة فى الحائط مما يدل على أن تلك القاعه كانت تمثل « مسجد القصر » .

ويلى الفناء الأول فناء كبير مساحته ٥٧ متراً مربعاً يليه القسم الملكى للقصر ويتكون من قاعة تؤدى إلى قاعة العرش التى يكتنفها من جانبها أربع بيوت مكون كل منها من زوجين من الغرف .

بيمارستان نور الدين : دمشق العصر الأيوبى (٥٦٤ — ٦١٨ هـ) .

وهو المستشفى العام الشبيه بقصر كبير أعدت فيه القاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن وكان يتفقده أطباء من قبل الدولة للعناية بأحوال المرضى وكان مجهزاً بكل شىء حتى من يقوم بإعداد الأدوية والأغذية .

---

(١) قام بالكشف عنه ودراسته كل من لابارد ، وشولز ، وكريزول وموريل ولا متس (والوصف مأخوذ من كتاب فن العمارة الأسلاميه ؛ ٢١) .

خان حلب :

تم بناؤه فى عهد الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى وهو بناء أشبه مايكون بفنادق اليوم مع فارق واحد وهو احتواؤه على أمكنة لدواب للسافرين ومخازن لحفظ مامعهم من سلع ، وقد كان يتكون من صحن مكشوف تربط فيه الدواب . وغرف بعضها يطل على الصحن وبعضها يفتح على الطريق العام وفى الأول يحفظ مامع التجار من بضائع وفى الثانية . تعرض السلع المعدة للبيع أو للبادلة وفى أعلى غرف معدة لنزول المسافرين .

العراق

مدينة بغداد : العصر العباسى

أسسها أبو حنيفة للمنصور . وقصة بناء بغداد هى فى الواقع صفحة فخار فى سجل الحضارة الإسلامية . وإذا قارنا بين ماأتبعه العرب فى تخطيط البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وأواسط ، وبين ما اتبعوه فى تخطيط هذه العاصمة الجديدة لتبين لنا مدى التطور العظيم الذى طرأ عليهم ، فقد استدعى المنصور المهندسين وأفضى إليهم برغبته فى بناء عاصمة لملكه يكون فيها فى مأمن من الفتن ثم أمر بتجنيد الصناع والبنائين وللساحين من أنحاء مملكته الواسعة . وطلب أن تخطط له المدينة على الأرض فخططت بالرماد ثم وضعت على تلك الخطوط كرات من القطن وصب عليها النفط وأشعلت فيها بغية أبرازها بشكل واضح ، وعرف المنصور رسمها ثم أمر بحفر أساسها وبدىء فى ذلك سنة خمس وأربعين ومائة بعد الهجرة ، وفى العام التالى نزلها المنصور ونقل إليها دواوين الدولة وسماها مدينة السلام أو دار السلام ولكنها ظلت تعرف باسمها الفارسى القديم « بغداد » الذى يعنى « عطية الله » . وقد كانت من قبل قرية تقام فيها للفرس أسواق عظيمة للتجارة ، وعندما بدأ المسلمون فى الوصول إلى العراق أيام أبى بكر قصدت إليها جيوشهم بقيادة خالدبن الوليد وهرب أهلوها تاركين وراءهم أمتعتهم التى غنمها للسلمون ، وتعتبر مدينة بغداد من أبدع النماذج التى تسترعى النظر فى تخطيط المدن ، فقد كانت مستديرة يحف بها من الخارج خندق عميق يقوم بعده إلى الداخل سور به أبراج ، ومن وراء هذا السور سور آخر فيه

أيضاً أبراج كبيرة وصغيرة ، ثم إلى الداخل بعد ذلك سور ثالث أعلى من السورين السابقين وأعظم منها سمكا وهو يحيط بالرحبة المركزية للمدينة . والجزء الفاصل بين السورين الأولين (المشرف على الخندق والذى يليه) خال من الأبنية ليسهل مهمة الدفاع عن المدينة ، أما الجزء الفاصل بين السور الثانى والثالث الذى يحيط بالرحبة فتقوم فيه منازل السكان وتجرى بينها الطرقات كأنها برامق العجله ولكل طريق منها اسم خاص ، مستمد من أسماء بعض أصحاب الدور والبساتين . وكان للمدينة أربعة أبواب : باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام . وقد جعل المنصور على كل باب منها قائداً فى ألف رجل ، كما جعل لكل من هذه المداخل الأربعة باباً عظيما من الحديد لايفتحه إلا جماعة من الرجال ، وكان ارتفاع هذه الأبواب يقرب من خمسة أمتار لأن الفارس كان يدخل منها بالعلم ، والرمح الطويل من غير أن يميل العلم أو ينثنى الرمح ، ويمتد من كل باب من هذه الأبواب الأربعة طريق يوصل إلى الرحبة الوسطى ، وكان فوق كل باب مجلس مغطى بقبة عظيمة ذاهبة فى السماء وعلى رأس كل قبة تمثال تديره الريح لايشبه نظائره . وفى وسط الرحبه المركزية يقوم قصر الخليفة الذى يعرف بقصر باب الذهب ، والذى تتوسطه قبة خضراء عالية يرى منها أطراف بغداد ، على رأسها صنم على صورة فارس فى يده رمح يدور مع الريح حيثما دارت . وإلى جوار القصر يقوم المسجد الجامع ، ولم يكن يجاور القصر والمسجد بناء إلا دار الحرس وسقيفة كبيرة تقوم فى الجهة الشمالية بالقرب من باب الشام ويجلس تحتها صاحب الشرطه وصاحب الحرس .

وقد ظلت بغداد عاصمة للعالم الإسلامى خمسمائة عام فيما خلا فترة تبلغ خمسة وخمسين سنه انتقلت فيها العاصمة إلى مدينة « سر من رأى » (١) .

والذى يؤسف له أن هذه المدينة قد ضاعت معالمها اليوم ، على أن الذى يعوضنا عن هذه الخسارة ماانتهى الينا من المراجع التاريخية التى بفضلها عرفنا تصميمها ووقفنا على حضارة المسلمين فيها .

---

(١) الوصف عن « بين الآثار الاسلامية فى العالم » .

وقد ذكر اليعقوبى أن عدد العمال الذين عملوا فى بناء المدينة كان مائة ألف عامل كما اشترك فى تصميمها خمسة من المهندسين ، كما أنه قد اشترك فى البناء أربعة ملاحظين ، أحدهم أبو حنيفة صاحب أقدم مذهب من المذاهب الإسلامية الأربعة .

أطلال مدينة « سر من رأى » شمالى بغداد أنشأها المعتصم ٢١٨ ﻫ .

وقد تم الكشف عنها فجر القرن الحالى ولقد أفادتنا الدراسات الاثرية فى التعرف على تخطيط وعمارة أجزاء المدينة : مثل دار الخليفة والمسجد الجامع ذى المنارة العلوية وغيرها .

مصر

مقياس النيل بالروضة القاهرة :

وقد أمر بإنشائه الخليفة العباسى المتوكل على الله عام ٢٤٧ ﻫ وقام بإصلاحه فيما بعد أحمد بن طولون ويتكون من عمود رخام مدرج يتوسط بئرا مربعة من الحجر مساحتها ٦٫٢٠ مترا مربعا وبها درج يوصل إلى القاع يجرى حول حوائطه الداخلية . ويتصل المقياس بالنيل بواسطة ثلاث فتحات تجرى بالقرب من القاع وهى على شكل عقود مدببه ترتكز على أعمدة ذات تيجان كورنثية رومانية وقواعد رومانية مقلوبة . ونقشت على جدران البئر من الداخل وفوق عقوده آيات قرآنية بالخط الكوفى . وهى تتصل بالزروع والماء .

والعمود المدرج عليه كتابات بالخط الكوفى ، أعلاه مدون رقم (تسع عشر) ذراعا . وقطاع العمود مثمن . وقد ثبت العمود فى وسط البئر بواسطة عقدين يرتكزان على حوائط البئر من الداخل وكان مثبتا قبل ذلك بواسطة كمرة افقية عليها كتابات بالخط الكوفى باللونين الأزرق والذهبي [١] .

---

(١) عن فن العمارة الاسلامية ، ٤١ .

القـــــاهرة :

الجامع الطولونى :

أمر بإنشائه أحمد بن طولون (٢٦٣ — ٢٦٥ ﻫ) فى المدينة الجديدة التى سماها « القطائع » والتى بنى فيها قصره وإلى الغرب منه كان هناك ميدان فسيح انشأه عام ٢٥٥ ﻫ . وإلى الجهة الشرقية الجنوبية بنى دارا جديدة للامارة .

وتبلغ مساحة الجامع ستة أفدنة ونصف ، ويتكون من صحن مربع فى الوسط وهو فناء مكشوف مساحته حوالى ٩٢ مترا مربعا ويحيط به أربعة أروقة اكبرها رواق القبلة ويحيط بالمسجد من الخارج زيادات من ثلاث جهات عدا حائط القبلة التى كانت تلاصقها دار الإمارة .

وللمسجد مبنى بالطوب الآجر وتغطيه طبقة سميكة من الملاط تعلوها طبقة آخرى بيضاء من الجص بها زخارف جميلة محفورة .

والعقود المكونة للمسجد مدببة الشكل . وترتكز على دعائم مستطيلة القطاع فى أركانها أعمدة متصلة ذات تيجان رومانية الشكل ، وتعلو الدعائم فتحات معقودة مدبية لتخفيف الثقل عليها .

ويتوسط الصحن فسقية داخل بناء مربع التخطيط تعلوه قبة محمولة على صفوف من المقرنصات .

ويعلو العقود من الداخل افريز زخرفى من الجص يعلوه إزار خشبى يحيط بأروقة الجامع كتبت عليه كتابات قرآنية بالخط الكوفى البارز . والسقف مكون من كمرات افقية من جذوع النخل مسمر فى جانبيها وفى اسفلها ألواح خشبية . وتوجد فى بطون العقود وحول النوافذ والعقود زخارف خطية تمثل الزخارف الخطية فى العصر العباسى التى وجد ما يشبهها فى مدينة سامراء الموطن الاصلى لأحمد بن طولون .

والنوافذ ذات فتحات معقودة مدببه وبها زخارف هندسية ونباتية مثقوبة فى الجص وتمثل أقدم الأمثلة من نوعها فى مصر الإسلامية .

ومحراب المسجد يكتنفه عمودان وهو على شكل تجويف نصف دائرى فى حائط القبلة ، جدرانه فسيفساء رخامية ملونة يعلوها شريط من الزخارف الزجاجية عليه كتابات بالخط النسخ . وبخلاف المحراب الكبير أضيفت خمسة محارب أخرى على الجدران ويعلو المنطقة التى تتقدم المحراب قبة صغيرة محمولة على مقرنصات .

وتوجد فى الزيادة الشمالية الغربية إلى اليمين قليلا من محور المسجد المئذنة التى يبلغ ارتفاعها ٤٠ر٤٤ مترا وهى من غير شك متأثرة إلى حد كبير بمئذنة سامراء المعروفة (بالملوية) وهى تتكون من قاعدة مربعة تعلوها منطقة متوسطة اسطوانية يجرى حولها من الخارج درج يوصل إلى المنطقة الملوية التى تتكون من منحنيين العلوى اصغر من السفلى .

الجامع الأزهر : القاهرة (٣٥٩ — ٣٦١ هـ)

انشأه القائد جوهر الصقلى بأمر المعز لدين الله الفاطمى ليكون مسجدا جامعا للقاهرة الفاطمية ، وقد أصبح فيما بعد جامعة اسلامية يقصد إليه وفود الطلاب من جميع الأقطار الإسلامية .

ومساحة الجامع الأول تقرب من نصف سطحه الحالى ، ولقد أضيف إليه زيادات فى أزمنة مختلفة حتى وصل إلى تصميمه الحالى ويتوسطه صحن مكشوف تحيطه أربعة أروقة اكبرها رواق القبلة — وعقود الأروقة وترتكز على أعمدة من الرخام مختلفة الطراز ، والعقود من الطراز المدبب إلا ما كان منها حول الصحن فهى مثلثة الشكل ويرجع تاريخها إلى أواخر الدولة الفاطمية وبداية العصر الأيوبى .

وليس بالجامع مئذنة ترجع إلى العصر (الفاطمى) والمآذن الحالية تنسب للسلطان قايتباى والسلطان الغورى .

---

(١) فن العمارة الاسلامية ، ٤٣ — ٤٧

ويقطع رواق القبلة مجاز قاطع يجرى عموديا ويتجه من الصحن إلى المحراب وسقفه مرتفع عن سقف الرواق وبه نوافذ علوية جانبية للانارة الداخلية والتهوية . وقد كانت هناك ثلاث قباب إحداها فى المنطقة التى تعلو المحراب الأصلى وواحدة فى كل من ركن رواق القبلة .

ويمثل جامع الأزهر بشكله الحالى مجموعة من المنشآت والزيادات ضمت إليه فى أوقات مختلفة ، وأهم هذه الزيادات المدرسة الطيبرسية والمدرسة الأقبغاوية والمدرسة الجوهرية سنة ١٤٤٠ م .

مدرسة وضريح الصالح نجم الدين ايوب القاهرة

والعصر الأيوبى يعتبر عصر ازدهار بالنسبة للعمارة الأيوبية فقد ظهرت المدارس الإسلامية (١) وازدهرت العمارة العربية ولا سيما القلاع والاسوار .

ومن مميزات الطراز الأيوبى فى العمارة تطور المئذنة التى أخذت شكلا خاصا يعرف (بالمبخرة) وكذا القبة وبناء الإيوان وبناء الخوانق لاقامة الصوفية .

ومن أهم العمائر الأيوبية مدرسة وضريح الصالح نجم الدين أيوب . وتتكون المدرسة من جزءين رئيسيين بينهما ممر وتعلو مدخله مئذنة كما أن جل جزء يتكون من ايوانيين متقابلين بينهما فناء ، وملحق بالمدرسة ضريح تعلوه قبة . وتمتاز الواجهة المطلة على الشارع بالزخارف الجيرية الموجودة فى النوافذ وبأعقابها وكذا فوق المداخل وفى الحنايا المعقودة وفى اشرطة الكتابة التى تمثل دقة صناعة الحفر على الحجر . كما يمتاز هذا الأثر من الداخل بتكسية جدرانه بالرخام الملون ويرجع انشاء القبة إلى شجرة الدر (١٢٤٩ م) زوجة الصالح نجم الدين ايوب (٢) .

مدرسة السلطان حسن .

أنشأها السلطان الناصر حسن بن قلاوون الذى ولد عام ٧٣٥ هـ وهى من أجمل آثار القاهرة الإسلامية .

---

(١) فن العمارة الاسلاميه ، ٤٩ — ٥٣

(٢) نفس المرجع السابق ٧٩ — ٦٠

وقد كان مقرراً فى بادىء المشروع بناء أربع منارات ، اثنتان تكتنفان القبة بالواجهة الشرقية والثالثة كانت على يمين للمدخل الرئيسى وقد سقطت فى سنة ٧٦٢ هـ ، فلم يشرع السلطان حسن فى بناء المنارة الرابعة وكان مقرراً لها فى يسار المدخل الرئيسى .

ويقال إن السلطان قرر للمدارس مدرسين ومراقبين وعين لهم مرتبات كما قرر لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخاً ومائة طالب

وتبلغ مساحتها ٧٩٠٠ متر مربع ، وارتفاع المدخل ٣٧ر٨٠ متراً ومسقطها الافقى يبين أنها كانت تتكون من صحن مربع يتوسط المدرسة ويحيط به أربعة ايوانات على نمط التخطيط المتقاطع للتعامد ، وأكبر الايوانات ايوان القبلة . ويكتنف جدار محراب المسجد من الخارج مئذنتان رشيقتان أقدمها الجنوبية وارتفاعها ٨١ر٦٠ مترا .

وكان البدء فى إنشاء هذه المدرسة فى سنة ١٣٥٦ م لتكون مسجدا ومدرسة للمذاهب الاسلامية الأربعة وقد ألحق بها مساكن للطلبة (١) .

ويحيط بالايوان الشرقى افريز من الجص عليه كتابات بالخط الكوفى الجميل المزخرف الحروف وهى تحوى آيات من سورة الفتح . وبهذا الايوان دكة للبلغ وهى من الرخام . كما يوجد محراب مصنوع من الرخام الدقيق وبجواره منبر رخامى يكتنفه بابان يؤديان إلى قبة الضريح .

المغرب :

١ — مدينة فاس : بمراكش انشأها ادريس بن عبد الله بن الحسن عام ١٩٢ هـ . وتغص مدينة فاس بالكثير من الآثار الاسلامية التى منها مسجد القرويين ومدرسة العطارين .

٢ — مدينة مراكش : أسسها للرابطون عام ٤٥٤ هـ ومن أهم معالمها جامع الكتبية .

---

(١) فن العمارة الاسلامية ، ٧١ — ٧٤ .

الجزائر :

١ — المسجد الجامع : بمدينة تلمسان بالجزائر شيده للرابطون .

٢ — المسجد الجامع : بمدينة الجزائر . شيده للرابطون وقد جدد بناؤه ماعدا للنبر الذى يحمل تاريخ بنائه القديم ٤٠٩ هـ .

تونس :

١ — مسجد عقبة بن نافع [١] : بمدينة القيروان بتونس .

وتعتبر مئذنته أقدم مافى العالم الإسلامى من للمآذن، وقد احتذاها المعماريون فى بناء مآذن مساجد للغرب والأندلس .

٢ — مسجد الزيتونة : بمدينة تونس خططه ابن الحبحاب عام ١١٤ هـ .

٣ — الرباط : مدينة سوسه دولة الأغالبة .

والرباط فى الأصل معناها ارتباط الخيل بازاء العدو فى الثغور ، ومنه المرابط الذى يلازم الثغر لدفع العدو واخذا من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . ومعنى الرباط فى العمارة الإسلامية البناء الذى كان يتخذه المسلمون مسكناً لأولئك الذين وقفوا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ضد أعداء الإسلام .

صقلية :

١ — قصر العزيزة وقصر القبة — بمدينة صقلية [٢] بناها النورمانديون عام ٥٤٣ هـ ، ويتجلى فيها جمال الفن الإسلامى .

---

(١) أعاد فتح تونس عام ٥٠ هـ

(٢) لقد بلغتها دعوة الاسلام على أيدى رجالها عام ٢١٢ م ، ومكثوا بها حتى عام ٤٥٣ م ، ورغم انتهاء نفوذ المسلمين السياسى فقد بقى تأثيرهم فى مجال الفن والثقافه إذ أن هؤلاء الأوربيين الذين لعبوا دوراً كبيراً فى الحضارة الأوربيه الحديثه قد استعانوا بعلماء المسلمين وفنانيهم فى نشر الحضارة الاسلامية فى الجزيرة والتى منها استمد الايطاليون خبرتهم الصناعية فى فجر النهضه الأوربية .

تركيا :

١ — المسجد الجامع : اسطنبول الخلافة العثمانية

وكانت فى الأصل كنيسة ثم حورت بانشاء منبر ومحراب داخلها وبناء أربع مآذن أسطوانية تنتهى من أعلى بطرف مدبب كأنها أقلام الرصاص .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن مميزات العمارة العثمانية (١٥١٧ — ١٨٠٥ م) :

١ — القرنسات والدلايات المستقيمة المميزة لعمارتهم والتى تختلف عن الأخرى المدببة فى كل من مصر وسوريا .

٢ — الأبواب المتداخلة العميقة والموضوعة داخل إطار مزخرف بزخارف بارزة .

٣ — الزخرفة باستخدام الخزف بشكل حرية والتى تملأ فى بعض الأحيان جميع أجزاء المسجد .

٤ — استعمال القرنسات فى شكلين أحداها على شكل تاج لعمود مستدير كبير .

٥ — استعمال الحجر والطوب فى مداميك متبادلة لزخرفة الواجهات الخارجية .

٦ — استعمال القبة المنخفضة .

٧ — بناء المئذنة الأسطوانية الرفيعة المدببة والتى تنتهى من أعلاها بمخروط رفيع يشبه رأس القلم الرصاص المدبب — كما أن شرفة المؤذن قد اتخذت لها بروزا بسيطا وقد حملت على صفوف متتابعة من المقرنسات .

٨ — ظهر نوع جديد من المساجد الجامعة يعرف بالتكية وهى تشابه الخانقاه فى العصر الأيوبى(١) .

---

(١) فن العمارة الاسلامية ، ٨٣ — ٨٥ .

ايـران :

١ — المسجد الجامع : اصفهان العصر السلجوقى .

الهنـد :

١ — مسجد قوة الاسلام : دلهى ، بناه قطب الدين أيبك (٥٨١ هـ) .

من أعظم المساجد فى العالم وقد جمعت أعمدته من المعابد الهندية القديمة وزين بآيات من القرآن .

٢ — منار قطب : دلهى ، بناه قطب الدين أيبك .

٣ — ضريح تاج محل : أجرا ، ١١٠٠ هـ

وقد بناه الملك شاه جهان لكى يضم رفاة زوجته ورفاته بعد وفاته .

الصين :

١ — مسجد مدينة كانتون : (ادخانفو)

٢ — المسجد الجامع : سيان فو — الصين

وكان للمسجد يبنى على طراز للعابد الصينية ، ولكن الفرق يتجلى فى الداخل حيث نجد المنبر والمحراب بدلا من الأصنام الصينية ، يتميز مسجد كانتون بوجود مئذنة أسطوانية الشكل .

الأندلس :

الأندلس قديما — وهى أسبانيا — والبرتغال حديثاً — كانت احدى معاقل الدولة الإسلامية منذ وطأتها أقدام المسلمين بقيادة طارق بن زياد ، فجلجل فى جانبها نداء التوحيد « الله أكبر » على مدار فترات طويلة من تاريخ البشرية ، وحكمها منهج الله وشريعته لوقت طويل ، أحست البشرية فى ظلالها سعادة وسماحة وراحة وطمأنينة لم ولن تراها إلا بالعودة إليها مرة أخرى . . ودار الزمان

دورته ، ونحى أبناء المسلمين منهج الله وشريعته عن حياتهم ، وعبدوا أنفسهم لشهوات ورغبات أودت بدولتهم وقوضت بنيانهم .

ولقد تركت لنا دولة الإسلام فى الأندلس الكثير من الآثار الثابتة والمنقولة كالقناطر والحمامات والأسوار والقصبات والقلاع والقصور والجوامع والمنارات وكتب التراث العلمى والأدبى وغيرها . . .

كل هذه الآثار هى الشاهد الحى على أن المسلمين الأوائل قد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم تاركين البلد والأهل لنشر الإسلام دين الله فى هذه البقاع من أرض الله بعد تطهير الأرض من شياطين البشر وطواغيتها .

كما تؤكد لنا أن وعد الله لايتخلف ولا يتغير ولايحابى إنسانا على حساب دينه سبحانه وتعالى . . فبلاد الأندلس كانت دولة للاسلام حينما كان المسلمون مسلمين حقاً « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . . يعبدوننى لايشركون بى شيئا » .

هذه الآثار تحكى لنا قصة انحراف أبناء المسلمين وتحولهم إلى طواغيت أبعدوا شرع الله ومنهجه عن حياتهم فكان عقاب الله لهم تولية غيرهم « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » .

هذه الآثار هى شاهد حى أمام أعيننا علنا نفيق ونتعظ بما حدث لغيرنا فلا نقع فيما وقعوا فيه « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم . . . » .

فهى تقدم لنا البرهان على أن انحسار المد الإسلامى عن بلاد أوربا ، لم يكن نتيجة لقوة فى الأعداء ، ولكنه نتيجة لسلوك أبناء المسلمين الذين كفروا بربهم ونحوا شريعته ومنهجه عن حياتهم . . فكان السقوط وسيكون لكل دولة خضعت لطواغيت البشر ولم تخضع حياتها لله الواحد القهار .

إن مايدمى القلب : « إن الأندلس التى لبثت قرونا عديدة معقل دولة إسلامية عظيمة ، وحضارة إسلامية زاهرة ، تبدو اليوم بلاد أسبانية نصرانية محضة لاتكاد تشعر وأنت تتجول فيها ، إن هـذه البلاد كانت يوما منزل أمة إسلامية اللهم إلا مايصادفك من آثار قليلة ، تذكرك بهذا الماضى البعيد ، وحتى هذه الآثار ، فيما خلا بضعة صروح عظيمة مثل حمراء غرناطة ، وجامع قرطبة ، وبعض الحصون والقصبات الأندلسيه القديمة ، تكاد تختفى فى أثوابها النصرانية خلعتها عليها الأمة الغالبة .

ونبدأ مسيرتنا للتعرف على أهم آثار الأندلس من قرطبة : التى كانت عاصمة لدولة الأندلس الإسلامية فى عهد الأمويين ، ولكنها سقطت فى أيدى الصليبيين عام ٦٣٣ م ، ونزع عنها كل معالمها القديمة ، ماعدا المسجد الجامع الذى يذكرنا بماضيها الإسلامى المجيد .

المسجد الجامع : يقع إلى الجنوب الغربى من قرطبة على مقربة من قنطرة نهر الوادى الكبير .

وقد بدأ بإنشائه عبد الرحمن الداخل عام ١٧٠ هـ . وأكمله وزاد فيه الكثير من أمراء المسلمين منهم عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (٢١٨ هـ) ، بإنشاء ساباط يربط بين المسجد وقصره . وفى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٤٠ هـ) جددت واجهة المسجد وأضيفت إليه منارة جديدة ، وبالإضافة إلى ذلك قام الحاكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ببناء محراب ثالث وأضاف إلى بنائه دارا للصدقة وداراً لسكن الوعاظ وعمال المسجد .

وللتعرف على ضخامة بناء المسجد ، يكفى أن نعلم أن مساحته تبلغ حوالى ٢٤٫٣٠٠ من الأمتار بطول ١٨٠ وعرض ١٣٥ من الأمتار . وعدد الأعمدة التى صفت فيه ١٤١٧ تحمل ٢٩ عقداً تمتد بطول المسجد و١٩ عقداً تمتد بعرض المسجد لتحمل [١] سقفا ارتفاعة أثنا عشر متراً من سطح الأرض . ويفتح

(١) تتدلى منه مائتان وثمانون ثريا .

فى جدران المسجد تسعة عشر بابا يبلغ ارتفاع أحداها وهو باب الغفران سبعة أمتار .

وقد كان المسجد يزدان بعدد من النوافير وأشجار البرتقال والنارنج التى غرست فى أرجاء صحنه المكشوف .

وتعتمد زخرفة المسجد على النقوش والكتابات التى من أهمها ماسجله عبد الرحمن الناصر على لوحة رخامية ثبتت على الجانب الأيمن لباب النخيل بخط كوفى : « بسم الله الرحمن الرحيم » . أمر عبد الله أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، أطال الله بقاءه ، بنيان هذا الوجه واحكام إتقانه ، تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الثواب فتم ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلثمائة على يد مولاه وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر عمل سعيد ابن أيوب » .

والآن نتساءل متى بدأ هذا المسجد يخلع ثوبه الإسلامى ؟ . . أو بمعنى أصح متى فرضت عليه الصبغة المسيحية ؟

إن هذه المأساة قد حدثت حينما سقطت قرطبة فى يد مايسمى بالقديس فرناندو الثالث ملك قشتالة فى ٢٣ شوال عام ٦٣٣ هـ ، وعندما طلب الملك الفونسو العالم والامبراطور شارلو كان عام ١٥٢١ إضفاء الصبغة المسيحية على الجامع[١] وعندما أزيلت المنارة ، أقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالى .

إن فى هذا المسجد وغيره من المساجد الاسلامية تكمن عبرة التاريخ الخالدة ، فقد حولت أو حولت مواقعها — جميعا إلى كنائس جامعة (كاتدرائيات) ومن أمثلة كثيرة ، كانت تبنى الكنيسة الجامعة كلها أو بعضها

(١) عندما طلب اقامة هيكل قوطى رئيسى يتوسط الجامع وترتب على ذلك إزالة السقف الأندلسى القديم .

من انقاض المسجد المهدوم ، كما هو الشـأن فى كنيسة طليطلة الجامعة . وأحيانا تستبقى منارة الجامع لتغدو برجا لأجراس الـكنيسة . كما هو الشأن فى كنيسة اشبيلية الجامعة وذلك كله اشادة بظفر النصارى على احفاد للسلمين فى اسبانيا ، ولم يشذ مسجد قرطبة عن هذه القاعدة ، فهو اليوم بالرغم من محاريبه وعقوده الإسلامية ، كنيسة قرطبة الجامعة (كاتدرائية) .

اطلال مدينة الزهراء [١] :

انشأها الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠ — ٣٥٠ ﻫ) فى بقعة على مقربة من غربى قرطبة شمال نهر الوادى الـكبير . واستمر العمل فى اتمامها زهاء أربعين عاما . وقد كانت تحوى قصر الخلافة العظيم ، وقصر الناصر الخاص للسمى بالمؤنس . وقد هجرت تلك المدينة على يد الوزير محمد ابن أبى عامر (الحاجب المنصور) الذى بنى لنفسه ضاحية ملوكية جديدة شرقى قرطبة سنة ٣٦٨ ﻫ ، وسماها الزاهرة ونقل إليها خزائن الأموال والسلاح ودواوين الحـكم .

لاجرالدا أو منارة جامع المنصور [٢] :

وكانت تـكون جزءا من المسجد الذى انشأه عاهل المغرب والأندلس أبو يعقوب يوسف الموحدى الملقب بالمنصور ، فى شهر رمضان ٥٦٧ ﻫ أثناء اقامته بمدينة اشبيلية التى كانت قاعدة حكم الموحدين بالاندلس وهى بروعتها وجمالها تبدو لؤلؤة اشبيلية الأثرية . وتقع إلى جوار زاوية الـكاتدرائية الشمالية الغربية وجنوب غربى الصحن .

وقد تم بناؤها بالآجر على مدار فترات طويلة لعدة أعوام ، وقد أمر أبو يعقوب بتزويدها بتفافيحها الذهبية للشهورة .

وتعتبر قرينة لمنارتين شقيقتين فيما وراء البحر ، هما منارة جامع الـكتبية

---

(١) عن الآثار الأندلسيه الباقية أخذ وصف الآثار الأندلسية المدرجة هنا .
(٢) نفس المرجع السابق .

أو الكتبيين بمراكش ، وهى التى مازالت تزدان بها العاصمة المغربية القديمة حتى اليوم ، ومنارة حسان (تورحسان) القائمة على مقربة من الشاطىء المحيط بمدينة الرباط . وكلتاهما على نفس الطراز والنمط فى الداخل والخارج ، وقد أمر بإنشاء المنارتين أيضا الخليفة يعقوب المنصور .

ومازالت منارة اشبيلية ، بالرغم من تحولها إلى برج للأجراس ، تحتفظ بكثير من روعتها الإسلامية القديمة ، وهى مربعة الشكل ، بالغة الارتفاع ، وقد اشتهرت عصورا بجمال هندستها ، وروعة زخارفها ، التى بقى الكثير منها حتى اليوم ، واشتهرت بالأخص بتفافيحها الذهبية ، وكانت الوسطى منها بالغة الضخامة ومما يذكر ان الذى قام بصنع هذه التفافيح ، ورفعها إلى أعلى المنار ، أبو الليث الصقلى ، وأن قيمة ما انفق على تذهيب التفافيح ، بلغت من النقد مائة ألف دينار ويبلغ ارتفاع منارة المنصور أو « لا جيرالدا » كما يسميها الأسبان ستة وتسعين مترا ويصعد إليها من الداخل ، بواسطة ممرات منحدرة صاعدة مرصوفة بالآجر ، تبلغ أربعة وثلاثين ، وبها فى ثلثها الأوسط أربع طبقات من المخادع الجانبية ، لها نوافذ ومشرفيات عربية ، زينت واجهاتها بنقوش عربية ومغربية بديعة ، وتعلو هذه الطبقات الأربع ، طبقة خامسة ، ذات أروقة ، ومشرفيات عالية . والظاهر أنها كانت طبقة المؤذنين . ثم تأتى بعد ذلك الطبقة الأخيرة ، وهى اليوم برج أجراس الكنيسة . ذلك أنه قد وقع فى الثلث الأعلى من المنارة تغيير عظيم ، وكانت تفافيحها الذهبية الأربعة قد سقطت فى سنة ١٣٥٥ م . على أثر زلزال مروع هز أركانها بشدة . وفى سنة ١٤٠٠ حولت قبتها العليا إلى برج متواضع للاجراس . ولما تم بناء كنيسة اشبيليه العظمى فى سنة ١٥٥٨ م ، بدىء العمل فى تحويل قمة المنارة إلى برج عظم للأجراس فأبقى هيكلها الرئيسى بطبقاته الخمس على اصله ، ثم بنى الاسبان فوقه برج الأجراس الحالى من طابقين على طراز عصر الاحياء .

وهكذا أصبحت منارة المنصور ، برج الأجراس « الكنيسة اشبيلية العظمى » بعد أن كانت منارة مسجدها الجامع .

الحمراء — غرناطة (١) :

إن حمراء غرناطة هي بلا ريب أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، وهي مازالت كما كانت منذ عصور ، تشرف بأبراجها وقبابها المتبقية من هضبتها العالية ، على المدينة الإسلامية القديمة من ركنها الجنوبي الشرقي ، فتسبغ عليها آيات من الروعة والجلال .

إن قصر الحمراء هو قبلة الرواد من سائر انحاء الأرض وهذا هو خاتمة للطاف لرواد أسبانيا ورواد الاندلس .

أجل هنا كانت ثمة مملكة ، وكان ثمة ملك وعرش ، وبين جدران هذا القصر ، كان يقيم سلاطين مملكة غرناطة الإسلامية آخر الممالك الاندلسية ، هنا كان رجالات هذه الاندلس الأخيرة ، يوجهون مصائر شعب عظيم مسلم . أجل كانت الحمراء معقل مملكة إسلامية عظيمة ، استمر تاريخها يدوى فى الآفاق، زهاء مائتى عام ، عنوان مدنية إسلامية زاهرة ، تركت آثارها الخالدة فى الربوع التى تألقت فيها . ثم كانت الحمراء بعد ذلك قبرا لهذه المملكة وهذه المدنية . وفى بعض أبهاء الحمراء وقع أبو عبد الله آخر ملوك الاندلس ووزراؤه معاهدة تسليم غرناطة والحمراء ، وحكموا بذلك على دولتهم بالمحو ، وعلى أمتهم بالفناء .

وبين هذه الجدران الصامتة ، التى يكاد الأسى يرتسم على زخارفها العربية، ونقوشها الإسلامية ، يضطرم الخيال بهذه الفكرة وامثالها ، بل يكاد الدمع يغالبك وأنت تجوس خلال هذه الابهاء الملوكية الفخمة ، وتقرأ فى كل ركن منها تلك العبارة المؤسية ، التى لبثت شعار بنى نصر ملوك غرناطة حتى انتهاء دولتهم .

« ولاغالب إلا الله »

---

(١) من الآثار الأندلسيه الباقيه .

ولا بد لنا قبل أن نجوز إلى داخل هذا القصر الملكى ، الذى يضم تاريخ مملكة بأسرها ، أن نقول كلمة عن تاريخه .

أن قصر الحمراء لم يكن سوى جزء صغير فقط ، من مدينة الحمراء أو كما تسميها الرواية الإسلامية « قصبة الحمراء » . وكانت القصبة تشمل عادة قصر الحاكم والقلعة ، أو القلاع التى تحميه ، ودور الوزراء والحاشية .

من الذى أنشأها أو أضاف إليها :

ويرجع قيام الحمراء إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ولما تولى باديس بن حبوس زعيم البربر حكم غرناطة ، على أثر قيام دول الطوائف فى أوائل القرن الخامس ، انشأ سوراً منيعاً حول الهضبة التى تقع عليها قلعة الحمراء ، وأنشا داخله قصراً ومركزاً لحكومته ، وسميت بالقصبة الحمراء ، وغدت هذه القلعة معقل غرناطة الرئيسى .

وفى عام ٦٣٥ هـ أنشأ محمد بن الأحمر النصرى قصره المحصن داخل أسوارها مطلقا عليه اسم « الحمراء » ، واتخذه قاعدة للملك ، وجلب إليه الماء ، وأنشأ حوله عدة أبراج منيعة ، منها البرج الكبير المسمى برج الحراسة .

وفى أواخر القرن السابع الهجرى ، أنشأ محمد بن محمد بن الأحمر ثانى سلاطين غرناطة ، الملقب بالغالب بالله ، الحصن الجديد والقصر الملكى ، وأنشأ ولده محمد إلى جوار القصر مسجداً ، وهو الذى تحتل موقعه اليوم كنيسة « سانتا ماريا » . ثم جاء السلطان أبو الوليد إسماعيل ، فزاد فى القصر وفى تجميله ، بيد أن الحمراء تدين بفخامتها وروعتها ، وبالأخص إلى ولده السلطان يوسف أبى الحجاج ، الملك الشاعر والفنان الموهوب . فهو الذى بنى معظم الأجنحة والابهاء الملوكية ، التى مازالت تسبغ على الحمراء روعتها الخالدة ، وهو الذى أغدق عليها روائع الفن والزخرف ، وبنى باب الشريعة الشاهق .

وصف المدينة :

وتقع مدينة الحمراء فوق هضبة مرتفعة ، يبلغ طولها ٧٣٦ متراً ، وعرضها

نحو مائتى متر ، ويحيط بها سور ضخم بقيت منه إلى اليوم أجزاء كبيرة . ويتخلل السور عدة أبراج وأبواب بقى معظمها إلى اليوم . وأهم أبراجه الباقية . هى برج الحراسة الواقع فى الطرف الغربى من الهضبة ، وهو الجزء الذى مازال يسمى إلى اليوم « بالقصبة » ، وبرج قمارش ، الواقع فوق قاعة السفراء التى سيأتى ذكرها ، وبرج للمزين و برج العقائل ، وبرج الآكام وبرج الأميرات . وهذه الستة أبراج الأخيرة تقع كلها فى شمال الهضبة وتطل على غرناطة المرج . وبرج الماء وهو يقع فى طرف الهضبة الشرقى ، وبرج الرؤس وهو يقع فى جنوب الهضبة . ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الأسماء هى من وضع الأسبان وأما أهم أبواب الحمراء الباقية ، فهى باب الغدور . وباب الطباق السبع وبرجه المسمى بهذا الأسم ، وهو الباب الذى تقول الرواية أن أبا عبد الله اخر ملوك الأندلس أستقبل فيه الفاتحين يوم التسليم وطلب أن يبنى مكانه حى لايجوزه إنسان بعده . وقد نزل الأسبان عند هذه الرغبة وبنى الباب ، وهو يبدو اليوم مغلقا ببنائه القديم . وباب الشريعة الذى سبقت الإشارة إليه . وكلاهما يقع جنوبى الهضبه . وباب السلاح الواقع فى شمال القصبة على مقربة من برج الحراسة . وباب النبيذ الذى سبقت الإشارة إليه وهو داخل الأسوار .

وتقع بعد « القصبة » فى الطرف الغربى من القصبة ، قلعة قديمة تسمى « حصن الأبراج الحمراء » .

وصف القصر :

إن قصر الحمراء ، أو بالحرى ماتبقى منه ، وهو أعظم وأروع الآثار الأندلسية الباقية ، كما أنه يعتبر من أبدع الآثار الإسلامية ، التى أبقت عليها حوادث الزمن ، وهو يبدو بعقوده ، وسقوفه ذات الزخارف البديعة ، وأعمدته الرخامية الرشيقة . وأناقته المتناهية ، من أجمل ماتقع عليه العين من الصروح الأثرية ، وهو مشرق منير يغمره الضوء والهواء . بيد أن مايسترعى النظر أن هذا الإشراق تطبعه لمحة من الأسى والكآبة . يحس بها المتأمل فى جنباته الصامته وكأنه إنما يرتد فى حسرة وأسى إلى عهد السيادة والعزة ، أيام أن كان قاعدة للملك لمملكة عظيمة .

ويمكن أن نقسم أبنية قصر الحمراء إلى جناحين كبيرين : الأول ، جناح قمارش الذى يضم قاعة السفراء ، وبرج قمارش الذى يعلوها ، وجناح الأسود الذى يتوسطه فناء الأسود .

والجناح الأول هو أول ما يرى الزائر ، وتتقدمه الساحة المعروفة باسم فناء البركة أو فناء الريحان وهو عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء ، تظللها أشجار الريحان . وقد نقشت فى زوايا فناء الريحان العبارة الآتية . « النصر والتمكين ، والفتح المبين لمولانا أبى عبد الله أمير المؤمنين » .

والآية الآتية : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . ونقشت على الأفريز الرخامى الأوسط لهذا الفناء . قصيدة من اثنى عشر بيتا ركيكة ، وبها كثير من الأغلاط . ويرجع ذلك كما سنرى ، إلى أن كثيراً من نقوش الحمراء الحالية هى من صنع محدث ، نقلت بالرسم عن النقوش القديمة . تحت إشراف الأثريين الأسبان وتسربت إليها عند النقل أغلاط كثيرة ، وهذا مطلع القصيدة المشار إليها :

تبارك من ولاك أمر عباده   فأولى بك الإسلام فضلا وأنعما

فكم بلدة للكفر صبحت أهلها   وأمسيت فى أعمارهم متحكما

ويفضى هذا البهو الذى يلى فناء الريحان ، من الناحية الشمالية ، إلى أعظم وأفخم أبهاء الحمراء . وهو البهو المسمى بهو قمارش أو بهو السفراء

وبهو قمارش هو أعظم أبهاء الحمراء ، من حيث سعته وارتفاع قبته الشاهقة ، وهو عبارة عن مستطيل مساحته نحو ثمانية عشر متراً فى أحد عشر ، وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً ، وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت الجدران على نفس الطراز ، وفى هذا البهو كان يعقد مجلس العرش » ويعلو بهو السفراء برج قمارش ، وهو مستطيل فى مثل مساحته .

وأروع ما فى بهو قمارش زخارف قبته ، التى لبثت محتفظة بنقوشها الأصلية . ونقد نقشت فى أسفل مدار القبة بحروف بيضاء نص سورة تبارك كلها، وأولها « بسم الله الرحمن الرحيم . تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ».

ونهايتها « قل أرأيتم أن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم . قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » .

ونقش فى محيط البهو بكثرة ظاهرة شعار بنى نصر : « ولا غالب إلا الله ».

ويفضى بهو البركة من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلى يعرف بفناء السرو ، وإلى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية ، وهو عبارة عن عدة حمامات رخامية تتخللها أبهاء صغيرة . ومازالت بها أماكن الأحواض ظاهرة ، وكذلك أماكن المواسير والصنابير .

وتقع شرقى فناء البركة قاعة الأختين وقد سميت بهــذا الاسم لأن أرضها تحتوى على قطعتين متساويتين من الرخام فريدتين فى ضخامة الحجم وقد نقش عند مدخلها بالكوفية « ولا غالب إلا الله » مكررة .

وتفضى قاعة الأختين من بابها الجنوبى إلى أجمل وأشهر أجنحة الحمراء ونعنى فناء الأسود أو بهو الأسود وما إليه .

وقد قام بانشاء هذا القصر أو هذا الجناح . الذى يسبغ على الحمراء أكبر قسط من الروعة والفخامة والبهاء . السلطان محمد الغنى بالله الذى تولى العرش فى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) وتوفى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) والذى مازال اسمه ماثلا فى مواضع كثيرة من هذا الجناح .

ويعتبر فناء الأسود أو كورة السباع بطرازه المصقول وقبابه المضلعة ، وأعمدته الرشيقة ، وزخارفه البديعة ، ونافورته الفريدة التى تحملها الأسود . أروع أجنحة الحمراء وأوفرها رواءا وسحراً . وهو عبارة عن فناء مستطيل مكشوف طوله خمسة وثلاثون مترا وعرضه عشرون ، تحيط به من الجوانب الأربعة مشرفيات أو أروقة ذات عقود تحملها مائة وأربعة وعشرون عمودا من الرخام الأبيض ، صغيرة الحجم متناهية فى الجمال والرشاقة وعليها أربع قباب مضلعة . تقع كل واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل ، اثنان منها تتقابلان شرقاً وغرباً والأخريان تتقابلان شمالا وجنوبا ، وهى متماثلة الصنع والزخرف ويحمل كل منها عدد متماثل من الأعمدة .

وفى وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافورة ماء يحمل حوضها المرمرى المستدير الضخم اثنا عشر أسداً ، صفت على شكل دائرة ونحتت من الرخام الأبيض الذى اسمر بمضى الزمن .

وفى منتصف الناحية الجنوبية من بهو الأسود ، يوجد مدخل قاعة بنى سراج وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة التى لعبت دوراً كبيراً فى حوادث غرناطة الأخيرة . وهذه القاعة عبارة عن مستطيل مساحته نحو اثنى عشر مترا فى ثمانية غطت أرضه بالرخام المرمرى ، وفوقه قبة عالية ، مضلعة الدائرة ، وفى جوانبها كوات صغيرة هى التى تمد القاعة بالضوء ، وفى كلا الجانبين الأيمن والأيسر عقد عربى بديع ، وقد زين عقد الباب وهو من الخشب المعقود بزخارف إسلامية جميلة . وحفرت فى دائرة القبة من الداخل مقرنسات مثلثة . ليست هى زخارفها الأصلية بل هى من صنع الأسبان .

وفى الناحية الشرقية لفناء الأسود مدخل القاعة التى تسمى قاعة الملوك أو قاعة العدل .

وفى شمال فناء الأسود . وشمال قاعة الأختين ، يقع البهو ، المسمى منظرة اللندراخا ولقد اختلف فى تفسير هذا الاسم ويرى بعض المستشرقين الأسبان

أنه فى الأصل تحريف لثلاث كلمات عربية هى « عين دار عائشة » وأن عائشة هذه كانت من ملكات غرناطة فى القرن الرابع عشر الميلادى (وهى غير عائشة الشهيرة والدة أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس) وأن كلمة عين هنا تعنى «النافذة» وهذه القاعة هى عبارة عن بهو صغير مضلع يفضى إليه رواق ذو نافذتين ومدخله عقد بديع الزخرف وله نافذة ذات عقدين فى أعلى وعقدين آخرين على الجانبين .

مسجد الحمراء . . أين هو ؟ . قد حول إلى كنيسة ؟

وكان مسجد الحمراء يقع فى وسط الهضبة ، جنوبى الروضة فى نفس المكان الذى تحتله اليوم كنيسة سانتا ماريا . وقد أمر بانشائه السلطان محمد المخلوع المعروف بمحمد الثالث ملك غرناطة (سنة ١٣٠٢ — ١٣٠٩ هـ) أنشأه على أبدع طراز وزوده بالعمد والزخارف والثريات الفخمة ، فكان على صغر مساحته من أفخم مساجد غرناطة .

ولما احتل الأسبان غرناطة ، تركوا المسجد على حاله ، بعد أن أقاموا فيه هيكلا واستعملوه كنيسة ، ثم هدم فى سنة ١٥٧٦ فى عصر فيليب الثانى ولد الامبراطور شارلمان وأقيمت مكانه الكنيسة التى سميت باسم « كنيسة سانتا ماريا » وقد بنيت على شكل صليب لاتينى وهى ذات برج شاهق يعلو كل صروح الحمراء . ولم يبق من آثار مسجد الحمراء القديم سوى مصباح برونزى بديع الزخرف يحفظ الآن بمتحف مدريد الوطنى .

حصن أو قصبة جيان :

تقع جيان فى قلب الاندلس المسلمة القديمة ، وأهم معالمها الحصن أو القصبة الاندلسية . ويقع برج القصبة الأعظم وسط هذه الأطلال ، وهو مربع الشكل ويبلغ ضلعه فى العرض نحو خمسة عشر مترا وارتفاعه نحو ثلاثين ، وفى أسفله مثلث من العقود الضخمة ، تستند إلى دعامة سميكة ، وتقوم فوق البرج قبة عظيمة ذات دائرتين متقاطعتين ، وفى كل جانب منه نافذة عظيمة ، وتعلوها قبة

أخرى أقل ارتفاعا ، ثم يلي ذلك السطح والمشارف ، وتبلغ للساحة التي تعلوها القبة نحو اثنى عشر مترا فى مثلها ، ويوجد وراء هذا البرج فناء شاسع به مجموعة من اطلال الأسوار ، وعقود وأبراج صغيرة ، وإلى شرقيه برج آخر أصغر منه. يتصل به بممر خاص .

ويستند الحصن من الوراء إلى صخرة منيعة من الأحجار الزرقاء الصلدة ، وينتهى عند الجنوب ببرج صغير ذى عقد ، وأمامه ساحة فى اسفلها طابق من ثلاث غرف يبدو أنه كان يستعمل سجنا .

وهنا ، فى هذه الساحة ، تقع العين على طلل اندلسى مؤثر ، هو بقايا مصلى إسلامية قديمة ، تعلوها قبة صغيرة . ومدخلها عقد عربى ، وجوانبها الثلاثة ، ثلاثة عقود ، والظاهر أنها كانت مصلى خاصة لحاكم القصبة .

علما السلطان أبى الحسن المرينى طليطلة

على أن أهم ما يثير طلعة الباحث بين ذخائر كنيسة طليطلة ، هو علما السلطان أبى الحسن المرينى ، اللذان غنمها الاسبان ، فى موقعة سالادور أو موقعة طريف . وهى للوقعة التى نشبت بين الاسبان ، وبين المسلمين بقيادة السلطان يوسف أبى الحجاج والسلطان أبى الحسن المرينى الذى عبر إلى اسبانيا لنجدة المسلمين ، وذلك فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٣٤٠ م (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) وهزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وسقط معسكر السلطان أبى الحسن فى يد النصارى وكان من اسلابه هذان العلمان اللذان ما زالت تحتفظ بهما حتى اليوم اسبانيا النصرانية ، عنوانا لظفرها فى ذلك اليوم المشهود .

وقد علق هذان العلمان الإسلاميان ، على جدران قاعة الثياب المقدسة وأولهما عبارة عن سجادة كبيرة مذهبة الجوانب ، طولها ٣٫٧٠ مترا وعرضها ٢٫٢٠ مترا ، ذات لون أصفر ، وقد نقشت فى شريطها الأعلى والأسفل بحروف بيضاء هذه العبارة : « النصر والتمكين والفتح المبين ، لمولانا أبو الحسن أمير المسلمين .

نقش فى باطنها ، فى عدد من الدوائر بلغت ستة عشرة ، العبارات الآتية بأحرف سوداء : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » الحمد لله على نعمه » « الملك الدائم » العز القائم « اليمن الدائم » .

وفى ذيلها أنها صنعت للسلطان فى المدينة البيضاء فى شهر جمادى الآخر عام أربعين وسبعمائة .

وثانيهما عبارة عن سجادة أصغر حجما ، يبلغ طولها ٢٫٨٠ مترا وعرضها ٢٫٢٠ مترا ، وقد علقت إلى جانب الأولى ، ذات لون أزرق ، ونقوشها من النواحى الأربعة بيضاء ، وفيها عدة أهلة ونجوم . وقد نقش فى شريطها الأفقى الأعلى ما يأتى : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وفى الشريط العمودى الأيمن ما يأتى : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله » .

فى الشريط الأفقى الادنى تكملة الآية : بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .

« وما النصر إلا من عند الله » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه» « نصر من الله وفتح قريب » « وما توفيقى إلا بالله » .

وفى الشريط العمودى الأيسر : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » .

ونقشت فى الأهلة وعددها ستة عشر عبارة « لا إله إلا الله » ، فى ثمانية منها ، و « محمد رسول الله » فى الثمانية الأخرى ، وعدد النجوم عشرون .

وفى ذيل هذا العلم ، أنه صنع لأمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق فى قصبة فاس ، فى شهر المحرم سنة اثنى عشر وسبعمائة ، والسلطان المذكور هو أبو يوسف المنصور الجد الثانى للسلطان أبى الحسن .

علم اسلامى بالدير الملكى برغش :

ومكتوب تحته بالأسبانية : غنيمة انتزعت من العدو (للمسلمين) فى موقعة هضاب تولوسه .

والموقعة المشار إليها فى هـــذا التعريف ، هى الموقعة الشهيرة التى تعرف فى التواريخ الإسلامية بموقعة العقاب أو حصن العقاب. والتى وقعت فى سنة ٦٠٩هـ ١٢١٢ م بين الموحدين ، وجيوش أسبانيا النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو الثامن فى هضاب تولوسه على مقربة من بياسة ، وهزم فيها الموحـــدون هزيمة شنيعة .

أما هذا العلم الذى كان بين غنائم النصارى فى الموقعة ، فهو عبارة عن سجادة كبيرة طولها ٣٫٣٠ متراً ، وعرضها ٢٫٢٠ مترا ، وبها فى الوسط دائرة كبيرة صفراء ، يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة . وقد ملئت الدائرة والمربع بنقوش إسلامية جميلة . ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة . أحزمة بنية ، نقشت عليها آيات قرآنية بخط أزرق ، وفى ذيلها دوائر نقشت فيها أوعية مختلفة .

وقد كتب فى أعلى العلم فى شريط بنى بالأزرق ما يأتى :

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ». وكتب تحته فى الشريط الذى فوق المربع ما يأتى :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » .

وكتب فى الشريط الذى على يمين المربع ما يأتى :

« تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .

وفى الشريط الذى على يساره تكملة الآية :

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات » .

وفى الشريط الذى فى أسفله هذه التكملة :

« تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك . . » .

وأما فى دوائر الذيل فقد نقشت الأدعية الآتية على التوالى ، بخطوط زرقاء على رقعة بيضاء :

« العافيــة البــاقية ، الغبطة للمتصــلة . الســلامة الدائمة . العــافية البركة . السلامة الدائمة .

إقرار تسليم الأندلس وعباءة أبي عبد الله محمد بمتحف مدريد الحربي :

يضم متحف مدريد الحربي بعض الآثار الأندلسية ترتبط كلها بمأساة الأندلس . وأهم هذه الآثار اقرار أبي عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بخطه بالموافقة على نصوص آخر معاهدة للتسليم .

وإلى يمين هذا الإقرار الذي يحـكي قصة انحسار المـد الإسلامي من ربوع الأندلس ، تعرض العباءة الملوكية التي تنسب إلى أبي عبد الله وهي عباءة نصفية من المخمل أرجوانية اللون ، وعليها نقوش عربية جميلة بيضاء . وقد كتب تحتها أنها عباءة أبي عبد الله ، وأنها أهديت إلى المتحف من أسرة المركيزة ماريا دل كارمن بيرث .

وإذا صح حقيقة أنها عباءة أبي عبد الله . فأغلب الظن أنها أخذت منه في معركة حصن اللسانة ، التي وقعت بين المسلمين والنصارى في أبريل سنة ١٤٨٣ ، قبل سقوط غرناطة بعدة أعوام ، وقاد فيها قوات المسلمين أبو عبد الله وهو يومئذ سلطان غرناطة الفتى ، وقد اسر فيها أبو عبد الله ، وقضى في أسره في بلاط الملكين الـكاثوليكيين زهاء ثلاثة أعوام . وربما أخذ منه سلاحه وثيابه الملكية يومئذ ، عنوانا لظفر النصارى وتذكارا من هذا الأسير الملكي .

سيف الأمير على العطار متحف مدريد

وهو عبارة عن سيف أندلسي ضخم بمقبض ثمين مموه بالذهب ، ومرقوم بأنه سيف على العطار .

وهذا السيف هو تذكار بطولة أندلسية خالدة ، فقد كان صاحبه الأمير على العطار قائدا بطلا ، من أبطال الصراع الأخير بين المسلمين والنصارى ، وكان يرتبط بملك غرناطة السلطان أبي عبد الله برباط المصاهرة ، إذ كان السلطان

متزوجا بابنته الحسناء مريم . وقد أبدى على العطار بسالة نادرة فى الدفاع عن مدينة لوشة ، التى كان قائدا لحاميتها حينما هاجمها النصارى فى يولية سنة ١٤٨٢ . وكان يومئذ فى الثمانين من عمره . ولكنه كان بالرغم من شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان الأندلس . وقد أخذ هذا السيف منه فى معركة اللسانة التى خاضها ضد النصارى مع أبى عبد الله وأسر معه فيها .

مجموعة الكتب العربية بمكتبة الاسكوريال :

ولهذه المجموعة الفريدة من تراث المكتبات الأندلسية ، قصة مؤثرة أيضاً. فانه لما سقطت مدينة غرناطة آخر الحواضر الإسلامية فى يد الأسبان فى فاتحة سنة ١٤٩٢ م ، كانت ما تزال غاصة بالمكتبات والمجموعات الخاصة . من نفائس التراث الأندلسى، هذا عدا ما كان محفوظا فى غيرها من المدن الإسلامية الأخرى، التى افتتحها الأسبان فى هذا الوقت ، مثل وادى آش ومالقة والمرية ورندة وغيرها . وفى سنة ١٤٩٩ أعنى بعدسقوط غرناطة بأعوام قلائل ، بدأت السياسة الأسبانية فى تنفيذ خطتها المبيتة فى تنصير المسلمين ، والقضاء على مقوماتهم الروحية والفكرية والاجتماعية ، فدعتهم إلى التنصير وتوسلت إلى فرضه عليهم بمختلف الوسائل ورأى الكردينال خمنيس مطران طليطلة، وبطل هذه السياسة الموضوعة، أن يقرن هذه المحاولة بمحاولة القضاء على آثار التفكير الأندلسى ، لكى يحرم أبناء الأمة المغلوبة ، من قوتهم الروحى والعقلى ، فأمر بجمع آثار التفكير الأندلسى من أنحاء غرناطة وغيرها، وجمعت الكتب الأندلسية أكداسا مكدسة فى ساحات غرناطة، واحتفل بإحراقها فى حفل من أعمال الإيمان ـ كما يتوهمون ـ ولم يستثن منها سوى ثلثمائة كتاب من كتب الطب والعلوم، وهبت لجامعة ألكالا « القلعة » دى هنارس وبلغ ما هلك من الكتب العربية فى تلك المحنة ، أكثر من مائة ألف كتاب . وذلك وفقاً لأدق التقديرات وأكثرها اعتدالا .

ومن الغريب أن هذا العمل الذى يشين أى مجتمع متمدن ، والذى يندد به كثير من أقطاب التفكير الأوربى ، يجد بين العلماء الأسبان المحدثين، من يؤيده ويشيد به وبنتائجه فى حماية سياسة التنصير الأسبانية . ويكفى أن نشير إلى رسالة

للمستشرق سيمونيت فى هذا الموضوع، وإلى ما يبديه فيها من حماسة بالغة فى الدفاع عن تصرف الكردينال خمنيس .

واستمرت أسبانيا النصرانية فى تعقبها للكتب العربية ومطاردتها ، ثم حظر استعمال اللغة العربية على الموريسكيين أو المسلمين المتنصرين ، وفرضت عليهم اللغة القشتالية فى الكتابة والتعامل ، وخمدت بذلك آخر جذوات التفكير الأندلسى ولم تبق يد التعصب والجهالة إلا على بقية يسيرة من الآثار الإسلامية ، جمعت وحملت فيما بعد إلى قصر الاسكوريال ، لتودع فيه فى المكتبة الملكية ، لا كتراث عقلى ينتفع به فقط ، ولكن أيضا كتحفة وغنيمة من غنائم النصر الأسبانى .

الفصل التاسع

يشكل المسجد أثراً بارزاً بين الآثار الإسلامية المادية ؛ فما هو الدور الذى يجب أن يؤديه فى حياة الأمة المسلمة ؟

يقول الله سبحانة وتعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . . » وفى موضع آخر من القرآن يقول الله سبحانه « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا » .

وروى عن أبى مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل « أى البقاع خير ؟ قال : لاأدرى قال : فاسأل عن ذلك ربك عز وجل ، قال فبكى جبريل عليه السلام . وقال : يامحمد ، ولنا أن نسأله ؟ هو الذى يخبرنا بما يشاء ، فعرج إلى السماء ، ثم أتاه فقال : خير البقاع بيوت الله فى الأرض . . (رواه الطبرانى فى الأوسط) [1] .

ولقد أدرك المسلمون الأوائل هذه الحقيقة ، فأنشأوا المساجد ، ليمارسوا فيها عبادة ربهم وخالقهم ، ويقودوا من المسجد أيضاً ، حياتهم فى كل اتجاه ففيه كانوا يتعهدون أبناء المسلمين بالتربية الإسلامية الصحيحة . . وفيه كان يستقبل السفراء وفيه كانت تعقد الألوية لأمراء الجيوش الإسلامية ، وفيه كانت تقبل البيعة ويعلن الخلفاء سياستهم للناس . وفى المسجد كانت تعقد مجالس القضاء ، بل وفى بعض جوانب منه كان يعالج المصابون أيام غزوة الأحزاب » .

ولما كان للمسجد يشكل أثراً بارزاً بين الآثار الإسلامية المادية ، يحق لنا أن نتساءل عن الدور الذى كان يؤديه على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه والسلف

---

(١) الحافظ أبى محمد زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى ، المنذرى ؛ الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٧٢ .

والتابعين رضوان الله عليهم ؟ إن أهم الأدوار التى كان يؤديها المسجد فى عهود الأزدهار الإسلامى ، والتى عجزت دور العلم الحالية فى العالم عن أدائها رغم ماهو محشود لها من إمكانيات مادية ضخمة — هو تربية أبناء المسلمين تربية إسلاميه صحيحة ، تجعلهم لبنات صالحات فى بناء المجتمع الإسلامى الذى لاتلهيه تجارة أو بيع عن ذكر الله والجهاد فى سبيله فما هو قوام تلك التربية الإسلامية الصحيحة ؟

أو بعبارة أخرى ماهى الأسس التى قامت عليها تلك التربية الإسلامية الصحيحة ؟ إن تلك التربية الإسلامية الصحيحة ـ كانت تقوم ـ فى حياة الرسول محمد ﷺ على الأسس التاليه :

الأساس الأول : رب هو الإله الخالق وحده المعبود وحده ، المتصف بكل صفات الجلال والكمال التى أقرها لنفسه والذى من أسمائه — سبحانه وتعالى — « الرب » الذى من معانيه المتعهد بالإصلاح والتربية وأيضاً أنه الملك والسيد أى صاحب الحق وحده فى وضع المنهج والشريعة التى تسير عليها البشرية . وعلى عينيه سبحانه تربى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأساس الثانى :

المادة العلمية التى تربى عليها الرسول الكريم فى مدرسة الرحمن . . إنها القرآن الكريم . . وكان الدرس الأول : « إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . أقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » .

الأساس الثالث :

شخصية الرسول المختار صلى الله عليه وسلم الطالب النجيب الأمين الذى باع نفسه لله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والذى قال لعمه مامعناه والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو اقضى دونه .

والذى مدحه الله سبحانه وتعالى بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

هذه التربية الإسلامية الناجحة ، كان قوامها فى حياة الصحابة :

الرسول صلى الله عليه وسلم الذى حمل مسئوليات المعلم والمربى ، لم يحملها جزافاً ولكنه كان أهلا لها فهو الرحمة المسداة والأسوة الحسنة . الذى سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه فقالت : كان خلقه القرآن .. هذه هى نوعية المربى الذى تتلمذ على يديه أبو بكر وعمر وأبو ذر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف .

أما مادة التربية فكانت هى . . هى . . القرآن الكريم . . وتوجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم ممثلة فى الحديث والسنة .

ثم القوام الثالث ، هو صحابة رسول الله رضوان الله عليهم . . والذى فيهم قال الله سبحانه وتعالى : محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .

وعنهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ... » .. وكان يقول مامعناه لاتسبوا أصحابى فلو انفق أحدكم مثل أحد ذهباً مابلغ مد أحدهم » .

وكان بودى أن نستعرض تلك النماذج لرفعة . نموذج رسول الله صلى الله عليه وسلم لنرى كيف كان صلوات الله وسلامه عليه مربيا وأبا وأخا وقائداً وإماماً ويكفينا الآن شهادة الله « وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين . . . » .

أما نماذج الصحابة كأبى بكر وعمر فقد قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مامعناه « وزنت بالأمة فرجحت ، ووزن أبو بكر بالأمة لست فيها فرجح ووزن عمر بالأمة لست فيها وأبو بكر فرجح . . أى أن أبا بكر كان أثقل من الأمة جميعها إيمانا وقولا وفعلا وعملا . وكذلك كان عمر . . رضوان الله عليهم .

نماذج رفيعة نذرت نفسها لله وباعت نفسها فى سبيل الله تربت فى المسجد وخارج المسجد . . رباها وتعهدها الله ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكانت مادة التربية القرآن والسنة . .

ثم جاء السلف الصالح رضوان الله عليهم . . وقد أدركوا هـذه الحقيقة ، كما أدركوا عظم المسئولية الملقاة على عاتقهم . فساروا على نفس المنهج متخذين من الإسلام عقيدة وشريعة . . فـكانت تلك النماذج من قادة الفتح الإسلامى التى أمتدت دولة الإسلام على أيديهم فى قلب فرنسا فى الغرب إلى حدود الصين فى الشرق ومن سيبيريا فى الشمال إلى المحيط فى الجنوب . .

وذلك يعنى أن السبيل القويم لتربية وإعداد المسلم : هو المعلم . . . المربى الذى يلتزم ويمارس الإسلام كعقيدة وشريعة فى حياته العملية . . حتى يكون أسوة حسنة ؟ المعلم . . الذى لايجعل الدنيا أكبر همه لا مبلغ علمه . . فيلوى أعناق النصوص القرآنية والحديث للتملق الرخيص والفتاوى الخاطئة . . . إنما المعلم الذى يعلم جيداً أن للـكلمة مدلولا . وان الإنسان سوف يحاسب عليها . . المعلم الذى هدفه عبادة الله . . فى كل خطوة من خطواته . . . المعلم الذى يقتدى برسول الله الذى كان مربياً . . فهو الذى يؤم المصلين فى الصلاة ، وهو الذى يقود جيوشهم فى الحرب . وهو الذى يعود مرضاهم . . . وهو الذى يستقبل الوفود . . وهو الذى يشارك الناس أفراحهم وأحزانهم . . وهو الذى يربيهم بسلوكه الملتزم بالقرآن . . فـكان صلوات الله وسلامه عليه . قرآنا يسير على قدميه . . والمعلم الذى لايقتدى برسول الله . . لايمـكن أن ينجح فى تربية جيل مسلم . . وأمثال هؤلاء المعلمين المسلمين . كثير فمنهم أبو حنيفة (١٥٠ هـ) ، ومالك (١٧٩ هـ) والشافعى ٢٠٤ هـ . وأحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) . . لقد خلق كل منهم ثروة علمية تنوء بها المجامع العلمية . .

الإمام أبو حنيفة المعلم الفقية . . عرض عليه منصب القضاء مرتين فرفض وأمتنع ومات فى السجن . .

الإمام مالك المربى الفقيه ضرب مائتى سوط لاجل كلمة حق جهر بها وهى أن طلاق المكره ليس بشىء .

الإمام ابن حنبل الذى كان يحضر مجالس علمه عدد يبلغ خمسة آلاف . . ضرب وعـذب وسجن لأنه عارض السلطة ودافع عن الـكتاب والسنة . والفـكر الإسلامى .

وقبل الابتلاء بالسجن والتعذيب فى عهد المعتصم ابتلى بالجوائز والهبات ولكنها رفضها فى عهد الخليفة المتوكل .

تلك هى نماذج للمعلمين الذين تربوا على مائدة القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كيف أمكن تربية الجندى المسلم فى رحاب المسجد :

وهنا يقدم لنا الأخ الأستاذ محمود شيت خطاب درسا مفيدا عن كيف نجح المسجد فى عهد رسول الله وفى عهد صحابته والسلف الصالح رضوان الله عليهم فى أداء دوره فى تربية المسلم الجندى المحارب فى جيش الرحمن، حينما تحققت العناصر الثلاث : المربى المسلم ، العلوم الاسلامية الطالب المسلم . .

فى المسجد يتلقى المؤمنون تعاليم الدين الحنيف ، وفى المسجد يقوى الإيمان ويشتد ، فما هو أثر المسجد فى العسكرية ؟

أن أثر المسجد فى العسكرية هو أثر الاسلام فيها ، إذ المسجد ليس بأحجاره وجدرانه بل بالعلماء العاملين الذين يحافظون على كرامة الاسلام وعلى الطاعة ، والطاعة هى الضبط والنظام ، (وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .

وأشاع الاسلام معانى الخلق الكريم ، ومنه الصبر الجميل (ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) .

وغرس الاسلام روح الشجاعة ، والأقدام : (ياأيها الذين آمنوا إذ لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبأس المصير) .

والتولى يوم الزحف من الكبائر ، كما نص على ذلك حديث رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام .

وأمر الإسلام بالثبات فى ساحة القتال (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) .

ودعا الإسلام إلى الجهاد بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

وقال تعالى : (انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله . وانظر تفسير هذه الآية الكريمة فى (الكشاف) للزمخشرى، لتجد أن للمسلمين سبقوا العالم إلى مفهوم الحرب الإجماعية التى تنص على : إعداد الأمة بكل طاقاتها المادية والمعنوية للحرب بينما زعم المشير لورونذروف بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) فى كتابه (الأمة فى الحرب) بأنه اول من فكر فى الحرب الاجماعية .

وبين الإسلام أن المصلحة العليا للمسلمين لابد أن تكون لها الأسبقية على كل شىء فى الدنيا (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

وجعل الإسلام مقام الشهداء من أعظم المقامات (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) وقال تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) وقال تعالى (ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما) .

كما أن الإسلام يصاول الحرب النفسية التى تستهدف القضاء على الطاقات المعنوية للإنسان ليستسلم للأعداء .

ولعل أهم أهداف الحرب النفسية هى التخويف من الموت والفقر ومن القوة الضاربة للمنتصر ، ومحاولة جعل النصر حاسما ، والدعوة إلى الاستسلام

وبث الإشاعات والأراجيف وإشاعة الاستعمار الفكرى بالغزو الحضارى ، وإشاعة اليأس والقنوط .

المؤمن حقاً لا يخشى الموت (إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وقال تعالى : (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وقال تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) ، وقال تعالى : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) . وقال تعالى . (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) . وما أصدق قوله خالد ابن الوليد رضى الله عنه : ما فى جسمى شبر إلا وفيه طعنة رمح أو سيف . وها أنا أموت على فراشى كما يموت البعير . فلا نامت أعين الجبناء .

والمؤمن حقاً لا يخاف الفقر لأنه يعتقد اعتقادا جازما بأن الأرزاق بيد الله سبحانه وتعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) . وقال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) . وقال تعالى (فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) .

والمؤمن حقا لا يخشى قوات العدو الضاربة ، فما انتصر المسلمون فى أيام الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام وفى أيام الفتح الإسلامى العظيم بعدة أو عدد بل كان انتصارهم انتصار عقيدة لا مراء . قال تعالى : (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين وقال تعالى : (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) .

والمؤمن حقاً لا يقر بانتصار أحد عليه ما دام فى حماية عقيدته ، لذلك فإن انتصار العدو فى معركة ما قد يدوم ساعة ، ولكنه لا يدوم إلى قيام الساعة (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

والمؤمن حقا لا يستسلم ابدا ، لأنه يعلم بأن بعد العسر يسرا وإن العزة لله

ولرسوله وللمؤمنين (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) وقال تعالى : (لا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم) .

والمؤمن حقا لا يصدق الإشاعات والأراجيف (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) . وقال تعالى : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم) وقال تعالى : (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه) .

والمؤمن حقاً يقاوم الاستعمار الفكرى ويصاول الغزو الحضارى ، لأن له من مقومات دينه وتراث حضارته ، ما يصونه من تيارات المبادىء الوافدة التى تذيب شخصيته وتمحو آثاره من الوجود .

والمؤمن حقاً لا يقنط أبداً ولا ييأس من نصر الله ولا رحمته (لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وقال تعالى : (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) وقال تعالى : (وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) وقال تعالى : (وإن مسه الشر فيؤوس قنوط) .

ولكن القول بأن الإسلام يؤجج الحوافز المعنوية فى المقاتل لغنى عن كل قول . والواقع هو أن فى الإسلام حوافز (مادية) لا تقل أهمية عن الحوافز المعنوية تعمل عملها جنباً لجنب الحوافز (المعنوية) ، فالإسلام دائما (مادة) و (معنويات) . ومن أهم الحوافز المادية ، عدم الاستهانة بالعدو أولا ، والإعداد الحربى تدريبا وتسليحاً وتنظيما وتجهيزاً وقيادة ثانيا .

لقد اغتر المسلمون بعددهم يوم (حنين) فغلبوا على أمرهم فى الصفحة الأولى من صفحات ذلك اليوم العصيب (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) .

والحذر واليقظة من مظاهر عدم الاستهانة بالعدو (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) وقال تعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم هم

العـــدو فاحذرهم) وقال تعالى : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا) . وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقال تعالى : (فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) .

إن الاستهانة بالعدو ، تؤدى حتما إلى الانحدار ، وما أصدق المثل العربى القائل : إذا كان عدوك نملة ، فلا تنم له .

والاعداد الحربى إعدادا متكاملا يرفع المعنويات ويقوى الثقة بالنفس ويؤدى إلى النصر قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) وقال تعالى: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) .

تلك هى لمحات من الحوافز المعنوية والمادية فى الإسلام ، ليجعل من الأمة المسلمة التى تعمل بتعاليمه أمة لا تقهر أبداً .

ذلك لأن الاسلام بتعاليمه السمحة الرضية ، جعل من المسلم الحق ، مطيعاً لا يعصى ، صابرا لا يتخاذل ، شجاعا لا يجبن ، مقداماً لا يتردد ، مقبلا لا يفر ، ثابتاً لا يتزعزع ، مجاهداً لا يتخلف ، مؤمنا بمثل عليا ، مضحياً من أجلها بالمال والروح يخوض حربا عادلة لإحقاق الحق وإزهاق الباطل .

لا يخاف الموت ، ولا يخشى الفقر ، ولا يهاب قوة فى الأرض ، يسالم ولا يستسلم ولا تضعف عزيمته الأراجيف والإشاعات، لا يستكين للاستعمار الفكرى ويقاوم الغزو الحضارى ، ولا يقنط أبدا ولا ييأس من رحمة الله .

هذا المسلم الحق ، يقظ أشد ما تكون اليقظة، حذر أعظم ما يكون الحذر يتأهب لعدوه ويعد العدد للقائه ، ولا يستهين به فى السلم والحرب .

وهذا ما يفسر سر انتصار المسلمين الأولين لأن شعارهم كان (قـل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) النصر أو الشهادة .

ولأن المسلمين كانوا يحرصون على الموت حرص غيرهم على الحياة (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) .

واشهد أنى لم أقرأ ، حتى فى كتب التعبية وسوق الجيش ، الصادرة فى القرن العشرين . أوضح تعبيراً وأدق تعريفاً وأكثر شمولا ، مما جاء فى القرآن الكريم فى هذه الآية الكريمة تعريفاً للمجاهد الصلب المقاتل الرهيب بل لا يقتصر معناها على المجاهد المثالى وحده . بل يشمل تعريف للعنويات العالية أيضاً ، تلك هى عظمة القرآن الكريم حتى فى المجالات العسكرية ولكن ياليت قومى يعلمون .

إن دور المسجد لا يقتصر على غرس هذه المثل العليا العسكرية فى عقل المسلم الحق ونفسه بل إن روح المسجد الذى يتسم بذكر الله يجعل القلوب تطمئن والنفوس تهدأ اتجاها إلى العمل لصالح خدمة الإسلام كما أن صلاة الجماعة تدريب عملى على الضبط والربط والنظام .

لقد بدأت منذ ظهور الإسلام الصلاة العامة، ثم قامت صلاة للجماعه التى أداها المسلمون وراء إمام واحد وهذه الإمامة يقوم بها رجل واحد يؤم المصلين جميعاً ينفذون ما ينفذ تماما يقوم بها رجل مطهر يؤمن أصحابه بصدقه ، هى تطبيق للقيادة فى إصدار أوامرها وتنفيذها من الجنود .

ومن يرى المسلمين وهم مجتمعون صفوفا للصلاة يؤدون ركعاتها وسجداتها فى تناسق مدهش وفى نظام ووقار لا يمكن أن يغفل ما لهذه الصلاة المنظمة من قيمة تربوية عسكرية فى نفوس المسلمين .

إن العرب والأعراب أباة لا يخضعون لمشيئة خارجية ، ولكنهم كانوا يفتقرون إلى الشعور التام بالطاعة والنظام ، فكانت لهذه الصلاة أهمية بالغة فى (إيقاظ) روح النظام فى نفوس العرب والأعراب الذين دخلوا الإسلام لذلك غدا المسجد أول ميدان حقيقى للتدريب العسكرى عند المسلمين .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤم ألفين في عمرة القضاء ومائة ألف في حجة الوداع ، يسيرون كلهم في أدق نظام هرولة ومشياً واستسلاما للركن أو الحجر الأسود ، هذا النظام المتصل بروح ا سلام سبب من أسباب القوة بل هو مصدرها وملاكها .

إن الإسلام دين نظام . . والنظام روح العسكرية . . وعمودها الفقرى والمسجد هو المكان الأول لفرض النظام والتدريب العملى على تعاليم الإسلام .

فما أحرانا أن نعود إلى المسجد مقراً للقيادة ، ومكانا لرفع المعنويات وموضعا للتدريب وموقعا للسمو الروحى .

هل المسجد — الآن — يؤدى نفس الدور الذى كان يؤديه على عهد رسول الله وصحابته من بعده ؟

والآن إذا ما استعرضنا واقع أبناء المسلمين ، ندرك أن المسجد لم يعد يؤدى نفس الدور الذى كان يؤديه على عهد رسول الله أو على عهد صحابته رضوان الله عليهم . .

صحيح إن المسجد لبس حلة قشيبة من البناء والزخارف . . ولكنه عجز عن تخريج نموذج واحد يستطيع أن يرد على هذه الأمة الاسلامية الممزقة المستباحة وحدتها . .

بل أن دور العلم من جامعات ومعاهد ومدارس انتشرت فى جنبات العالم عجزت عن إعطائنا نموذجا واحدا لأبى بكر وعمر وخالد أو صلاح الدين ... وإلا فأين هذا النموذج ؟ .

وإذا كان هذا النموذج موجودا فقولوا لنا لماذا استباح أعداء الله بلاد المسلمين وأموالهم ودماءهم ونساءهم فى جنوب شرقى آسيا وفى الصين وفى روسيا التى يمثل $\frac{1}{3}$ من أرضها أصلا ممالك إسلامية . . أين الأندلس . . أين شبه جزيرة البلقان . . أين صقلية وكريت . . أين القدس وفلسطين . . إنها الآن فى أيد

الصليبيين واليهود . . أنها مكبلة بالأغلال لا تملك من أمر نفسها شيئاً . . .
لماذا لاتحطم الأغلال . . لماذا لا تستعاد أرض الإسلام السليبة لماذا لا يزاح طواغيت الأرض . . لأنه ليس هناك تلك النماذج الفريدة التى عاشت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعده .

إن هذه الحقيقة ليست كل ما هنالك ، بل هنالك حقيقة أخرى . وهى أن دور العلم فى بلاد المسلمين ـ أصبحت تخرج أجيالا لا تعرف ربها ولا دينها فأصبحت سيفاً آخر مسلطا على رقاب المسلمين من أبناء جنسهم ووطنهم .

إن عجز المساجد ، ودور العلم عن أداء دورها الذى يريده الله سبحانه وتعالى لها ، يقع اللوم فيه وحده على أبناء الأمة المسلمة الذين لا يعرفون لله قدره ، ولا يقرون له بالالوهية والربوبية . ولا يتلقون عنه المنهج والشريعة التى يشرعها لبنى البشر . . . أى أنهم تخلوا عن مقومات إسلامهم فتخلى الله عنهم . .

فالله يقول: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئاً . ووعد الله لا يتخلف ، ولكن أبناء الأمة المسلمة هم الذين تخلفوا .

ولكن يضاف إلى تمرد أبناء الأمة المسلمة على الله سبحانه وتعالى ، كيد أعدائها المستمر ليل نهار لكى تبقى غائبة عن الوجود وعن الوعى ، حتى يسهل الإجهاز عليها والسيطرة على مقدرات البشرية . . .

هؤلاء الاعداء سعوا حثيثا لتحقيق أهدافهم . وذلك عن طريق الغزو الفكرى الثقافى الروحى والذى اقترن بالغزو العسكرى لبلاد الشرق الإسلامى ، وهذا الغزو الثقافى لا يقل خطورة عن الأول ويهدف إلى القضاء على الاسلام فى قلوب المسلمين ، يعتمد على وسائل عديدة لتحقيق أهداف أعداء الأمة المسلمة هذه الوسائل ، تبدأ بتنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم وإحلال القانون الوضعى بدلا منها فإن الحكم بالشريعة إذا ألغى فسيتبع ذلك حتما تخلخل بقية عرى الإسلام عروة عروة كما حدث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : تنقض عرى الإسلام عروة عروة فأولها نقضا الحكم وآخرها نقضاً الصلاة .

ثم تتجه إلى :

١ — إفساد وسائل التربية .

٢ — إفساد المرأة .

٣ — إفساد مفهوم السياسة .

٤ — إفساد وسائل الاعلام من إذاعة وتليفزيون وصحافة . . .

وما يهمنا الحديث عنه الآن كيف تم إفساد التربية والتعليم . . كيف تم محاصرة المسجد بحيث أصبح لا يؤدى الدور الذى كان يؤديه فى حياة الأمة المسلمة . .

إن إفساد الدور التربوى للمسجد اعتمد على إنشاء دور بديلة للعلم (مدارس معاهد — جامعات) لا تلتزم المواد التى تدرس فيها بالإسلام كعقيدة وشريعة . ويدرس فيها أساتذة ربام الاستعمار فى جامعاته ولا يحملون من الاسلام إلا أسماء أبنائه . . . ويتلقى فيها طلاب ليس لهم من الإسلام شىء إلا أسماء المسلمين . . .

وفى هذا الموضوع يقدم لنا الأخ اللواء ركن محمود شيت خطاب . نموذجا عن كيفية نجاح الاستعمار فى تجريد المسجد من أداء دوره فى اعداد الجندى المسلم وأنشأ — فى سبيل تحقيق هدفه — أجيالا لا تعرف ربها ولا دينها .

لست بحاجة إلى أن أنوه بأهمية العسكريين ضباطاً وضباط صف وجنود ومراتب أخرى لأن بيدهم القوة الضاربة ، وصلاحهم صلاح للأمة كلها ، وفسادهم فسادا لبلادهم ، لذلك ركز الاستعمار وساعدت الأيدى الخفية من ماسونية وصهيونية على العسكريين بخاصة ، وعملت على تربيتهم تربية فاسدة .

كانت الكليات العسكرية وكليات الأركان العربية والإسلامية تدرس تاريخ حرب المستعمرين، وتدرس تاريخ القادة اللذين استعمروا بلاد المسلمين بأسلوب يجعل الطلاب يؤمنون بتفوق المستعمرين وبضرورة الاقتداء بهم منهاجا وتصرفا .

وكان الطلاب العسكريون يتخرجون ضباطاً وهم يعرفون عن (الجنرال مود) و (الجنرال اللنبي) أكثر مما يعرفونه عن الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام وعن خالد بن الوليد .

وكان أكثرهم لا يعرفون عن قادة الفتح الإسلامي شيئاً مذكوراً ، ومن المذهل أن نسأل الضابط المسلم عن اسم القائد المسلم الذي فتح مدينته ونشر فيها العربية لغة والاسلام ديناً ، فلا يعرف هذا الضابط لهذا السؤال جواباً .

كما يدرس في الكليات العسكرية وكليات الأركان ، الفكر الغربي للسائرين بفلك الغرب ، والفكر الشرقي للسائرين ، بفلك الشرق من الناحيتين التعبوية (التكتيكية) والسوقية (الاستراتيجية) وقد تكون الأفكار الشرقية الغربية هذه لا تلائم الطبيعة الإسلامية ، وقد تكون على طرفي نقيض من هذه الطبيعة .

أما الفكر العسكري الإسلامي ، فغائب عن تلك الكليات ، أما التدريب العسكري فهو تدريب شرقي أو غربي ، ولا دخل للتدريب النابع من فكرنا وطبيعتنا في تدريب الطلاب المسلمين ، وما يقال عن التنظيم والتسليح ، يقال عن التدريب العسكري .

كل هذا التعليم والتدريب ، يدرس بلغة عربية ركيكة ، تشيع فيها المصطلحات الانكليزية والفرنسية والإيطالية ، وحتى الروسية أيضاً ، تأكيداً للاستعمار الفكري البغيض .

ولكن أفظع من كل ذلك ـ السلوك اللاأخلاقي الذي فرضه الاستعمار بكل أشكاله شرقياً أم غربياً ، قديماً أو حديثاً ، لقد أشاع هذا الاستعمار ، أن الدين والعسكرية على طرفي نقيض ، وأن المتمسك بدينه متخلف لا يمكن أن ينجح في مسلكه العسكري ، فعليه إما أن يترك دينه ، أو يتخلى عن عسكريته .

وإن من صفات العسكري الممتاز ، أن يكون فاسقاً فاجراً ، يعاقر الخمر ، ويلعب القمار ، ويصادق الغيد الحسان .

وقد سألنى ! آمر سريتى فى أول لقاء به ، هل تعاقر الخمر ، هل تلعب القمار ؟ هل تغازل الفتيات ؟ فلما أجبته بالنفى قال لى : لماذا تعيش إذن ؟ لأفضل أن تموت .

وقد تحمل العسكريون المتدينون ـ وهم قلة قليلة ـ ما تحملوا من عناء ليبقوا فى مسلكهم العسكرى ، وأكثرهم تخلوا عن العسكرية ، أو جرفهم التيار الوسخ ، وأقلهم ثبتوا على عقيدتهم بعد جهد جهيد .

وكان من يمارس الصلاة والصوم من العسكريين ويطبق تعاليم الدين الحنيف ثقيل الظل غير مريح .

وكان فى كل وحدة من الوحدات مقصف للخمور ، وكانت الحفلات تقام لأتفه الأسباب ، وهى حفلات داعرة خليعة يراق فيها الخمر وتقترف فيها المحرمات .

وقد توليت فى يوم من الأيام رئاسة نادى الضباط فى الموصل الحدباء بالانتخاب ، فتذمر من رئاستى أكثر الضباط ، لأن المقصف أقفر ، واشتد ساعد الضباط الذين يؤدون الصلاة .

وكان فى النادى سجل للاقتراحات فكتب أحد الضباط اقتراحا يقول فيه اقترح استقدام مقرىء للقرآن الكريم ليقرأ الذكر الحكيم فى النادى ، لأنه لم يبق فيه ما يسر الضباط .

وجاءنا قائد هام ، شعر أن كل شىء فى قيادته كامل وتمام ، ولم يبق غير تعليم الرقص ، فأصدر أوامره الصارمة الحازمة بتدريب الضباط على الرقص .

تلك هى لمحات عن السلوك اللاأخلاقى لذى فرضه الاستعمار على الضباط المسلمين

فهل يستغرب أحد بعد ذلك لانتصار مليونين ونصف المليون من يهود على مائة وعشرين مليوناً من المسلمين ؟

إن الضابط المتدين غريب بين أقرانه بكل ما فى الكلمة من معنى .

وكان الضباط حين يجدون ضابطا لامعا لا يشق له غبار فى عسكريته، ولكنه متمسك فى خلقه ودينه ، يتساءلون فيما بينهم : كيف يمكن أن يكون الضابط لامعاً ومتديناً ؟ كيف استطاع أن يجمع النقيضين ؟ أذلك ممكن ؟ أذلك يصير ؟

وتسأل هؤلاء . هل يحارب الدين العلم ؟ هل يدعو الإسلام إلى الجهل ؟ ماذا تعيبون على العقيدة الإسلامية منهجاً للحياة وسبيلا الفضيلة والخير ؟

لماذا إذن التنكر للدين ؟ ولمصلحة من هذا التنكر ؟

إن هذا التنكر لمصلحة الاستعمار وإسرائيل ما فى ذلك أدنى شك ؟

فى يوم من الأيام سألت أحد هؤلاء : ماذا تعرف عن العسكرية الإسلامية ؟ فأجاب بكل بساطة : لم أدرس هذا الموضوع فى الكلية العسكرية ولا فى كلية الأركان

إن الأيدى الخفية التى لا تريد الخير للمسلمين هى التى عملت وتعمل على إشاعة المفاهيم الخاطئة الهدامة عن الدين والمتدينين من العسكريين ، حتى لا تقوم قائمة للمسلمين ، وحتى ترسخ إسرائيل أقدامها فى الأراضى المقدسة .. فلسطين.

إنى أتحدى كل من يستطيع أن يذكر قائداً مسلما واحداً منتصراً، لم يكن يتحلى بالتدين العميق ، ولم يكن يؤمن بالمثل العليا النابعة من صميم تعاليم الدين الحنيف .

لن يستطيع أحد أن يذكر قائداً مسلما واحداً، كان له فى ميدان النصر تاريخ إلا وهو متدين إلى أبعد الحدود .

سيد القادات ، وقائد السادات ، الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام هو نبى الإسلام وسيد المنتصرين .

وقادة الفتح الاسلامى العظيم كلهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن التابعين عليهم رضوان الله .

لقد أحصيت عدد القادة الفاتحين ، فكانوا (٢٥٦) قائداً مسلماً منهم (٢١٦) من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و (٤٠) من التابعين عليهم رضوان الله .

وكان القادة المنتصرون بعد الفتح الإسلامى متدينين غاية التدين كما ذكرت سابقاً .

فمن أين جاء المستعمرون فرية التناقض بين التدين والعسكرية ، وإذا كان من حق الاستعمار والصهاينة أن يفتروا خدمة لمصالحهم ، فلماذا يصدقها المسلمون ولماذا يرددونها باقتناع ؟

وهكذا نجح الاستعمار فى إفساد مناهج التربية العسكرية لأبناء الأمة المسلمة، فكانت النتيجة التى نراها : انحسار المد الإسلامى عن الغالبية العظمى من بقاع الأرض التى جاهد من أجلها ونشر كلمة التوحيد فى ربوعها أجدادنا المسلمون بأموالهم وأنفسهم ...

ثم كيف نجح الاستعمار فى إفساد التربية : منهجاً ومعلماً وطلابا — بعد أن جردوا المسجد من أدائها ؟ .(١)

١ — كان التعليم قبل الاحتلال البريطانى دينيا فى أساسه، يتمثل فى الأزهر ومعاهده الدينية ، فجاء « دنلوب » المستشار الإنجليزى لوزارة المعارف المصرية وهو قسيس — فوضع سياسة تعليمية هدفها الأخير إبعاد المعلمين عن الإسلام . وكان تركيزه على تعليم اللغة العربية والدين والتاريخ الإسلامى أشد من تركيزه على بقية المواد ، وإن كان قد استخدمها كلها لتحطيم الروح المعنوية عند المصريين .

---

(١) الأجوبة مأخوذة نصاً عن مذكرة المجتمع الاسلامى المعاصر ، الاستاذ محمد قطب. وهو يتحدث فيها عن كيفية نجاح الاستعمار فى إفساد التربية منهجاً ومعلما وطلابا - بعد أن جردوا المسجد من أدائها فى مصر ! .

فبالنسبة للغة العربية كان يتعمد أن يعطى مدرسها راتباً أدنى بكثير من مدرسى المواد الأخرى - وبخاصة مدرس اللغة الإنجليزية - وينعكس ذلك على المدرس ذاته فيفقد مكانته البارزة فى المدرسة والمجتمع ، وينظر الناس إليه نظرة أدنى من غيره من المدرسين يسرى الشعور ذاته على اللغة التى يدرسها وهى اللغة العربية التى هى فى الوقت ذاته لغة القرآن . فتفقد احترامها بين الناس .

وأما حصة الدين فكانت تهمل بحيث توضع فى نهاية اليوم المدرسى والتلاميذ مرهقون من الدراسة ، ثم كانت تلغى فى نهاية العام مع كل المواد « الإضافية » التى لا تعتبر من صميم الجدول ، وهذا بالإضافة إلى أن مدرسها - هو أصلا من مدرسى اللغة العربية الذين امتهن دنلوب وضعهم الاجتماعى والمعنوى - كان ينتقى دائما من العجزة المسنين ، بحيث لا توحى حصة الدين إلى التلميذ بأى معنى من معانى الحيوية والنشاط ، (ويلاحظ - للمقارنة - أن حصة الدين فى المدارس التبشيرية كانت تجعل دائما فى باكورة الصباح والتلاميذ بنشاطهم كله لما يتبدد منه شىء وكان يتولى تدريسها فى كنيسة المدرسة أصبح المدرسين والمدرسات وأشبهم وأحبهم إلى قلوب التلاميذ) .

وأما حصة التاريخ الاسلامى فكان يبدأ فيها بتلك الجملة التقليدية : كان العرب فى الجاهلية يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويقومون بغارات السلب والنهب ، فنهاهم الإسلام عن ذلك . وبذلك - كما قلنا فى مقدمة هذه المحاضرات - يفقد الإسلام معناه الحقيقى ، ويصبح شيئاً من تراث التاريخ الماضى ، لم تعد له مهمة يؤديها فى الوقت الحاضر ، ثم يدرس تاريخ البعثة النبوية والخلفاء الراشدين بكل بهائه ورونقه ، ليدرس بعده السياسى الاسلامى وحده ، بمعزل عن التاريخ الاقتصادى والعلمى والحضارى والأخلاقى والعسكرى . . الخ والتاريخ السياسى هو فى الواقع خط الانحراف . الذى تحدثنا عنه من قبل . وهو فى ذاته حقيقة ولكنه ليس كل الحقيقة وإلى جانبه كانت توجد مجالات هائلة أحدث الإسلام فيها وقعا ضخما مليئاً بالنور ومليئاً بالأمجاد فالتركيز على خط الانحراف وحده وإهمال كل الجوانب الناصعة من

التاريخ الاسلامي قصد به أن يحدث أثراً معيناً في نفوس التلاميذ وهو أن الاسلام لم يعش إلا فترة الخلفاء الراشدين ثم لم يعد له بعد ذلك وجود وإذن فلا معنى ولا حاجة إلى محاولة بعث هذا التاريخ من جديد ، أما الذي يستحق الاتباع فهو أوربا ، فهي القوة وهي التقدم وهي الحضارة وهي النور .

هذا كله في المدرسة الابتدائية التي افتتحها دنلوب . أما في المدرسة الثانوية السائرة على المنهج فكان التهجم على الاسلام أصرح ، وتشويه حقائقه أشد . فإذا جئنا إلى مدرسة المعلمين التي تخرج المدرسين فقد كان الهجوم صريحا للغاية لتشكيل عقول الطلاب — الذين سيصبحون مدرسين — تشكيلا معاديا للإسلام أو على الأقل غير معتز به . ثم كان يختار من بين الخريجين أشدهم تأثراً بهذه التعاليم فيرسل في بعثة إلى انجلترا حيث يعود ليتقلد المناصب الرئيسية بعد تمام تشكيله على الوضع المطلوب فتتم الدورة من أول التلميذ إلى المعلم إلى واضعي المناهج إلى المشرفين على تنفيذها بطريقة معادية للاسلام .

٢ — وأما بالنسبة للمرأة فقد كان هناك عناية شديدة بإفسادها ، ذلك أن إفساد الرجل وحده لا يكفي لإفساد المجتمع كله ، إذا بقيت الأم — حتى على جهلها — متدينة ومتمسكة بأخلاقيات الاسلام وتقاليده وبالأخص في نواحي الجنس ، لأنها عندئذ ستلقن أطفالها مبادىء العقيدة ومبادىء الأخلاق في صغرهم بما يمسكهم ذلك عن الفساد الكامل ، ويردهم في النهاية إلى مالقنوه وهم صغارا . أما إذا أفسدت الأم ذاتها فلن تلقن أبناءها شيئا من الدين ولا الأخلاق ، فيسهل عندئذ إفساد الأجيال التالية وإبعادها عن الاسلام .

ولما كانت المرأة يومئذ جاهلة ومستقرة في بيتها فلم يكن من السهل الوصول إليها لإفسادها . ومن ثم لا نتعجب حين نرى مؤتمرات التبشير — التي تسعى لهدم الاسلام — تضع في مقرراتها « ضرورة العمل على تحرير المرأة المسلمة وتعليمها » (راجع كتاب الغارة على العالم الإسلامي ترجمة محب الدين الخطيب) .

وقد تولى قاسم أمين قضية « تحرير المرأة بعد أن أرسل في بعثة إلى فرنسا وهو شاب صغير السن وصاحبته هناك — كما كتب هو مذكراته — فتاة فرنسية

أثرت ولاشك فى كل مفاهيمه الاسلامية عن التقاليد والأخلاق وعلاقات الجنسين (راجع مذكرات قاسم أمين) ثم عاد إلى مصر يبشر « بتحرير » المرأة وبالسفور وبأن تصنع المرأة المصرية مثل « أختها » الفرنسية لترتقى وتتقدم وتتحضر ..

ثم قامت « هدى شعراوى » بالدعوة إلى السفور . وتكونت مظاهرة نسائية فى ثورة ١٩١٩ فتجمعت المتظاهرات فى ميدان الاسماعيلية (التحرير الآن) ، وخلعن الحجاب وسكبن عليه البترول وأشعلن فيه النار ، واعتبر ذلك بدء « تحرير » المرأة المصرية أى خروجها على طاعة ربها ، وأوامر دينها ، والسير فى المنزلق الذى رتبه لها أعداء الإسلام .

وفى أثناء ذلك أثيرت قضية تحرير المرأة ، وبدأت تتعلم أولا فى مدارس محافظة بالفعل ، لايسمح فيها بأية مخالفة أخلاقية ، وذلك لتطمين أولياء الأمور ليدفعوا بناتهم إلى المدارس دون خوف عليهن . ويكفى — فى هذه المرحلة — أن تتعود عيون الجماهير « المسلمة » على رؤيه فتاة فى سن الزواج تخرج حاسرة الوجه والرأس حتى إذا تبلدت حواسهم على ذلك تبدأ المرحلة التالية وهى تقصير الملابس رويداً رويداً ، ثم قص الشعر وتقصيره ثم الدخول فى عالم « المودات » الذى يؤدى فى النهاية إلى الفتنة .

وفى أثناء السير فى قضية التعليم تثيرت قضاياه الجديدة : لماذا تتعلم الفتاة تعلما نسوياً ؟ لماذا لا تتعلم على نفس طريقة الفتى ؟ ثم .. لماذا لا تدخل الجامعة مثلا ؟

وحين دخلت الجامعة بدأت تثار مسألة الاختلاط ، وبدأ المتبنون لقضية المرأة من كتاب وصحفيين وغيرهم يركزون على ضرورة الاختلاط بين الطالبات والطلبة وأن هذه هى « الروح الجامعية » التى ينبغى أن تتسم بها الجامعة وإلا فهى (رجعية) ما تزال تعيش بعقلية ما قبل « التحرر » ، وهكذا وجدت بذرة الاختلاط التى سرت تدريجياً فى المجتمع كله حتى أصبحت هى الأصل وأصبحت أوامر الاسلام من حجاب وعدم اختلاط هى الامر المستنكر فى هذا المجتمع تتصايح ضده الصيحات للتغيير فيه والقضاء عليه .

وبدأ « ركن للمرأة » فى الصحافة — إلى جانب صحافة المرأة المتخصصة — يتحدث عن « كيف تكونين جذابة ، وكيف تبرزين مفاتن جسدك » ٠٠ الخ . وأصبحت الفتنة هى الشغل الشاغل للمرأة ٠٠ إلا من عصم الله .

٣ — وبالنسبة المفهوم السياسى حرص المستعمر الصليبى وأعوانه على أبعاد السياسة عن الدين . وذلك لأنه حين تكون السياسة جزءا من الإسلام — كما هى حقيقة الواقع — يصبح المستعمر فى حس المسلم غازيا كافرا تنبغى مجاهدته حتى يجلو عن أرض الإسلام ، وتنبغى مقاومة شرائعه الوضعية وإعادة شريعة الله إلى الحكم بدلا منها . وفى هذا وذاك يكمن الخطر على المستعمر . أما إذا إنفصلت السياسة عن الدين فيمكن رويدا رويدا إعطاء الشرعية لهذا الإحتلال أو على الأقل تأخير الثورة عليه إلى أقصى المدى . فقام رجال من أعوان المستعمرين أمثال لطفى السيد يبشرون بهذا المفهوم الجديد وهو فصل الدين عن السياسة والقول بان الدين علاقة بين العبد والرب ، ومحله القلب ، ولا صلة له بالحياة الواقعية التى تحكمها السياسة بعيداً عن الدين (بدعوى أن السياسة ملوثة ولا ينبغى لها أن تلوث الدين السامى الرفيع) راجع مقالات لطفى السيد فى جريدة (الجريدة) » .

ولما ثارت ثورة الشعب المصرى فى النهاية على الإستعمار البريطانى سنة ١٩١٩ كانت ثورته دينية بحته ، وكانت تنبع من الأزهر ، ويقوم الخطباء الأزهريون بإذكاء حماسة الجماهير بتذكيرهم بالجهاد فى سبيل الله ، وبأن العدو الكافر لايجوز له أن يبقى فى أرض الإسلام ولابد من مجاهدته حتى يجلو . وكانت الجماهير تخرج بهذه الروح الدينية فتتعرض الموت برشاشات الجنود لايمنعها ذلك من مواصلة السير فى مظاهراتها ومواصلة الجهاد ضد المستعمر .

ولكن « الزعيم الشعبى » الذى تولى زعامة الثورة ، وهو سعد زغلول — وهو من تلاميذ مدرسة لطفى السيد — حول هذه الثورة فى منبعها إلى ثورة وطنية ، وأطلق ذلك الشعار المشهور « الدين لله والوطن للجميع » وطلب من أعوانه — وكان محبوبا عند الجماهير إلى درجة الهوس — أن يكفوا عن التحدث

باسم الإسلام مراعاة لمشاعر الأقباط المشتركين فى الثورة وهكذا تحولت المشاعر الدينية إلى مشاعر وطنية لا علاقة لها بالإسلام ، وأبعد الإسلام عن مجال السياسة وأصبح الحديث عن كون السياسة جزءا من الدين حديثا مستنكراً لدى « المثقفين » ورجعية لا ينبغى الإستماع إليها ولا مهادنتها — بل ينبغى القضاء عليها .

٤ — أما الفكر والثقافة والفن فقد مرت بسلسلة طويلة من الإفساد وكان للمستعمر تركيزاً شديداً عليها ، باستخدام كل وسائل الإعلام المتاحة يومئذ — وماجد منها فى أثناء الطريق — لأنه يترتب على تشكيل الأفكار والثقافة نتائج خطيرة جداً لم يغفل المستعمرون خطرها ولم يتوان عن استخدامها فى تنفيذ أغراضه .

فإلى جانب المدرسة الدنلوبية وتاثيرها فى تخريج أجيال لا تعرف حقيقة الإسلام بل لا تعرف عن الإسلام إلا صورة مشوهة منفردة (يستعمل فيها واقع المسلمين السيء لإعطاء فكرة مشوهة عن الإسلام ذاته) . . إلى جانب تلك المدرسة كانت هناك وسائل أخرى للافساد منها الصحافة للجماهير ، والكتب الثقافية للمثقفين ثم جاء دور السينما ، ثم الإذاعة ، وأخيراً التليفزيون .

فأما الصحافة فلم تكن — بادىء ذى بدء — تهاجم الإسلام ، وما كانت تجرؤ يومئذ على مهاجمته . ولكنها وصلت إلى هدفها بطريق ملتو طويل . فهى لاتهاجم الإسلام ولكنها فى الوقت ذاته لا نكاد تذكره إلا فى المناسبات أما الحديث الدائم فهو عن أوربا وحضارتها وتقدمها وعلمها وفنها . . ومشكلاتها أيضاً ، وعلى الرغم من أن هذه المشكلات كانت يومئذ خاصة بأوربا فقد راحت هذه الصحافة تؤكد أننا سائرون ـ لا محالة ـ على نفس الطريق الذى سارت فيه أوربا من قبل ومن ثم فستصيبنا ذات المشاكل ومن ثم أيضاً فلا بد أن ناخذ حلول تلك المشاكل من أوربا .

وكان هذا الإيحاء الخبيث يؤدى إلى نتيجتين فى آن واحد توجيه الأفكار كلها إلى أوربا بإعتبارها طريق المستقبل ، وفى هذا إبعاد لهذه الأفكار عن

الإسلام ثم البحث عن حلول المشكلات هناك فى أوربا وعدم محاولة البحث عن حلول لها فى الإسلام ، وفى هذا إبعاد أشد عن طريق الإسلام .

ثم كذلك تعويد الناس رويداً رويداً على إتخاذ وجهة النظر الغربية سواء فى جعل الدين علاقة بين العبد والرب محله القلب ولا مجال لتدخله فى أمور الحياة الواقعية ، أو فى التهوين من شأن التقاليد والأخلاق الخاصة بالجنس والنظر إلى تدخل الدين فى شأنها على أنه رجعية بائدة لا ينبغى الإستمرار فيها إنما ينبغى أن يؤخذ أمر التحلل الخلقى ببساطة ودون سعى إلى وقفه والحيلولة دونه .

وكذلك فى الإلحاح على قضية المرأة وتحريرها وخروجها إلى المجتمع ومخالطة الرجل بحجة مشاركته فى كل الأمور .

وهكذا ظلت الصحافة تهيء الأذهان على مدى خمسين عاما أو أكثر لليوم الذى يستخف فيه الناس بالإسلام وتقاليده وأخلاقياته ، ويتقبلون الصور العارية والنكت العارية والدعوة المكشوفة إلى الإباحية والتحلل ، بل يصل الأمر أخيراً إلى المهاجمة الصريحة للاسلام بوصفه رجعية ينبغى القضاء عليها .

وإذا كانت الصحافة قد جعلت لمخاطبة الجماهير فقد كان المثقفون على الطريقة الغربية يقومون بنفس الدور — وعلى ذات المراحل — بالنسبة للمثقفين من القراء فيلوون أعناقهم إلى أوربا ، ويبعدونهم عن الإسلام ، ثم ينفرونهم منه . . ثم يتجرأون فى النهاية على مهاجمته وتجريحه .

وأما « الفن » فقد كان بابا واسعاً من أبواب الفساد .

بدأ الأمر بالترجمة . والعجيب أنه فى الوقت الذى كان ينبغى أن توجه فيه الترجمة كلها إلى ترجمة العلوم النافعة ، والضرورية للمسلمين لينهضوا من تخلفهم العلمى ، فإن الواقع أن قليلا جداً من جهد الترجمة وجه إلى نقل العلوم النظرية أو العلمية ، أما الجهد الاكبر فقد وجه إلى ترجمة القصص الغرامية والمسرحيات .

وحقيقة أنه ترجمت بعض روائع القصص والمسرحيات العالمية ، ولكنها قليلة بالنسبة إلى الغثاء الذى كان يترجم ، والذى كان هدفه الأول عرض أشكال من

الاخلاقيات والتقاليد تتصادم تصادما مباشراً مع أخلاقيات الإسلام وتقاليده فيما يتعلق بالعلاقات بين الرجل والمرأة ، والتركيز على « الغراميات » وتصويرها فى صورة مغرية تجعل الشباب الذى يقرؤها يتمنى أن لو كانت التقاليد فى بلاده تسمح بمثل هذه اللقاءات والمغازلات والمناجيات .. حتى إذا سنحت الفرصة ـ ذات يوم ـ لتحطيم التقاليد . كان ذلك الشاب من المسارعين إلى التحطيم ، وكذلك الفتاة فلما جاء دور التأليف بعد الترجمة ، سار التأليف على نفس المنهج .. ثم ظل « يتطور » رويداً رويداً حتى صار همه السخرية بالأخلاق والتقاليد ، وتصوير الدين بأنه العائق الذى يعوق انطلاق البشرية .

وأما السينما فقد كانت فى مبدأ أمرها أجنبية مستوردة .. ولكن كان هناك إصرار شديد على الإنتاج المحلى الناطق بالعربية ، أنه ولا شك أيسر إلى الوصول إلى قلوب المتفرجين وأقدر ـ ومن ثم ـ على إفسادهم . ولقى هذا الاتجاه تشجيعاً شديداً حتى صار «الفيلم العربى» لا يقل سوءا عن الفيلم المستورد، بل كثيراً ما يكون تافه القيمة من الناحية الفنية ، ولكنه يحرص على عنصر الإثارة العارية ليشارك فى أداء الدور المطلوب .

وجاء دور الاذاعة فى حينه .. فوضعت دائرة الإفساد بالأغنية الخليعة وإشاعة التفاهة فى نفس السامع وشغله عن جديات الأمور ، واستغراق وقته بعيداً عن صحبة ربه وأوامر دينه ، وتحويل حياته كلها إلى لهو تافه مبتذل لا يكون أمة سليمة ، ولا ينشىء ـ بالذات ـ أمة تجاهد فى سبيل الله .

أما التليفزيون فقد كان خاتمة المطاف ...

بهذه الوسائل مجتمعة عمد أعداء الإسلام إلى تفتيت قوى الأمة الإسلامية وتبديد طاقتها ، وإبعادها ـ قبل كل شىء ـ عن مصدر قوتها الحقيقى وهو الإسلام، حتى يعيش الأعداء فى مأمن من بعث إسلامى جديد .

ولكن هذا الكيد كله ـ وإن كان قد أثر كثيراً فى اتجاه الأمة ولا شك ـ لم يكن ليقضى على الإسلام كما يريد الأعداء . « والله غالب على أمره ولكن

أكثر الناس لا يعلمون » . فقامت حركات للبعث الإسلامى فى مختلف بلاد الاسلام تجاهد لتدفع هذا الكيد ، وبناء الأمة ـ من جديد ـ على أساس قويم من كتاب الله وسنة رسوله . لتستعيد دورها التاريخى مرة أخرى ، وتحقق مرة أخرى أمر ربها إليها : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وصدق الله العظيم « وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

وإن كان ذلك فى حاجة إلى الجهاد المستمر حتى تنجلى الغاشية عن العالم الاسلامى ويعود إلى حيث يريده الله « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وهكذا يتأكد لنا أن السبيل الوحيد لكى تعود للمساجد إلى أداء رسالتها لابد أن يتوفر لها : الأستاذ الموثوق فى دينه وأمانته . . الذى يباشر الاسلام فى واقع حياته . . لا يأمر إلا بما يعمل من كتاب الله وسنة رسوله . . لا هدف له إلا تربية الشباب المسلم تربية إسلامية صحيحة تجعلهم دعاة مجاهدين فى سبيل الله بالنفس والمال والولد . . لابد من الأستاذ الذى لا يخاف فى الحق لومة لائم ، بل يهمه أن يستشهد فى سبيل الحق وإن خالفه الناس . . ثم تأتى بعد ذلك المادة العلمية ، لابد أن تكون كما كانت المواد التى يتربى عليها السلف الصالح لابد أن تكون تأصيلاتها كلها إسلامية . . تلتزم أساسا بالاسلام عقيدة وشريعة وترتبط أساساً بهدف المجتمع المسلم بل أهداف الأمة الإسلامية . . يتجلى ذلك فى النص والصياغة والأسلوب .

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » . . « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

« فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا . »

ثم ان الطالب يجب أن يكون نوعية معينة مقتنعة بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم . . وأن طالب العلم فى سبيل الله حتى يعود . . حتى يعد نفسه ليكون

داعية ومجاهداً فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .. هذه النوعيه لا يجب أن تكون درجة علمية أو لقبا أو منصبا هى أكبر همه لا بد من الطالب الذى لا يقعده طلب الدنيا عن طلب الآخرة . . الطالب الذى يحصل العلم لوجه الله تعالى وليس للكسب فقط وحب الظهور أو لخدمة أعداء الأمة الاسلامية ، بل أنه كلما ازداد طلب العلم عف عن طلب المناصب بل ويرفضها إذا كانت ستضيع كلمة الحق من على لسانه. فإن الطالب حينما يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله يعنى تماما إنه ارتضى الإسلام عقيدة وشريعة .

بهذه الدعائم الثلاث فقط وليس بغيرها يمكن أن تعود للمساجد الدور الذى كانت تؤديه فى حياة المسلمين الأوائل .

* * *

الفصل العاشر

« خاتمـــــة »

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على نهجه إلى يوم الدين وبعد .

فلقد تبينا فى دراستنا معنى كلمة « علم الآثار » والأهداف التى يمكن أن تتحقق من وراء الدراسات الأثرية مع سرد النتائج التى تحققت ويمكن أن تتحقق فعلا من ورائها .

ثم انتقلنا بالدراسة إلى وسائل علم الآثار فى البحث والحفر وكشف الآثار وتسجيلها ودراستها وإعدادها للنشر كوثيقة علمية يعتمد عليها المؤرخ فى معرفة تواريخ الأمم وحضاراتها .

وبعد ذلك تحدثنا عن أقسام علم الآثار ، وكيف مكنت آثار عصور ماقبل التاريخ للمؤرخين من كتابة قصة تاريخ الانسان الذى عاش فى هذه الحقبة السحيقة من الزمن .

وبالاضافة إلى ذلك قمنا بالحديث عن الجهود التى بذلت فى تجميع ودراسة آثار شبه الجزيرة العربية مع إعطاء أمثلة مختارة لهذه الآثار من المملكة العربية السعودية واليمن .

ثم واصلنا سيرتنا للتعرف على نماذج من آثار بلاد الشرق القديم فى مصر والعراق واختتمنا دراستنا بجولة بين الآثار الإسلامية فى العالم .

ولعلكم أحسستم معى بمدى النقلة البعيدة فى حياة البشرية بعد بزوغ فجر دعوة الاسلام ونشرها بقيادة محمد صلى الله عليه وسلم ...

فنى مصر القديمة وبلاد النهرين شاهدنا آثار عصور الوثنية :

قصور ، منازل ، معابد، أنصاب (تماثيل) مقابر ضخمة أنفق فى إعدادها الكثير من الجهد والمال والوقت ، بلا هدف سام فهى تتعاون جميعاً فى الإعلان عن سطوة الحاكم أو الزعيم ، وتحكم رجال الدين من الكهنة فى عقول الجماهير . لم يكن هنالك ضابط من حلال أو حرام فى تشييد وإقامة هذه الآثار ، لم يكن هناك من قيمة تتحقق سوى أن يقال أن زيداً كان عظيما ، أو كبيرا متناسين أن العظمة لله والكبرياء لله الواحد القهار .

الواقع أن كل ما شاهدناه قد أفادنا بمعلومات عن مدنية وتاريخ وحضارة هذه الشعوب ، ولكن ما هى القيمة الحقيقية وراء بعض ما أقيم مثل الأهرامات والمعابد والمسلات وغيرها ؟ إنه الطغيان والفساد . ألم يكن من الأولى أن توجه هذه الأموال فى المسح على قلوب الفقراء ، أو إعلاء كلمة حق ، أن هذه الانشاءات الضخمة تحدثنا عن فترة شردت فيها الإنسانية من عقالها ، ولذلك حق عليها قول رب العباد :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب أن ربك لبالمرصاد » .

أما الآثار الإسلامية التى تعرفنا عليها فى رقعة من الأرض تمتد من آسيا إلى أوربا وأفريقيا ، فهى تعرفنا بالمدى الذى وصلت إليه عقيدة التوحيد أيام أن كان الاسلام يحكم حياة البشرية ، وأيام أن كان حملته مسلمين حقاً .

شاهدنا (مثلا) المسجد البسيط الذى عمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه ، ليكون مكانا للعبادة تتصل فيه الذرة التائهة بربها العظيم . . ليرتفع منه النداء الجليل « الله أكبر » على مدار أربعة عشر قرناً لم يتغير ولم يتبدل يرتفع لكى يزداد المؤمنون إيماناً بان الله أكبر ، ولكى يرد الطغاة إلى صوابهم . . علهم يرتدعون . . لقد كان المسجد مدرسة يتعلم فيها المسلمون شئون العقيدة

والشريعة . . لقد كان مجلساً للشورى . . لقد كان وسيظل علامة بارزة على طريق الدعوة الإسلامية . . أى أن هناك قيمة حقيقية تتحقق فى حياة البشرية من وراء هذه الآثار الإسلامية .

لقد تعرفنا أيضاً على الفنون التى تعكسها لنا الآثار الإسلامية وكيف أن العقيدة الاسلامية بما تتضمنه من نظم وتوجيهات قد عاونت وتعاون على نضوج هذه الفنون ونظافتها .

لقد شاهدنا آثاراً تعكس فنونا ولدت فى ظل الاسلام . محكومة بتعاليم الاسلام : لا معابد ولا أنصاب ولا لوحات تنحرف بغرائز البشر . . لاتسلط ولكن مساجد مفتوحة لكل قاصد ، ترفع عينيك فيها فلا تجد سوى ما يردك إلى الله : آيات من القرآن أو زخرفة جميلة مما تريح العين وتذكر الانسان بخالق الكون والانسان .

كما عرفنا أيضاً أن هنالك آثاراً إسلامية تعكس لنا امتثال الفنان المسلم والصانع المسلم لأوامر الاسلام حينما أنشاها ليوجد بديلا من أوانى الذهب والفضة وغير ذلك مما يستعمل فى شئون الدنيا .

وشاهدنا أيضاً ـ وهذا مما يحزن القلب ويدميه ـ مساجد إسلامية وقد تحولت إلى كنائس أو يحال بين المسلمين وبين أداء شعائرهم فيها (مساجد سمرقند وبخارى . . وغيرها) أو مساجد أسيرة فى أيدى أهون خلق الله على الله (المسجد الأقصى) تنادى المسلمين أن يكونوا خير خلف لخير سلف . تنادى المسلمين أن يعودوا إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم حتى يكون لهم التمكين وحتى يستعيدوا مقدساتهم . وليجلجل فيها النداء العلوى الجميل النداء الذى يبارك العمر ويزكيه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

« صدق الله العظيم »

* * *

المصادر

١ — القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

٢ — سيد قطب ، فى ظلال القرآن . طبعة دار الشروق - بيروت - عام ١٣٩٤ هـ .

٣ — سيد قطب ، مشاهدة القيامة فى القرآن ، طبعة دار الشروق ، بيروت
محمد قطب « المجتمع الاسلامى المعاصر » مذكرات .

٤ — ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد فى هدى رب العباد محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ، المطبعة المصرية ومكتبتها ، القاهرة .

٥ — عبدالله المدرس : جرح وتعديل فى القرن العشرين . جريدة الشهاب العدد السابع السنة الثامنة ، بيروت ٢٨ شعبان ١٣٩٤ هـ .

٦ — د. محمد محمد حسين . حصوننا مهددة من داخلها : مكتبة المنار الاسلامية . الكويت . مكتبة الثقافة الدوحة الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ .

٧ — د . عبد العزيز صالح . الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول مصر والعراق) القاهرة ١٩٦٧ .

٨ — د. أنطوان مورتكات ، تعريب توفيق سليمان ، على أبو عساف ، قاسم طوير تاريخ الشرق الأدنى القديم - مطبعة الانشاء - دمشق .

٩ — د. أحمد فخرى - عن الشرق الأدنى القديم .

د. محمد عبد العزيز مرزوق ، بين الآثار الاسلامية فى العالم : الاسكندرية ١٩٧٢ هـ .

C. Aldred, Egypt to the end of the old kingdom. London Thames & Hudson

L. Woolley, Digging up to the past (Pelican book)

(وترجمة د. حسن الباشا وقدمه د. عبد المنعم أبو بكر تحت عنوان) مدخل إلى علم الآثار ، دار سعد للطبع والنشر ، القاهرة .

١٠ — د. عبد الفتاح شحاته ، دراسات فى تاريخ العرب وصدر الاسلام ، القاهرة ١٣٩٢ هـ .

T. Gianakoulis, The land and people of Greece.

ترجمه محمد أمين رستم وقدمه د. عز الدين فريد تحت عنوان اليونان شعبها وأرضها ، القاهرة ١٩٦٦ .

د. محمد كامل عياد . تاريخ اليونان ، الجزء الأول دمشق ١٩٦٩ .

محمود حمزة . زكى محمد حسن (مترجمان) . علم الآثار القاهرة ١٩٣٦

د. ابراهيم رزقانه ، د. محمد أنور شكرى ، د. عبد المنعم أبو بكر ، د. حسن أحمد محمود ، د. عبد العظيم محمد حسنين ، حضارة مصر والشرق القديم ، القاهرة .

سليم أنطون مرقص ، حضارات غارقة ، القاهرة .

روبرت سلفر برج الآثار الغارقة

د. محمد عبد العزيز مرزوق ، قصر الحمراء

د. عبد اللطيف أحمد على — التاريخ اليونانى — بيروت ١٩٧٣ .

د. عبد المنعم أبو بكر — مذكرات فى الآثار المصرية — القاهرة

د. جلال يحي — العالم العربى الحديث — دار المعارف مصر

على حافظ — فصول من تاريخ المدينة — جده

حسين عبد الله باسلامه — تاريخ عمارة المسجد الحرام — القاهرة

حمد الجاسر — رسائل من تاريخ المدينة .

جوستاف لوبون (تعريب عادل زعيتر) ، حضارة العرب القاهرة

و ل. ديورانت (تعريب محمد بجيب سالم) ، قصة الحضارة

سيديو (ترجمة عادل زعيتر) تاريخ العرب العام
د. عبد الحميد زايد ، الشرق الخالد
ج. ه. برستد (تعريب سليم حسنى) فجر الضمير
ج. ه. برستد (تعريب زكى سوس) تطور الفكر والدين فى مصر القديمة .
موسكاتى (تعريب د. السيد يعقوب بكر)، الحضارات السامية القديمة
ا. ارمان (تعريب د. محمد أنور شكرى + د. محمد عبد المنعم أبو بكر) ديانة مصر القديمة ـ القاهرة
محمد عبد الله عنان . الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال القاهرة
د. كمال الدين سامح فن العمارة الإسلامية
المجتمع العدد ١٣٩٥/٢٨٠

(١) الخط الموضوع تحت أسماء الكتب يحدد المقطع المختصر المستعمل ، هوامش الكتاب .

R.J. Braid wood, Archeologist and what they do, New York.

L. Cottrell, Digs and diggers, London.

H.W.F, Saggs, The greatness that was **Babylon,** London.

L.W. King, A history of sumer and Akkad, New York.

H.R. Hall. The Ancient History of the Near East, London.

G. Deniel, The origins and growth of Archeology, London.

E. Bevan, Ancient Mesopotamia (The Land of the two rivers) Chicago.

Battero, Cassein, and Vercoutter, The Near East, The Early civilisation.

Bernadelte d'Anval-Faure, Pratique de l'archeologie.

Creswell, Early Muslim Architecture Oxford 1,4

Kuhnel, (1) Maurische Kunst, Berlin 1924.

(2) Orient-Teppich, Islamiche Abteillung.

Marcais, L'art de l'Islam Paris 1946.

F. Girouin, L'Afrique du Nord Muslim au Moyen-Age.

Diez, Die Kunst del Islamischen Volker Berlin 1935.

Gluck und Diez, Die Kunst des Islam.

Lane, Early Islamic Pottery, London.

Pederson, Masdjid, Encyclopedia of Islam.

Lane-Poole Catalogue of Arabic Coins in Khedivaial Library at Cairo, 1897.

Arnold, Painting in Islam.

Marcais, La chair de la Grande Mosquée d'Algér.

Violet et Flury, un Monuement des premieres scieles de l'hégire en Perse, Syria 192.

Brown, Indian architecure (The Islam Period) Bombay 1942.

Lomm, The spirit of Moslem Art.

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

مؤسسة دار الشعب
للصحافة والطباعة والنشر
٩٢ شارع قصر العيني . القاهرة
تليفون ٣١٨١٠ - ٣١٨١٧ - ٣١٨١٨
٣١٨١٩ - ٣٢٠٨٤ - ٢٩٩٩١